دانتي اليجييرى

الكوميديا الإلهية

الجزء الثاني

المطهر

دار الخلود
للنشر والتوزيع

الكوميديا الإلهية

المطهر

■ الكتاب: الكوميديا الإلهية ـ المطهر

■ المؤلف: دانتي اليجييري

■ الناشر: الخلود للنشر والتوزيع

42 سوق الكتاب الجديد ـ العتبة ـ القاهرة

تليفون: 0181607185 ـ 25919726 فاكس: 25102954

E-mail: dar_alkholoud@yahoo.com

رقم الإيداع: 2020/4198

مقدمة

"المطهر" هو الجزء الثانى من "الكوميديا الإلهية" للشاعر الإيطالى العظيم دانتى أليجييرى. وقد استمد دانتى مادته من الأسطورة والتاريخ، ومن العلم ومظاهر الطبيعة ومن المجتمع، ومن خفايا النفس ومن الدراما الإنسانية ومن الفن ومن الإيمان والأمل والشوق إلى الله. وفى "المطهر" يتدفق شعر دانتى كالماء النمير الصافى ، وفيه البهجة والتجلى الشعرى بالتقاء دانتى وبياتريتشى بعد طول فراق. ويحتوى الكتاب على مقدمة تاريخية أدبية مطولة، يليها متن الترجمة مصحوبة بألوف من الشروح والحواشى، فى اللغة والأساطير، والعلم والتاريخ والادب والفنون التشكيلية وفن الموسيقى ويعد هذا العمل تحفة أدبية رائعة وحدثا فى تاريخ الترجمة. إذ يقوم على التذوق والمعايشة والدرس الطويل ، الذى توفر عليه المترجم أكثر من عشرين عاما، ولم يأل جهدا فى التردد على المواضع التاريخية، واستيحاء أماكن الذكريات ، واستلهام مشاهد الطليعة وروائع الفنون، وزيارة دور الكتب ودور المحفوزات والجامعات والجمعيات "الدانتية" فى إيطاليا وفرنسا وإنجلترا والولايات المتحدة الأمريكية..

ويغادر كل من دانتى وفرجيل الجحيم، ويصلان إلى جبل المَطْهَر ومن هناك يتسلقان إلى شرفات مضيئة فيها الموتى الذين وهبوا الخلاص يبحثون عن الغفران من الخطايا التى اقترفوها على الأرض. ويملأ جو من الأمان والأمل ذلك المكان الخاص بالتطهر، على عكس المعاناة الكبيرة واليأس اللذين مرا بهما فى الجحيم.

إذا قيست فكرة المطهر بفكرة الجحيم بدت فكرة رحيمة؛ ذلك أن فى مقدور الإنسان بجهده وألمه، وأمله ورؤياه، أن يطهر نفسه من الذنوب والأثرة، ويرق

خطوة خطوة فى مدارج الإدراك، والحب، والنعيم، والمطهر، كما يصوره دانتى، مخروط جبلى مقسم إلى سبع طبقات: ما قبل المطهر وهو سبعة أسطح ـ واحد للتطهير من الذنوب الميتة ـ وفى أعلاه يقوم الفردوس الأرضى.وينتقل المذنب من كل طبقة إلى التى تليها وتقل آلامه كلما انتقل إلى طبقة أعلى من التى كان فيها، وفى أثناء هذا الانتقال ينشد ملك إحدى التطويبات. وتوجد فى المراحل السفلى من المطهر سبع عقوبات للذنوب التى اعترف بها وغفرت، ولكنها لم يكفر عنها بما يكفى من العقاب. بيد أن هناك فارقاً عظيماً بين المطهر والجحيم من هذه الناحية؛ ففى الجحيم يعرف الإنسان هذه الحقيقة المريرة وهى أن العذاب سرمدى، أما المطهر ففيه تلك الحقيقة التى تبعث القوة فى النفس وهى أن السعادة السرمدية ستعقب العقاب الذى أحل له أجل ينتهى عنده. ويسرى فى هذه المقطوعات مزاج أرق وضياء أبهى مما يسرى فى المقطوعات السابقة،وتكشف عن دانتى يتعلم الرأفة من فرجيل مرشده الوثنى. ويغسل فرجيل بالدهن والندى ما غطى وجه دانتى من عرق الجحيم وأقذارها. وتتلألأ فى ضوء الشمس المشرقة مياه البحر الذى يحيط بالجبل حين تهتز النفس التى كدرتها الذنوب طرباً وهى تستقبل الرحمة الإلهية. وهنا فى الطبقة الأولى يلتقى دانتى بكاتو اليوتكى، الرواقى الصارم العنيد، الذى آثر أن يقتل نفسه على أن يتلقى عذاب رحمة قيصر. وقد وضعه دانتى فى هذه الطبقة تحقيقاً لأمل تومس أكانوس فى أن ينجو بعض عبدة الأوثان من الهلاك. وفى هذه الطبقة نفسها يقيم مانفرد بن فردريك الذى قاتل بابا من البابوات ولكنه أحب الشعر. ويسرع فرجيل بدانتى وهو يتلو عليه تلك الآيات التى تجرى على كثير من ألسنة الناس.

"دع الناس يتكلموا، وقف أنت كالبرج المتين الذى لا تهتز قمته وإن هبت عليه كل الرياح". وليس المطهر بالمكان الذى يوائم فرجيل، فهو لا يستطيع أن يجيب عن أسئلة دانتى بالسرعة التى تعّود أن يجيب بها عن أسئلته فى الجحيم. وهو يحس بنقص ذكائه، ويظهر أحياناً حنيناً يؤلمه، غير أن ألمه هذا يزول حين يلتقى

الشاعران بسردلو. ويحتضن الشاعران إبنا مانتوا أحدهما الآخر، يؤلف بين قلبيهما حبهما للبلدة التى قضيا فيها عهد الشباب. وفى هذه اللحظة ينطلق لسان دانتى بهذا الخطاب المؤلم يوجهه إلى بلده، ويلخص فيه مقاله عن الحاجة إلى الحكومة الملكية:

أى إيطاليا المستعبدة! يا موطن الأحزان! يا سفينة بغير دليل فى مهب العاصفة الهوجاء! يا سيدة انتزعت منها ولاياتها الجميلة، ولم تعد إلاّ ماخوراً دنساً! إن هذا الروح الرقيق قد حفزه الصوت الجميل الصادر من بلده العزيز أن يحيى رجلاً من أهل وطنه مرحباً به مبتهجاً بلقائه. وفيك يقيم الأحياء من أبنائك يقتتلون؛ يأكل الواحد منهم لحم أخيه من الغل والحقد؛ نعم ما أشد الضغن الذى يملأ قلوب من يحيد بهم جدار واحد وخندق واحد. ألا أيها البائس الحزين طف بشواطئ بجارك، ثم عد إلى نفسك فاسألها هل يستمتع جزء منك بالسم الحلوة؟ وماذا يفيدك إذا كان جستنيان قد (أحيا القانون الرومانى) من أجلك، وهل ينفعك أن يصلح العنان إذا كان السرج (بغير مَلك)؟ أيها الخلائق، يا من يجب عليكم أن تظلوا مخلصين أوفياء، أجلسوا قيصر فى السرج إذا شئتم أن تستجيبوا لأمر الله!".

وكأنما أراد دانتى أن يظهر شوقه إلى الملوك الذين يستطيعون القبض على الأعنة الثابتة، فيصف لنا كيف يقوده سردلو هو وزميله إلى واد مشمس جميل عند سفح جبل المطهر منثورة عليه الأزهار، ويفوح منه شذى عطرها الذكى، ويقيم فيه الإمبراطور رودلف، وأتوكا ملك بوهيميا، وبطرس الثالث ملك أرغونة، وهنرى الثانى ملك إنجلترا، وفليب الثالث ملك فرنسا.

وتقود لوشيا (التى ترمز إلى ضوء رحمة الله) دانتى وفرجيل، ويدخلهما أحد الملائكة إلى الشرفة الأولى من شرفات المطهر. وهنا يعاقب المتكبرون بأن يحمل كل منهم فوق ظهره المقوس حجراً ضخماً، وترى على الجدار والطوار نقوش بارزة تصور أعمال التواضع الذائعة الصيت وما للكبرياء من نتائج رهيبة. وفى الشرفة

الثانية يرى الحاسدون فى أثواب من الخيش الغليظ، تخلط عيونهم باستمرار بخيوط من حديد؛ وعلى السطح الثالث يستقر الغضب، وعلى الرابع الكسل، وعلى الخامس البخل، ويلقى كل واحد منهم ما يستحقه من العقاب.ويرى على هذا السطح الأخير البابا هدريان الخامس، الذى كان فى وقت ما حريصاً على الثروة. يكفّر عن ذنبه وهو هادئ هدوء الواثق من النجاة فى آخر الأمر. وفى إحدى الحوادث الباهرة التى تضىء ختام قصة المطهر يظهر الشاعر الرومانى استاتيوس ويحيى الشاعرين الجائلين ويظهر من السرور بلقائهما ما يندر أن يظهره شاعر يلتقى بشاعر آخر على ظهر الأرض. ويصعد الشعراء الثلاثة جميعاً إلى السطح السادس حيث يطهر النّهمون من نهمهم. وهناك تهتز الفاكهة الذكية الرائحة على الأشجار أمام أولئك النادمين، فإذا امتدت أيديهم إليها لتقطفها استرجعت الأشجار فاكهتها؛ وتسمع أصوات فى الهواء تردد ما فى التاريخ من أعمال القناعة. وعلى السطح السابع والأخير يستقر الذين كان جرمهم أنهم لم يستعففوا، ولكنهم اعترفوا بذنبهم قبل الموت، وهؤلاء يمسسهم مساً خفيفاً ليطهرهم من ذنبهم. وهكذا يظهر دانتى أنه يعطف عطف الشعراء على آثام الجسد وخاصة إذا ارتكبها ذوو المزاج الفنى ممن هم لهذا السبب رقيقو الإحساس، واسعوا الخيال، مندفعون فى أعمالهم. ومن بين هؤلاء جيدو جوينزلى؛ الذى يحبه دانتى ويسميه أباه فى الأدب، ويشكر له "الأغانى الحلوة، التى ستوحى إلينا ما بقيت لغتنا بأن نحب المداد الذى خطت به". ويقودهما أحد الملائكة خلال نار فى صعودهما الأخير إلى جنة الأرض، وهنا يودع ڤرجيل صاحبه بقوله:

«إن علمى لا يصل إلى أبعد من هذا، لقد سرت بك بحذقى وفنى إلى هذا الحد، فاتخذ الآن مسرتك دليلاً لك... انظر! تر الشمس التى تسطع أشعتها على جبتهك؛ انظر! تر الأعشاب والشجيرات والأزهار التى تخرجها هذه الأرض موفورة من تلقاء نفسها. وإلى أن تأتيك هاتان العينان الوضّاءتان (عينا بياتريس) تشع منهما البهجة، وهما اللتان جعلتانى ببكائهما أسرع إلى معونتك حيث تشاء. ولا تنتظر أن تسمع منى بعد الآن صوتاً أو غشاوة تحذرك. وإذ كنت الآن حراً

تختار لنفسك ما تشاء، حصيفاً، حكيماً... فإنى أخلع عليك التاج والعمامة وأجعلك سيد نفسك.»

ويجوس الآن دانتى خلال الغابات والحقول، وعلى ضفاف الأنهار فى جنة الأرض ومن ورائه ـ لا من أمامه ـ فرجيل واستاتيوس، يستنشق هواءها النقى ذا الرائحة الذكية، ويستمع من خلال الأشجار شدو الطير تغنى القسم الأول من النشيد الكهنوتى. وتمتنع سيدة تجمع الأزهار عن الغناء لتشرح لم خلت هذه الأرض الجميلة من الناس، فتقول إنها كانت فيما مضى جنة عدن، ولكن الإنسان عصى ربه، فأخرج هو وذريته من مباهجها البرئية. وتنزل بياتريس من السماء إلى هذه الجنة المفقودة يحيط بها لألأء يذهب سناه بالأبصار، فلا يستطيع دانتى، أن يراها بعينه، بل كل ما يقدر عليه أن يحس بوجودها:

"ومع أن عينى لم ترياها فقد سرت منها قوة فضلى خفية لم أكد أمسها حتى استبدت بى قوة الحب القديم".

ويلتفت ليحدث الشاعر الذى يرشده، ولكن فرجيل كان قد عاد إلى المحيط الخارجى للجحيم وهو الموضع الذى جاء به منه استجابة لنداء بياتريس. ويبكى دانتى ولكن بياتريس تأمره أن يندب بدل البكاء شهواته التى دنس بها بعد موتها صورتها التى فى قلبه. وتؤكد له أن تلك الغابة المظلمة التى أنجته منها على يد فرجيل لم تكن إلاّ حياة الدعارة التى ضل فيها فى منتصف عمره واظلم أمامه بسببها السراط المستقيم. ويقع دانتى على الأرض من فرط الخجل، ويقر بذنوبه، فتقبل عذارى سماويات ويشفعن له عند بياتريس التى أساء إليها بفعله، ويرجونها أن تكشف له عن جمالها الثانى الروحى. وليس هذا لأن بياتريس قد نسيت جمالها الأول:

"فأنت لم تر فى حياتك، لا فى الفن ولا فى الطبيعة شيئاً يبلغ من الحلاوة ما بلغته تلك الأعضاء التى كانت داخل إطارها الجميل، والتى تناثرت الآن هباء".

ويرق قلبها، وتكشف له عن جمالها السماوى الجديد، ولكن العذارى يحذرن دانتى من النظر إليها مباشرة، ويطلبن إليه أن يكتفى بالنظر إلى قدميها. وتقوده

بياتريس هو واستاتيوس (الذى أتم أجله فى المطهر بعد أن قضى فيه اثنى عشر قرناً) إلى نبع يخرج منه نهران ـ أحدهما ليثى (النسيان) والآخر يونوئى (الفهم الصالح). ويشرب دانتى من يونوئى فيتطهر، وتتحدد حياته، و"يصلح للصعود إلى النجوم". وليس صحيحاً أن وصف الجحيم هو وحده الجزء الطريف الممتع فى الملهاة المقدسة. نعم إن فى وصف المطهر كثيراً من الفقرات التعليمية المجدية، وإن فيه على الدوام قدراً كبيراً من اللاهوت الذى لا حاجة للقصيدة به، ولكنها وقد خلت فى هذا النشيد من رهبة التعذيب ترثى فى مدارج الجمال والحنان خطوة بعد خطوة، وتغمر هذا الرقى بجو من جمال الطبيعة الذى عاد إليها من جديد فأكسبها بهجة وطلاوة، وبذلك تتأهب القصيدة لأن تضطلع بشجاعة بذلك الواجب العظيم واجب إحاطة بياتريس المجردة من الجسد بالجمال الروحانى، وبفضلها يدخل دانتى الجنة مرة أخرى، كما دخلها فى أيام شبابه.

**

بعد أن طلب من ربات الإلهام مساعدته على الغناء ليكتب انشودته، رفع دانتى رأسه ورأى أربعة نجوم " لم ترها عقب أولى نظرات البشر عينا انسان" وهى ترمز للفضائل الأربع الأخلاقية (الاعتدال والحذر وروح العدل وقوة النفس)، والمقصود بأولى نظرات البشر هن نظرات سيدنا آدم وحواء، أى أن هذه النجوم تشرق فقط فى العالم الذى يحتوى المطهر.

الفضائل الأخلاقية الأربع

وما أن نظر إلى القطب الآخر حتى أبصر شيخا وقورا ، وعرف أنه ماركوس كاتون، وهو سياسى رومانى مؤيد للجمهورية، وبعد سقوطها على يد القيصر، انتحر! وهو هنا فى عالم دانتى بمثابة الحارس لمدخل المطهر، فبالرغم من أن دانتى يعتبر الإنتحار خطيئة ـ أوردت عقوبتها فى البوست السابق ـ إلا أنه يفسر انتحار ماركوس على أنه توسل لحرية أخلاقية وسياسية وبالتالى مرادفا للشهادة، وهذا إن دل على شىء فهو يدل على عمق دانتى وحرصه على أن يرسم صورة عادلة بأدق التفاصيل بحيث تراعى نية الانسان اللآثم.

بعد تركهما لماركوس كانا لايزالان ازاء البحر، عندها وصف دانتى مشهد تقدم ملاك باتجاههما على النهر من دون مركب ولا شراع، وأخذ يصف شكله النورى، وجناحيه، وبين أنه جاء ومعه مركب حمل أكثر من مائة روح، ألقاهم على الشاطئ، ورسم عليهم علامة الصليب ورحل كما جاء.

تقترب الأرواح من دانتى، وتحتضنه حتى حرضته على أن يحضنها بالمثل لكن الروح لا يمكن لمسها، ويتعرف دانتى على أحد الأرواح الهائمة ويتضح بأنه موسيقى ايطالى اسمه كازيلا، ويطلب منه دانتى أن يروح عن نفسه بسبب ما شهده فى الجحيم ببعض الغناء فإذا به يبدأ الغناء ويقول " يا حبا فى صميم قلبى يتفكر". أخيرا تتفرق الأرواح وتجرى بعد أن نهرها حارس المطهر باحثة عن الطريق إلى الجبل، وبنفس السرعة انفض دانتى وفيرجل. أثناء السير لجبل المطهر ينتبه دانتى إلى أن الوحيد الذى يمتلك ظلا، ويشرح له فيرجل السبب فى ذلك، وينهى شرحه بفكرة الإيمان - أن ليس كل ما نعجز عن رؤيته غير موجود! - وعندما كانا يبحثان عن مكان قابل لتسلق الجبل صادفا مجموعة من الأرواح منها روح مانفريد ودار بينهم حوار.

قبل صعود المطهر مر الشاعران على (المرحلة الأولى، والثانية، ووادى الأمراء المهملين نحو واجباتهم).

يشرح فيرجل لدانتى طبيعة جبل المطهر والتى تقل صعوبته كلما صعدت إلى الأعلى، كما يتعرف دانتى على أصحاب هذه المرحلة من الجبل وهم - الكسالى - وعقابهم أخف بكثير من الجحيم لأنهم تائبون لكنهم تأخروا فى التوبه، كما أن لعقابهم نهاية فى المطهر وليس سرمديا مثل الخالدين فى الجحيم! وكنموذج يحاور دانتى أحد مصممى الآلات الموسيقية الذى عرف بكسله واسمه بلاكو.

المرحلة الثانية: اكمل الشاعران طريقهما إلى المرحلة الثانية، وصادفا مجموعة من الناس تسير وتغنى بالتتابع (ربنا، رأفة بنا)، واستغرب الناس من كون دانتى انسانا حيا، واتضح لاحقا أنهم من ماتوا مقتولين فى الأرض وتابوا فى آخر لحظات حياتهم، وقد حاور بعضا منهم مثل: جاكويو دل ماسيرو، وشارل الثانى لآنجى.

" الوادى الزاهر": خصصت للأمراء الذين أهملوا واجباتهم، وفيها التقى شاعرانا ببعض الملوك مثل: الامبراطور رودولف الألمانى، وأتوكار ملك بوهيميا، وفيليب الثالث ... منهم من كان يلطم صدره، والآخر يضع يده على خده ويتنهد من الألم والحسرة.

حلم دانتى وبوابة جبل المطهر: بسبب كونه انسانا فانيا فقد داعب دانتى النعاس واستسلم للنوم على العشب، وحلم بأن نسرا ذهبيا فى السماء كان يحوم حوله وفجأة انقض عليه واختطفه، وشعر بأنهما يحترقان، فاستيقظ من حلمه فزعا، وإذا به قد تم نقله إلى بوابة المطهر!!

حلم دانتى: اختطافه من قبل النسر الذهبى

شرح فيرجل لدانتى بأن القديسة لوتشيا قد حملته أثناء نومه إلى بوابة المطهر، ثم أخذ دانتى يصف البوابة: تتكون من ٣ درجات، وعلى الدرجة الثالثة جلس حارس البوابة بسكوت، إلى أن رآهما فسألهما ولما نال منهما الجواب، سمح لهما بالتقدم للدرجات الثلاث: كانت أولاهن مصنوعة من المرمر - يرمز للطور الأول للتوبة - والثانية من صخرة خشنة محترقة ولونها أحمر داكن - لون الاعتراف بالخطيئة - وآخرها حمراء نارية وكأنها دم فى شريان - رمز للمحبة التى تظهر فى قلوب التائبين - وأخيرا بعد الثلاث درجات كانت هنالك عتبة البوابة المصنوعة من الألماس - رمز الثبات والمواصلة - وقبل أن يسمح لهما بالدخول، جثى دانتى على ركبتيه وضرب صدره ٣ مرات، فوافق الحارس على فتح البوابة ،إلا أنه خط بسيفه سبع خطوط على جبين دانتى - الخطوط ترمز لأول حرف من كلمة خطيئة peccato الحرف P - وذكره بأن لا ينسى بأن يمسح هذه الندوب فى الداخل! ثم استخدم الحارس مفتاحين لفتح البوابه أحدهما ذهبى والآخر فضى - مفتاحى الأرض والسماء اللذان أعطاهما المسيح لبطرس - وحذرهما بشأن النظر للخلف فى المطهر حتى لا يتم طردهما.

بوابة جبل المطهر

الافريز الأول من المطهر: بعد أن مضى الشاعران للداخل، شاهدا صخرة عظيمة، وأخذ دانتى يصف روعتها وما نحت فيها من شخصيات مثل: جبرائيل عليه السلام

ومريم العذراء... ثم التقى بالجموع التى كانت تدفع ثمن خطيئتها هنا وهم المسيحيون المتغطرسون، وعقابهم كان حملهم لأوزار متراوحة الحجم. بعد ذلك يتلو دانتى دعاء لربه ، ويلتقى ببعض المتغطرسين مثل: غوليلمو ألدوبراندسكى.

الحلقة الأولى من المطهر: المتغطرسون / المغرورون

يمر دانتى وفيرجل عبر طريق مزين برسومات تتناول شخصيات تاريخية وأساطير، ثم التقوا بملاك دلهم على الطريق للافريز الثانى ، وتكون البداية مع سماعه ترتيل "طوبى للمساكين فى الروح" ـ مقولة مشهورة لسيدنا المسيح والمعنى فيهم خفاف العقل ـ ويبدى دانتى ملاحظة هنا وهى " شتان بين هذه المداخل ومداخل الجحيم، فهنا يدخل المرء وسط الأناشيد، وهناك خلل وحشى الصراخ". كذلك فى هذه المرحلة أبدى دانتى استغرابه لشعوره بأنه أصبح أخف، وعند سؤاله لمرشده أجاب بأن الملاك قد لامس دانتى بجناحيه وهكذا مسح أول حرف P من التى خطها حارس بوابة المطهر، وأزاح عن كاهلة وزر أول خطيئة فى المطهر! عندها تفقد دانتى جبهته بيده اليمنى ووجد فعلا بأن هنالك ٦ أحرف فقط من أصل ٧ وابتسم فيرجل عندما لاحظ ما فعله دانتى.

الافريز الثانى: يصفه دانتى بأنه خال من أى منحوتات أو رسومات، وسمع فيه دانتى دعوات مهذبة للمأدبة، وشخص يكرر "أنى أوريستس" ـ القائل هو بيلاديس صديق أوريستس الذى كان يريد الانتقام من قتلة أبيه، وقد كذب بيلادس وادعى أنه صديقه لكى يحميه لكنهما فى النهاية نجيا معا ـ وشخص يقول "أحبوا من ألحق بكم الضرر" وقد أوضح فيرجل أن سبب وجود هذه الأصوات فى هذا المكان هو لتوبيخ الحاسدين، والمنطق وراء ورود هذا التناقض فى كل طبقات المطهر هو بكلماته دانتى: "الكابح ينبغى أن يكون نغمة مغايرة"!

وهكذا فإن الحاسد محاط فى المطهر بأصوات المحبة، لكنه محروم من أشعة الشمس، وملقى على الطريق، يلبس جلبابا خشنا، وعيناه تتوسلان، ورأسه يتكئ اما على الصخر أو على زميل له. وكعادته يحاور دانتى بعضا من الشخصيات التاريخية التى سكنت هذا المكان.

الافريز الثانى: الحسودين

الافريز الثالث: " طوبى للرحماء" " أيها الظافر لك البشر" هكذا كانت التراتيل بعد اجتياز دانتى للإفريز الثانى، ومرة أخرى شاهد دانتى ملاكا× ومن :وره اضطر دانتى أن يغطى عيناه مستخدما يده كالمظلة. أما المشهد الذى تمثل أمامه لاحقا كان عبارة عن مجموعة من الناس يرجمون رجلا بلا شفقة، فقام الأخير ورفع نظره للسماء طالبا من الله أن يغفر لقاتليه، ويتبن بأنه القديس اسطفانس. وقد خصص هذا الإفريز لسريعى الغضب

الإفريز الثالث: سريعى الغضب

يتجه فرجيل ودانتى للإفريز الرابع عن طريق سلم، وقد التقيا ملاكا مرة أخرى، ثم أبدى دانتى تعبه فتوقف الشاعران، وسأل دانتى عن سكان الإفريز الرابع فأعطاه فيرجل جوابا يتناول نظرية المحبة ، فهى أساس أى فضيلة أو رذيله، والمحبة حسب دانتى قسمان: الطبيعية والعقلية، فأما الطبيعية لا تخطئ، لهذا جميعنا نحب الله، لكن العقلية النابعة عن اختيار قد تخطئ، وقد تفرز محبة للشر، ويبين فيرجل أن الثلاث أفاريز القادمه إنما هى أوجه محبة الشر.

ويستطرد فيرجل بعد احساسه بأن نفس دانتى تريد المزيد من التفسير، فيشرح طريقة المحبة فى التفاعل ما بين العقل والروح والفعل، ويبين بأن أداة الإنسان فى التعامل مع المحبة فى نهاية المطاف هى " الاختيار الحر" - القدرة النبيلة/ العقل - .

الإفريز الرابع: بصراخ ممزوج ببكاء كانت الأصوات فى الإفريز الرابع تقول: "ركضت مريم مسرعة إلى الجبل"، و" حتى يسيطر قيصر على ليريدا فهو ضرب مرسيلية ثم انعطف إلى أسبانيا" ، وتبين أنه خصص للكسالى والمهملين، كانوا يركضون ويبكون، وقد إلتقى دانتى بعضا منهم .

حلم دانتى: غالب دانتى النعاس ونام، فظهرت له امرأة شوهاء ترمز إلى أشكال الجشع الثلاثة: البخل، النهم، والانقياد المفرط إلى شهوة الجسد. وعندما نظر إليها دانتى فكأنه أطلق لسانها، فأخذت تغنى غناء جميلا جعله يكابد ليحيد نظره عنها،

وكانت كلمات الأغنية: "أنا النداهة، الفاتنة التى تغوى الملاحين فى عرض البحر، لفرط ما يسر غنائى من يسمعه " حتى جاءت سيدة قديسة ولبلبتها وأثبطت مسعاها! وسألت فيرجل عن هويتها، فتقدم الأخير ثابت النظرات، وأزال عن المرأة الشهواء ثوبها، فإذا بعفن فاح من بطنها، وقد استيقظ دانتى بعد هذا المنظر من حلمه!

الإفريز الخامس:" التصقت بالتراب نفسى" هذا ما كان يردده جموع البشر المستلقية على بطونها فى الإفريز الخامس، كدلالة لإهتمامها على الأمور الدنيوية، وتولى ظهرها إلى السماء، وهم جموع الذين أحبوا امتلاك أشياء دنوية أكثر مما يلزم وتأخرت توبتهم، أى أن هذه الجموع فيها الجشع والبخيل ...إلخ. ومن الشخصيات التاريخية التى حاورها فى هذا الإفريز كان: أدريانو الخامس.

ثم يحل زلزال فى المطهر! ويتبين بأن ذلك أمر اعتيادى وطبيعى، ويرجع لكون أى روح أحست بأنها طاهرة بما يكفى، وأنها كفرت عن ذنوبها فى المطهر ومستعدة لتصعد للسماء، ترد عليها السماء بهذه " الصيحة" - أى الزلزال - .

الافريز الخامس: المحبون لتملك الأشياء الدنيوية

الإفريز السادس: "رباه افتح شفتى" - لكى يحمد ربه وليس للأكل - هذا كان الترتيل الممزوج بالبكاء فى الإفريز السادس المخصص للنهمين/ الشرهين، وعقابهم كان البقاء حول شجرة تزكى رغبتهم فى الأكل بينما هم يزيدون فى فقدان الوزن حتى أصبحت أشكالهم وكأنهم جلد على عظم!

الإفريز السادس: النهمون

فى طريقهما للإفريز السابع، تساءل دانتى عن خسارة أوزان الأرواح فى الإفريز السادس بالرغم من أنهم لا يحتاجون إلى غذاء؟ فينادى فيرجلالشاعر ستاتيوسليشرح له، الذى بدوره تناول موضوع الخلق، والكيفية التى تدبغ الروح الجسد.

الإفريز السابع: يصف دانتى ما شهده وهو عباره عن نيران خارجة من صخور الجبل، ومن الأخيرة خرجت أصوات ترتل:"يا إلهى يا عظيم الرحمة" و"لا أعرف رجلا"

ـ العبارة التى رددتها مريم العذراء عندما علموا بأنها حامل ـ و" بقيت ديانا فى الغابة ومنها طردت هيليس التى أحست فى أوصالها بسم فينوس". يتضح أن هذا إفريز شهوانيين الجسد، ويلتق الشعراء الثلاثة ببعض منهم.

يمضى الثلاثة إلى الأعلى، ويلامس ملاكا دانتى وتمسح خطيئة أخرى، وشعر دانتى بالسعادة لأن لم يعد يفصل بينه وبين بياتريش سوا جدار واحد! لكن النعاس مرة أخرى غالب الشعراء، فتوففوا وراحوا يغطون فى النوم، ويرى دانتى حلما سعيدا هذه المرة ويحمل دلالات عميقة كالعادة، إذ شاهد فى حلمه فتاة فى مقتبل العمروهى تقطف الزهور وتغنى، وقالت بان اسمها ليئة وأن شقيقتها راحيل لا تفارق مرآتها ـ يقصد بها زوجة يعقوب الثانية التى لم تكن مشهورة بجمالها لكنه كانت خصباء بعكس زوجته الثانية التى كانت جميلة وعقيم ـ ويستقظ دانتى ليجد الشاعران قد استيقظا قبله.

ويكلم فيرجل دانتى ويبين بأن فى هذه المرحلة ينتهى المشوار الذى يجمعهما، ويزين جبينه بتاج الاكليل كدلاله على أن دانتى الآن أصبح واسع المعرفة وجدير بالتاج. وفى الكوميديا يبقى فيرجل مع دانتى بالرغم من هذا الوداع حتى يلتقى بياتريشى فى الجنة الدنيوية اذ يختفى بصورة غامضة.

وإلى هنا أقف فى تلخيص الجزء الثاني من الكوميديا الإلهية بالرغم من أن الأناشيد لم تنته، إذ تسمتر لتصف دخول دانتى للجنة الدنيوية وحتى لقائه ببياتريشى وذكره كعادته كلمة " النجوم" فى آخر كل قسم من كوميدياه، إلا إن طريقتى التى اتبعتها فى تلخيصى للكوميديا ليس حسب الأناشيد ولا الأقسام إنما حسب المحتوى، لذلك سأرفق جزءً أخيرا يتناول الجنة الدنيوية ـ المكان الذى عاش فيه آدم وحواء قبل عقابهم ـ والفردوس السماوية حسب ما صورها دانتى فى الجزء الثالث والأخير من التلخيص.

فى نهاية هذا الجزء أذكر أن المطهر كان له طابعه الخاص المختلف تماما عن الجحيم، ففى المطهر فنون وتراتيل، أحلام وملائكة، فلسفة ونظريات، ووجدت مواضع

ترد على ابن رشد، واخرى تورد تصورا عن النساء المسلمات. كما أن هنالك تفاصيل لم أذكرها لحث القارئ الكريم على أن يخوض تجربة عالم دانتى بنفسه، وإن كان صعبا فيمكن الإستعانة "بالنجوم".

***

الأنشودة
1

وصل دانتي وفرجيليو إلى ساحل جبل المطهر، فأخذ دانتي يستنجد بربات الشعر لكي تساعدنه على وصف زرقة السماء التي أبهجت عينيه بعد أن خرج من ظلمة الجحيم، ورأي الزهرة التي أبهجت المشرق بضوئها المتألق وشهد دانتي أربعة نجوم تضيء السماء؛ وترمز للفضائل الرئيسية الأربع؛ ثم رأي دانتي كاتو حارس المطهر ذا اللحية الطويلة والشعر الأبيض، الذي أهر دهشته عند رؤية الشاعرين، وسألهما عن سبب وجودهما في هذا الموضع جعل فرجيليو دانتي يركع ويطرق رأسه وأخذ يشرح الأمر لكاتو، وأفاده بأن سيدة من السماء - بياتريتشي - طلبت إليه أن يسعف دانتي، فجاء به إلى هذا المكان لكي يريه الأرواح التي تطهر نفسها في رعايته وقال فرجيليو إن دانتي يبحث عن الحرية، التي يعرفها هو نفسه حق المعرفة وقد رفض الحياة بدونها، وأفاده أن دانتي إنسان حي، وأنهو هو من حلقة العيون الطاهرة - أي اللمبو - وحاول أن يستحلفه باسم زوجته مارتزيا لكي يستجيب إلى طلبه فأجاب كاتو بأن مارتزيا لا أثر عليه الآن بحكم قانون المطهر، ولكن يكتفي أن يلف وسط دانتي بالأسل الناعم، رمز التواضع، ويغسل وجهه من علائق الجحيم بقطرات الندي وبينما كان الفجر يهزم نسيم الصباح أخذ فرجيليو يغسل وجه دانتي وقد تساقط دمعه على خديه، فكشف عن لونه الطبيعي، ثم طوقه بالأسل، ذلك النبات الخفيض الذي كان يعود إلى النمو كلما اقتلع.

١ - الآن يرفع زورق فكشر أشرعته، لكي يجري على مياه أهدأ، تاركًا وراءه بحرًا خضمًا.

٤ ـ وسأتغنى بتلك المملكة الثانية، حيث تتطهر الروح الإنسانية، وتصبح جديرة بالصعود إلى السماء.

٧ ـ ولكن فليبعث هنا ميت الشعر، ما دمت أنتمي إليكن ـ يا ربات العشر المباركات ـ ولتنهض كاليوبي برهة.

١٠ ـ ولتصاحب نشيدي بذلك النغم الذي أحست العقائق البائسة بوقع ضرباته، حتى أيست بذلك من الغفران.

١٣ ـ إن لونًا رائعًا من لازورد المشرق، الذي أخذ يتجمع في صفحة الهواء الرائق ـ الصافي حتى أولي الدوائر ـ

١٦ ـ أعاد البهجة إلى عيني، حينما خرجت من الهواء الميت، الذي كان قد أحزن قلبي وقبض صدري.

١٩ ـ لقد أضحك المشرق كله، الكوكب الجميل الذي يهيئ النفس للمحبة، حينما حجب برج الحوت الذي كان في رفقته.

٢٢ ـ فاستدرت إلى اليمين، واتجهت بفكري إلى القطب الآخر، فرأيت أربعة نجوم، لم تبصرها بعد أجل البشر عين أبدًا.

٢٥ ـ وبدت السماء تنعم بأنوارها: إيه يا أرض الشمال المترملة بحرمانك من التطلع إليها!

٢٨ ـ ولما توقفت عن مرآها واتجهت قليلاً إلى القطب الآخر، حيث كان الدب الأكبر قد توارى.

٣١ ـ رأيت بقربي عجوزًا بمفرده، جديرًا في مظهره بالتجلة التي ليس للابن أن يبدي لأبيه أكثر منها.

٣٤ ـ كان ذا لحية شيباء طويلة، تشبه شعر رأسه الذي سقطت منه على صدره خصلتان.

٣٧ ـ وبالنور زينت محياه أشعة الأنوار الأربعة المباركة، حتى رأيته كأن قد صارت أمامه الشمس.

٤٠ - قال وهو يحرك لحيته الوقورة: "من أنتما اللذان هربتما من السجن الأبدي - بعكس اتجاه النهر الأعمي؟

٤٣ - ومن ذا الذي أرشدكما، أو بأي مصباح اهتديتما، حينما خرجتما من أغوار الليل الذي يظلم وادي الجحيم أبدًا؟

٤٦ - أهكذا خرقت قوانين الهاوية؟ أم تبدلت أخيرًا أحكام السماوات، حتى تأتيان آثمين إلى صخراتي؟"

٤٩ - حينئذ أمسك بي دليلي، وبكلماته ويديه وإشارات منه، جعلني أبدي له احترامي بالساقين والعينين.

٥٢ - ثم أجابه "إنني لم أجئ من تلقاء نفسي بل لقد نزلت من السماء سيدة، وبرجائها أسعفت بصحبتي هذا الرجل.

٥٥ - ولكن ما دامت رغبتك هي أن تستزيد إيضاحًا عن حقيقة أمرنا، فلن تقوي لي رغبة على أن أرفض ذلك.

٥٨ - لم ير هذا الرجل مساءه الأخير بعد، ولكنه بجنونه ازداد إليه اقترابًا، حتى لم يعد للرجوع عنه سوي وقد جد قصر.

٦١ - وكما قلت، لقد أرسلت إليه لكي أنقذه، وما من طريق كان له ن يتبعه سوي هذا الذي اتخذته.

٦٤ - ولقد أريته كل الآثمين من الناس: وقصدي الآن أن أظهره على تلك الأرواح التي تطهر نفسها تحت سلطانك.

٦٧ - سيطول بنا الأمر إذا قلت لك كيف جئت به، وإن فضلاً ليهبط من أعلى، يعينني على أن أقوده كي يراك ويسمعك.

٧٠ - وعسي أن يروقك الآن أن ترحب بمقدمه، إنه يسير في طلب الحرية، التي هي عزيزة غالية، كما يعرف ذلك من يبذل في سبيلها حياته.

٧٣ - وإنك بها عليم، إذ لم يكن موتك بسببها في أوتيكا شيئًا مريرًا، حيث تركت الثوب الذي سيصبح شديد التألق في اليوم العظيم.

٧٦ ـ وإننا لم نخرق القوانين الأبدية، لأن هذا الرجل إنسان حي، ومينوس لا يقيدني، ولكنني أنتمي إلى الحلقة التي بها العينان الطاهرتان.

٧٩ ـ حلقة مارتزيا زوجك، التي تبدو أنها لا تزال ترجوك ـ أيها الروح المبارك ـ أن تحتفظ بشخصها لنفسك: ولذلك فلتستجب باسم حبها إليها.

٨٢ ـ ولتدعنا نذهب خلال ممالكك السبع: وسأقص عليها آيات فضلك، إذا كان يعنيك أن تذكر هناك في أسفل".

٨٥ ـ فقال عندئذ "حينما كنت في ذلك الجانب، كانت مارتزيا في عيي عزيزة حتى لبيت كل ما سألتني إياه من المكرمات.

٨٨ ـ وهي بإقامتها الآن خلف نهر الشر، لا تقوي على أن تؤثر في مزيداً، بذلك القانون، الذي وضع حينما خرجت من هناك.

٩١ ـ ولكن إذا كانت سيدة من السماء تحركك وترشدك، كما تقول، فلا حاجة لك بكلمات الإغراء وحسبك حقًا أن تسألني باسمها.

٩٤ ـ امض إذاً، واعمل على أن تلف وسطه باسل ناعم، وتغسل وجهه، حتى يزول عنه كل قذر بذلك.

٩٧ ـ إذ لا يليق السير بعين تغشاها أثارة من الضباب، أمام أول راغ من بين رعاة الفردوس.

١٠٠ ـ هذه الجزيرة ـ هناك حيث يضربها الموج حول أسفل مواقعها ـ تحمل أسلا فوق طميها اللين.

١٠٣ ـ ولا نبات غيرة مما تنمو أوراقه أو يجف، تتاح له الحياة هناك، إذ لا يميل مع لطمات الموج.

١٠٦ ـ وعلى ذلك فلن يكون من هنا رجوعك، وإن الشمس التي هي الآن في دور طلوعها، ستريك كيف تصعد الجبل عند مرتقي أيسر".

١٠٩ ـ وهكذا اختفي، فنهضت واقفًا بدون كلام، واقتربت تمامًا من دليلي ووجهت عيي إليه.

١١٢ ـ فبدأ "فلنتتبع خطاي ولنتجه إلى الوراء، لأن هذا السهل ينحدر من هذا الموضع حتى حدوده السفلي".

١١٥ ـ وكان الفجر يظفر بنسيم الصباح الذي أخذ في الهرب أمامه، حتى تبينت من بعيد رجرجة البحر.

١١٨ ـ وشرعنا نسير في السهل الخالي، كمن يعود إلى الطريق الذي ضل عنه، ويبدو له السر عبثًا ـ حتى يبلغه.

١٢١ ـ ولما أصبحنا هناك حيث تعترك قطرة الندي مع أشعة الشمس، وإذ تداعبها في مرقدها أنسام الفجر، فلا يتبخر من مائها سوي جزيئات.

١٢٤ ـ وضع أستاذي برفق كلتا يديه الممدودتين على العشب الناعم، وحينما أدركت قصده أوليته عندئذ.

١٢٧ ـ خدي المخضلين بالدمع، وهنا أزال مني تمامًا ذلك اللون الذي أخفته مني أوضار الجحيم.

١٣٠ ـ ثم بلغنا الشاطئ القفر، الذي لم يشهد أبدًا فيمن جابوا مياهه من البشر، من صار بعد خبيرًا بالعودة منه.

١٣٣ ـ وهنا طوقني كما راق ذلك للآخر ويا للعجب! فقد كان كلما اقتلع شيئًا من النبات الخفيض، عاد توًا إلى نموه.

١٣٦ ـ هناك حيث انتزعه.

***



دانتى وفرجيليو على شاطئ المطهر
يتطلعان إلى الزهرة

الأنشودة
2

أخذ الليل يرخي سدوله في أورشليم بينما كان النهار طالعًا في المطهر، وتحول لون السماء إلى الصفرة، وكان الشاعران على شاطئ الجزيرة، حينما رأى دانتي نورًا يعبر البحر بسرعة فائقة، وباقترابه تبين أنه ملاك السماء حمل فرجيليو دانتي على أن يركع ويضم يديه احترامًا له، وخفض دانتي عينيه لشدة الضياء، ووصل الملاك بقارب سريع يحمل الأرواح السعيدة التي كانت ترتل آيات عن خروج إسرائيل من مصر وبدت جماعة الأرواح غريبة على الشاطئ القفر، وسألوا الشاعرين عن طريق الذهاب إلى التطهر، فأجاب فرجيليو بأنهما غريبان مثلهم، وأنهما قدمًا عبر طريق شاق وعر وحينما أدركت الأرواح أن دانتي إنسان حي ازدحمت حوله ونسيت الذهاب إلى التطهر وخرج شبح لعناق دانتي بحب عظيم وحاول دانتي القيام بالمثل، ولكن يديه رجعتا إلى صدره، وعرف دانتي أن هذا هو شبح كازيلا الموسيقي الفلورنسي، فسأله لم تأخر تطهره، فأجابه بأن هذه هي رغبة ملاك السماء التي هي مصوغة من إرادة الله وطلب إليه دانتي أن يتغنى بأغنية من شعره ففعل، وانتبه الجميع إلى أنغامه العذبة وعندئذ صاح بهم كاتو ـ حارس المطهر ـ وعنفهم لتكاسلهم وأمرهم بالمسارعة إلى الجبل لكي يتطهروا، فاندفعوا كالحمام الذي يخيفه خطر داهم يلتقط الحب، وتركوا الغناء وساروا إلى جبل المطهر، وكذلك سار الشاعران.

١ ـ كانت الشمس قد بلغت الأفق الذي يغطي أعلى موضع من خط زواله، مدينة أورشليم.

٤ ـ والليل الذي يدور بعكس الشمس، أخذ يخرج من منطقة الكنج مع برج الميزان، الذي يسقطه الليل من يده عندما يسبق.

٧ ـ حتى إن خدي الفجر الجميل الأبيضين المشوبين بالحمرة، تحولاً بمرور الوقت إلى لون البرتقال ـ حيث كنت واقفًا هناك.

١٠ ـ وكنا لا نزال عند شاطئ البحر كقوم يتفكرون في طريق رحلتهم: وبقلوبهم يسيرون ولكنهم بأجسامهم يتلبثون.

١٣ ـ وانظر! كما يحمر لون المريخ عند انبلاج النهار خلال الضباب الكثيف، هناك صوب المغرب فوق سطح البحر في أسفل ـ

١٦ ـ هكذا بدا لي ـ ولعلى أراه ثانيًا! ـ نور يأتي عبر الماء بسرعة فائقة، حتى لم يعدل سرعته طيران أبدًا.

١٩ ـ وبعد أن نأيت بعيني برهة لكي أسائل عنه دليل، رأيته من جديد قد صار أبهي ضياء وأكبر حجمًا.

٢٢ ـ ثم بدا لي في كلا جانبيه لون أبيض، لم أدر ما هو، ومن تحته امتد بياض آخر رويدًا رويدًا.

٢٥ ـ وظل أستاذي صامتًا، حتى بدا اللونان الأبيضان الأولان أنهما جناحان: وحينما اتضحت له ملامح الملاح،

٢٨ ـ صاح بي "اثن ركبتيك، اثنهما فهناك ملاك الله ولتضم يديك ولسوف ترى من الآن حراسًا مثله.

٣١ ـ ولتنظر كيف يزدري وسائل البشر، فهو لا يبغي مجدافًا ولا شراعًا سوى جناحيه، بين شطآن شديدة البعد.

٣٤ ـ انظر كيف وجههما صوب السماء، ضاربًا الهواء بأرياشه الأبدية، التي لا تتبدل كما يتبدل الريش الفاني".

٣٧ ـ وكلما كان الطائر الإلهي يزداد منا اقترابًا، كان يتبدي أسطع ضياء، حتى لم تقو عيناي على احتماله من قريب.

٤٠ ـ فغضضت بصري، وجاء هو إلى الشاطئ بقارب خفيف سريع الحركة، حتى لم يغمر الماء منه شيئًا.

٤٣ ـ وكان ملاح السماء واقفًا عند مؤخر القارب، وبدت الغبطة مسطرة على جبينه؛ وجلس أكثر من مائة روح بالداخل.

٤٦ ـ وترنموا جميعًا بصوت واحد مرددين "عند خروج إسرائيل من مصر"، وبما كتب بعد في ذلك المزمور.

٤٩ ـ ثم رسم علامة الصليب المقدس، وعندئذ ألقوا جميعًا بأنفسهم على الشاطئ، وذهب كما جاء بسرعة فائقة.

٥٢ ـ والجماعة التي بقيت هناك بدت على ذلك المكان غريبة، وأخذت تتطلع إلى ما حولها كمن يخبر بنفسه أشياء ليس له بها عهد.

٥٥ ـ ورشقت الشمس أشعة النهار في كل جانب، وبسهام سديدة طاردت برج الجدي في كبد السماء.

٥٨ ـ حينما رفع الغرباء جباههم نحونا قائلين "ألا فلتظهرانا على طريق الذهاب إلى الجبل، إذا كنتما تعرفان سبيله".

٦١ ـ فأجاب فرجيليو "ربما تظنون أننا بهذا المكان خبيران، ولكننا مثلكم فيه غريبان.

٦٤ ـ ولقد جئنا قبلكم ببرهة من غير هذا الطريق، الذي كان وعرًا قاسيًا، حتى ليبدو لنا لعبًا صعودنا الآن".

٦٧ ـ والأرواح التي أدركت من تردد أنفاسي أني لا أزال على قيد الحياة، شحب لونها بما تولاها من العجب.

٧٠ ـ وكما يتدافع الناس حول رسول يحمل غصن الزيتون لكي يسمعوا أنباءه، ولا يتردد أحدهم في أن يزحم غيره ـ

٧٣ ـ هكذا ثبتت أعينها في وجهي كل هذه الأرواح السعيدة المولد، وكادت تنسى الذهاب كي تتجمل.

٧٦ ـ ورأيت إحداها تسعى إلى الأمام لعناقي، وقد تملكها شعور بالمحبة الزائدة، فحملتني على أن ألقاها بالمثل.

٧٩ إيه أيتها الأشباح الخاوية إلا من صورتها! لقد ضممت يدي من خلفه ثلاث مرات، وبذات عددها رجع بهما إلى صدري.

٨٢ ـ وأعتقد أن وجهي كان قد وشيه العجب، وعندئذ ابتسم الشبح وتراجع، واندفعت إلى الأمام لكي أتابعه.

٨٥ فسألني بلطف أن أتوقف فعرفت حينئذ من كان، ورجوته أن يقف قليلاً كي يحدثني.

٨٨ ـ فأجابني "كما أحببتك بجسمي الفاني، كذلك أ حبك قد تحررت منه ولذا فإني أتوقف، ولكن لم تأتي أنت ها هنا؟".

٩١ ـ قلت "يا عزيزي كازيلا، إنني أقوم بهذه الرحلة لكي أعود ثانيًا حيث أنا الآن هنا، ولكن لم أضعت كل هذا الوقت سدي؟".

٩٤ ـ فقال لي "لم ينلني بذلك ضر، ما دام الذي يرفع من يشاء كما يروق له ـ قد رفض عبوري مرات عديدة؛

٩٧ ـ إذ أن إرادته قد صيغت من مشيئة عادلة: ولكنه أخذ منذ أشهر ثلاثة، بتمام الرضا، كل من رغب منا أن يدخل.

١٠٠ ـ وعندئذ تلقاني بكل ترحاب، حينما كنت متجهًا إلى شاطئ البحر، حيث تصبح مياه التيبر مالحة.

١٠٣ ـ والآن وجه جناحه إلى ذلك المصب، إذ يجمع هناك دومًا كل من لا يتهاوون إلى مياه أكيرونتي".

١٠٦ ـ فقلت "إذا لم يحرمك قانون جديد من ذاكرتك أو من براعتك في أغاني الحب، التي اعتادت أن ترضي كل رغباتي،

١٠٩ ـ فلعله يروقك أن تسري بها قليلاً عن نفسي المكدودة المتبعة لمجيئي بجسدي ها هنا".

١١٢ ـ بدأ عندئذ بصوت عذب رقيق، لا تزال عذوبته تتردد بين جوانحي: "الحب الذي تتجاوب في خاطري كلماته".

١١٥ ـ وبدا أستاذي وبدوت ومن كانوا في صحبة كازيلا في غاية الرضا، حتى لكأنه لم يعد يخطر ببال أحدنا شيء سواه.

١١٨ ـ وظللنا صامتين منتبهين جميعًا إلى أنغامه وإذا بالشيخ الوقور يصيح بنا "ما هذا كله، أيتها الأرواح الكسلي؟

١٢١ ـ ما هذا التهاون وما هذا التوقف؟ فلتسارعوا إلى الجبل لكي تنضوا عنكم هذه الغشاوة التي تحجبكم عن رؤية الله".

١٢٤ ـ وكالحمام حينما يجتمع على الطعام فيلتقط القمح أو الشيلم وهو هادي ساكن، بدون أن يبدي كبرياءه المألوف/

١٢٧ ـ فإذا بدا ما يمكن أن يخيفه، يدع جانبًا طعامه فجأة، لتعرضه لأمر أجل شأنًا ـ

١٣٠ ـ هكذا رأيت تلك الأسرة المقدم، تكف عن الغناء وتذهب صوب الشاطئ، كمن يسير بدون أي أين المخرج

١٣٣ ـ ولم يكن رحيلنا أقل منهم شرعة.

***

الأنشودة
3

كان دانتي وفرجيليو قد أصابهما بعض الاضطراب والأسف لتأخرهما في سماع غناء كازيلا، ثم استعادا حالهما الطبيعية ونظر دانتي إلى جبل المطهر فرأي ظله وحده على الصخر، فظن أن فرجيليو قد فارقه، فأزال هذا من مخاوفه وقال له إنه لا يزال معه ليقوم بإرشاده، وقال إن العقل البشري لا يمكنه أن يدرك أسرار الوجود وبلغ الشاعران سفح الجبل، وأخذ فرجيليو يبحث عن طريق للصعود في الصخر الشديد الانحدار ورأي دانتي جماعة من الأرواح تسير في بطء شديد لأنهم تأخروا في التوبة إلى آخر لحظة من حياتهم، ولفت نظر فرجيليو إليهم، فسألهم عن طريق الصعود تحركت هذه الجماعة كقطعان الأغنام حينما تخرج فقال فرجيليو إن دانتي إنسان حي جاء لصعود الجبل بفضل من السماء. وتعرف مانفريد على دانتي، وحدثه عما أصابه من الطعن في معركة بنيفنتو، واعترف بأن آثامه كانت رهيبة، ولكن أيدي الرحمة الإلهية تتقبل كل من يتجه إليها وقال إن أسقف كوسنتنرا نقل جثته إلى خارج مملكة نابلي حيث دفن بما يناسب من نالهم الحرمان البابوي، ولكن لعنة الكنيسة يمكن أن تزول بالتوبة والندم، وبالتطهر الضروري الذي تقصر مدته بالصلوات الطيبة وسأل مانفريد دانتي أن يشرح حقيقة الأمر لابنته كوستانتزا عند عودته إلى الأرض.

١ ـ على الرغم من أن الهرب الفجائي كان قد شتت شمل تلك الجماعة عبر السهل صوب الجبل ـ حيث يعذبنا العقل.

٤ ـ فقد اقتربت من دليلي الأمين وكيف كانت أغذ السير بدونه؟ ومن ذا الذي كان يدفعني صعداً فق الجبل؟

٧ ـ وبدا لي أنه يلوم نفسه آه منك أيها الضمير الطاهر النبيل، كم ذا تشعرك الأخطاء الصغيرة بالوخز المرير!

١٠ ـ وعندما كفت قدماه عن الإسراع، الذي ينفي الوقار عن كل فعل، أفسح عقلي مجال نظره، وقد كان لذلك شديد التطلع،

١٣ ـ بعد أن كان من قبل منحصراً في شيء واحد، فاتجهت بعيني إلى الجبل الذي يرتفع من الماء شاهقًا صوب السماء.

١٦ ـ والشمس التي اشتعل من ورائنا لهيبها الأحمر، احتجبت أمام شخصي، إذ استقرت أشعتها على جسدي.

١٩ ـ فاتجهت إلى اليمين، وقد تولاني الخوف من أن أكون وحيداً، حين لم أر اسوداد الأرض إلا فيما هو أمامي.

٢٢ ـ وبدأ مؤنسي يقول لي وهو متجه نحوي بكليته: "لم لا يزال يساورك الشك؟ ألا تثق بأني معك وأني أقوم بإرشادك؟

٢٥ ـ كان المساء قد حل هناك، حيث يدفن الجسم الذي صنعت له ظلاً حين حلولي به إن نابلي تحوزه، وكان قد حمل إليها من براندیزیو.

٢٨ ـ والآن، إذا لم يظهر أمامي ظل، فلا تعجب أكثر من عجبك من السماوات التي لا تحجب إحداها النور عن الأخرى.

٣١ ـ وإن القدرة الإلهية لتجعل أجسامًا كجسمي تعاني العذاب والحر والجليد، ولا تشاء أن تكشف لنا عن سر صنعها.

٣٤ ـ وإنه لمجنون ذلك الذي يأمل في عقلنا القدرة على اجتياز هذا الطريق اللانهائي، الذي يجعل من ثلاثة أقنومًا واحدًا.

٣٧ ـ فلتقنعوا، أيها الشر، بالشيء كما هو بمظهره كائن، إذ أنكم لو استطعتم إدراك كل شيء، لما كانت حاجة لأن تلد ماريا؛

٤٠ ـ ولقد رأيتم قومًا يتطلعون عبثًا إلى أن ترضي رغائبهم، ولكنهم لم ينالوا من ذلك سوى الحزن الأبدي.

٤٣ ـ وإني لأعني أرسطو وأفلاطون وكثيرين غيرهما"؛ وهنا خفض جبينه ولم يزد عن ذلك حرفًا، وظل مضطرب الخاطر.

٤٦ ـ وكنا قد بلغنا عندئذ سفح الجبل وهنا وجدنا الصخر شديد المنحدر، حتى لتصبح السيقان السريعة فيه عديمة الجدوي.

٤٩ ـ وإن أكثر الطرق عزلة وأشدها وعورة بين ليرتشي وتوربيا، لتعد بالموازنة به سلمًا سهلاً رحيبًا.

٥٢ ـ قال أستاذي وهو يوقف خطاه "من ذا يعرف الآن في أي جانب يميل الجبل، بحيث يتيسر الصعود لمن يسير بدون جناح".

٥٥ ـ وبينما ظل هو مطرق الرأس يتفكر في طريق الذهاب، وأخذت أنا أنظر إلى أعلى وفيما حول الصخر،

٥٨ ـ ظهر لي جهة اليسار جماعة من النفوس، حركوا أقدامهم نحونا، ولكنهم بدوا أنهم لا يتقدمون، إذ ساروا ببطء شديد.

٦١ ـ فقلت "ارفع باصرتيك يا أستاذي: وانظر هناك من سيبذل لنا سديد الرأي، إذا كنت لم تستطع أن تهتدي إليه بنفسك".

٦٤ ـ فنظر عندئذ إلى أعلى وأجاب بوجه المطمئن "فلنذهب إليهم، لأنهم يأتون بطاء الحركة، ولتقو من أملك أيها الابن الحبيب".

٦٧ ـ وبعد أن سرنا أكثر من ألف خطوة، كان هؤلاء القوم لا يزالون على مسافة تعدل بعد حجر تلقي به يد رام قدير،

٧٠ ـ حينما التصقوا كلهم بالصخور الوعرة في الشاطئ المرتفع، ووقفوا ثابتين متزاحمين، كمن يسير في حيرة ثم يتوقف لكي ينظر.

٧٣ ـ وبدأ فرجيليو "يا ذوي النهاية السعيدة، أيتها الأرواح المختارة! ـ باسم ذلك السلام الذي أعتقد أنكم ترتقبوه جميعًا ـ

٧٦ ـ خبرونا أين يميل الجبل بحيث يصبح الصعود أمرًا سهلاً، إذ كلما اتسعت معارف المرء اشتد كدره بضياع الوقت سدي".



٧٩ ـ وكما تخرج الأغنام من حظيرتها أحادي ومثني وثلاث، وتقف بقيتها وجلات خافضات أفواهها وأعيها؛

٨٢ ـ وما تفعله أولاها تفعله سائرها، وتتزاحم من ورائها في هدوء وسذاجة إذا هي وقفت، بدون أن تدري لذلك سببًا ـ

٨٥ ـ هكذا رأيت رأس هذه الجماعة السعيدة يأتي نحونا عندئذ، بوجه وديع ومشية وقورة.

٨٨ ـ ولما رأت طليعتهم النور على الأرض منحسرًا إلى يميني ـ حتى امتد الظل من جسدي إلى الصخر ـ

٩١ ـ توقفوا وتراجعوا قليلاً، وحذا حذوهم كل الآخرين الذين جاءوا من بعدهم، بدون أن يعرفوا لذلك سببًا.

٩٢ ـ "أعترف لكم ـ وإن لم تسألوني ـ بأن هذا الذي ترونه ما هو إلا جسم إنسان حي، ولذا انشق نور الشمس على الأرض بإزائه.

٩٧ ـ فلا يأخذنكم العجب من ذلك، ولكن ثقوا بأنه لا يسعي لاعتلاء هذا الجدار، بدون فضل يأتيه من السماء".

١٠٠ ـ هكذا تكلم أستاذي، فقال هؤلاء القوم الوقورون، وهم يشيرون لنا بظهور أيديهم "عليكما بالرجوع، ولتسيرًا أمامنا الآن".

١٠٣ ـ وبدأ أحدهم "فلتدر وجهك إلى في أثناء مسيرك، كائنًا من كنت، ولتذكر إذا كنت قد رأيتني في ذلك الجانب أبدًا".

١٠٦ ـ فاتجهت نحوه، وأمعنت النظر فيه وكان أشقر الشعر جميلاً ذا وجه نبيل، ولكن أحد حاجبيه كان قد شطرته ضربة سيف.

١٠٩ ـ وعندما أجبته في تواضع أني لم أره من قبل قط، قال: "فلتنظر الآن إلى"؛ وأراني جرحًا في أعلى صدره.

١١٢ ـ ثم قال مبتسمًا "إنني مانفريد، حفيد كوستانتزا الإمبراطورة، ولذا أرجوك ـ حينما تعود ـ

١١٥ ـ أن تذهب إلى ابنتي الجميلة، التي أنجبت فخري صقلية وأراجونا، وتحدثها عني بالصدق إذا ذكر شيء غيره.

١١٨ ـ فإنه بعد أن تلقى جسدي طعنتين قاتلتين، استسلمت باكيًا إلى من يغفر الذنوب عن طيب خاطر.

١٢١ ـ لقد كانت آثامي رهيبة؛ ولكن الخير اللانهائي ذو أذرع رحيبة تتقبل كل من يتجه إليها.

١٢٤ ـ ولو أن راعي كوسنتزا، الذي دفعه أكلمنتو عندئذ لمطاردتي، كان قد أحسن قراءة تلك الصفحة من كتاب الله ـ

١٢٧ ـ لظلت عظامي عند رأس الجسر بقرب بنيفنتو، في حراسة كومة من الأحجار الثقيلة.

١٣٠ ـ فالآن يغمرها المطر وتحركها الريح خارج حدود المملكة، على مقربة من بهر فردي، حيث نقلت بمصاحبة شموع لم تشعل أنوارها.

١٣٣ ـ وبلعنهم لن يضيع إنسان، حتى يمتنع على المحبة الأبدية أن تعود إلى سابق فيضها ـ ما دام ينبت للأمل براعم خضراء.

١٣٦ ـ حقًا إن من يمت وقد ناله الحرمان من الكنيسة المقدسة، ينبغي أن يظل خارج هذا الشاطئ ـ حتى ولو ندم أخيرًا ـ

١٣٩ ـ ثلاثين ضعفًا من الزمن الذي قضاه في معصيتها، إذا لم تقصر مدة هذا الحكم بالصلوات الخالصة.

١٤٢ ـ ولتنظر الآن أتستطيع أن تبهجني، بإيضاحك لكوستانتزا ابنتي الطيبة ـ كيف رأيتني ـ وكذلك هذه العقبة؛

١٤٥ ـ إذ أننا نجني هنا خيرًا كثيرًا ممن هم في ذلك الجانب".

***

الأنشودة
4

ظل دانتي مأخوذًا بحديث مانفريد السابق ولم يشعر بمضي الوقت حتى أشارت بعض الأرواح إلى مكان الصعود وقارن دانتي بين وعورة هذا الطريق وبين بعض الطرق الوعرة في الجبال الإيطالية، ومع ذلك فقد دفعه إلى الصعود أجنحة الشوق والأمل، و استخدم في ذلك القدمين واليدين وما إن بلغ الشاعران منطقة زاد انحدارها عن ٤٥ درجة حتى طلب دانتي التوقف، ولكن فرجيليو أشار إليه ببذل الجهد حتى يبلغا إفريزًا أعلى قليلاً، فغالب دانتي نفسه حتى بلغاه وجلسا معًا وعجب دانتي عند نظره إلى - الطريق - الشاق الذي قطعه، كما عجب عندما رأي الشمس جهة اليسار، فأفهمه فرجيليو بأن هذا يرجع إلى وجودها في نصف الكرة الجنوبي، وكانت عندئذ في برج الحمل لا في برج التوأمين وحينما زالت دهشة دانتي سأل فرجيليو إلى متى ينبغي عليهما المضي في صعود الجبل، فأجابه بأن الصعود صعب في البداية، ولكنه سيصبح بالتدريج سهلاً حتى يكون كسير سفينة مع تيار الماء، وسمع الشاعران صوتًا يعبر عن حاجتهما للراحة قبل بلوغ أعلى الجبل، وكان هناك أرواح الكسالي الذين تباطأوا في التوبة في الحياة الدنيا، ورأي دانتي بلاكوا الفلورنسي صانع الآلات الموسيقية، وبدا أكسل مما لو كان الكسل شقيقًا له، وقد خفض رأسه بين ركبتيه قال بلاكوا إن عليه أن يبقي في موضعه بقدر الزمن الذي تأخر فيه عن التوبة، إلا إذا عاونته صلاة طيبة تصدر عن قلب يحظي بالنعمة الإلهية، إذ لا يستمع لغير هذا في السماء. ودعا فرجيليو دانتي إلى الصعود لأن الزمن كان يتقدم.

١ - حينما تتركز النفس بكليتها على واحدة مما لها من القوي، بما ينالها من الآلام أو المباهج؛

٤ ـ تبدو النفس أنها لا تحفل بقوة سواها، وإن هذا ليعارض ذلك الرأي الخاطئ القائل بأن إحدى قوتي النفس تعلو فينا على الأخرى.

٧ ـ ولذا فإنه عندما يسمع أو يري ما يستحوذ على النفس، ينقضي الوقت بدون أن يشعر الإنسان بذلك،

١٠ ـ إذ أن إحدى قوي النفس هي التي تسمع، بينما يستغرق انتباهها قوة أخرى وكأنما هذه مقيدة وتلك حرة.

١٣ ـ لقد صارت لي بهذا تجربة حقة، حينما سمعت تلك الروح وأعجبت بها، إذ كانت الشمس قد صعدت.

١٦ ـ خمسين درجة كاملة، بغير أن ألحظ ذلك ـ عندما جئنا حيث صاحت بنا تلك الأرواح بصوت واحد "هنا يوجد ما تبغيانه".

١٩ ـ وحينما تأخذ الكرمة في النضج، كثيرًا ما يعمد الفلاح إلى مدرات من الشوك فيسد بها فتحة أكبر.

٢٢ ـ مما كانت عليه تلك الفجوة التي صعدنا خلالها وحيدين ـ دليلي وأنا في إثره ـ بينما أخذت تبتعد عنا تلك الجماعة.

٢٥ ـ وإن المرء ليسير في سانليو ويهبط في نولي، ويصعد عاليًا في بيسمانتوفا وكاكومي ـ بالقدمين وحدهما؛ ولكن ليس على المرء هنا سوي الطيران؛

٢٨ ـ أعنى كان على أن أمضي بالأجنحة السريعة وبرياش الشوق العارم، وراء ذلك الدليل، الذي منحني الأمل وأنار سبيلي.

٣١ ـ وأخذنا نصعد داخل الصخر المشقوق، وأطبق الجدار علينا من كل جانب، واقتضت الأرض تحتنا أن نعمل أقدامنا وأيدينا.

٣٤ ـ ولما أصبحنا على الحافة العليا من الشاطئ المرتفع، عند جانبه المفتوح، قلت "أي طريق علينا أن نسلك الآن يا أستاذي؟".

٣٧ ـ فقال لي "لا تحركن قدمًا إلى أسفل بل عليك بإتباع خطواتي صعدًا فوق الجبل، حتى يظهر لنا دليل عليم".

٤٠ ـ وكانت قمته شاهقة حتى تحاوزت حد إبصاري، وازداد انحدار الشاطئ كثيرًا عن الخط الواصل بين منتصف الربع من دائرة وبين مركزها.

٤٣ ـ وكنت متعبًا حينما بدأت "أبتاه الحبيب، التفت إلى، وانظر كيف أظل وحيدًا إذا أنت لم تتوقف".

٤٦ ـ فقال "أي بني، عليك بجر رجليك إلى هناك" ـ وأشار إلى إفريز أعلى منا قليلاً، أحاط بالجبل كله في ذلك الجانب.

٤٩ ـ وهكذا همزتني كلماته، فغالبت نفسي زحفًا إليه، حتى وطئت بقدمي ذلك الإفريز الدائري.

٥٢ ـ وهناك عمدنا كلانا إلى الجلوس، متجهين صوب المشرق حيث صعدنا من ناحيته، لأن النظر إليه كان يعيننا في العادة.

٥٥ ـ وبعيني اتجهت أولاً إلى الشطآن الخفيضة، ثم رفعتهما نحو الشمس، وعجبت إذ جرحتنا بأشعتها من الجهة اليسري.

٥٨ ـ وتبين الشاعر جليًا أن قد تولاني العجب من عربة النور، التي كانت تتقدم بين موضعنا وبين بلاد الشمال.

٦١ ـ فقال لي عندئذ "إذا كان التوأمان ـ كاستور وبولكس ـ كائنين في رفقة تلك المرآة التي تبعث نورها إلى أعلى وأسفل.

٦٤ ـ فإنك ستري الجزء المتوهج في منطقة البروج ـ لا يزال يدور في موضع أقرب إلى الدبين ـ إن لم يكن قد خرج عن طريقه القديم.

٦٧ ـ ولكي تفهم كيف يحدث هذا ـ عليك أن تتخيل ـ لو أوتيت القدرة على التفكير بذهن واع ـ أن جبل صهيون وهذا الجبل قائمين فوق الأرض.

٧٠ ـ بحيث أصبح لكليهما أفق واحد ونصفا كرتين مختلفتين، وبذلك ستري ـ إذا أحسن عقلك الانتباه ـ كيف أن الطريق ـ

٧٣ ـ الذي أخفق فيه فيتون في قيادة عربته ـ لسوء طالعه ـ كان ينبغي أن يسير هنا في جانب، حين يتجه إلى هناك في الجانب الآخر".

٧٦ ـ قلت في الحق يا أستاذي أني لم أر أبدًا بهذا الوضوح ـ كما أتبين ـ حيث بدا عقلي قاصرًا عن الإدراك ـ

٧٩ ـ أن الدائرة الوسطى في السماء العليا، التي تسمى في بعض الفنون خط الاستواء، وتظل دومًا بين الصيف والشتاء.

٨٢ ـ تبتعد عن هذا الموضع في اتجاه الشمال ـ بسبب ما تقوله ـ حينما يراها اليهود متجهة صوب المنطقة الحارة.

٨٥ ـ ولكن لو راق لك الأمر فإنه يسرني أن أعرف، كم ينبغي علينا أن نسير، إذ يعلو الجبل أكثر مما تقوى على متابعته عيناي".

٨٨ ـ فقال لي "يتميز هذا الجبل بوعورته دائمًا عند بدايته في أسفل، ولكن كلما ارتقى متنه الإنسان أصبح صعوده أقل إرهاقًا.

٩١ ـ ولذا فحينما يبدو لك الجبل شيئًا بهيجًا، حتى يصبح صعودك خفيفًا، كسفينة تنساب مع تيار الماء ـ

٩٤ ـ ستكون قد بلغت عندئذ بهاية المطاف وهناك فلترتقب الراحة من عنائك. ولن أحدثك مزيدًا، وإني لعارف أن هذا أمر حقيقي".

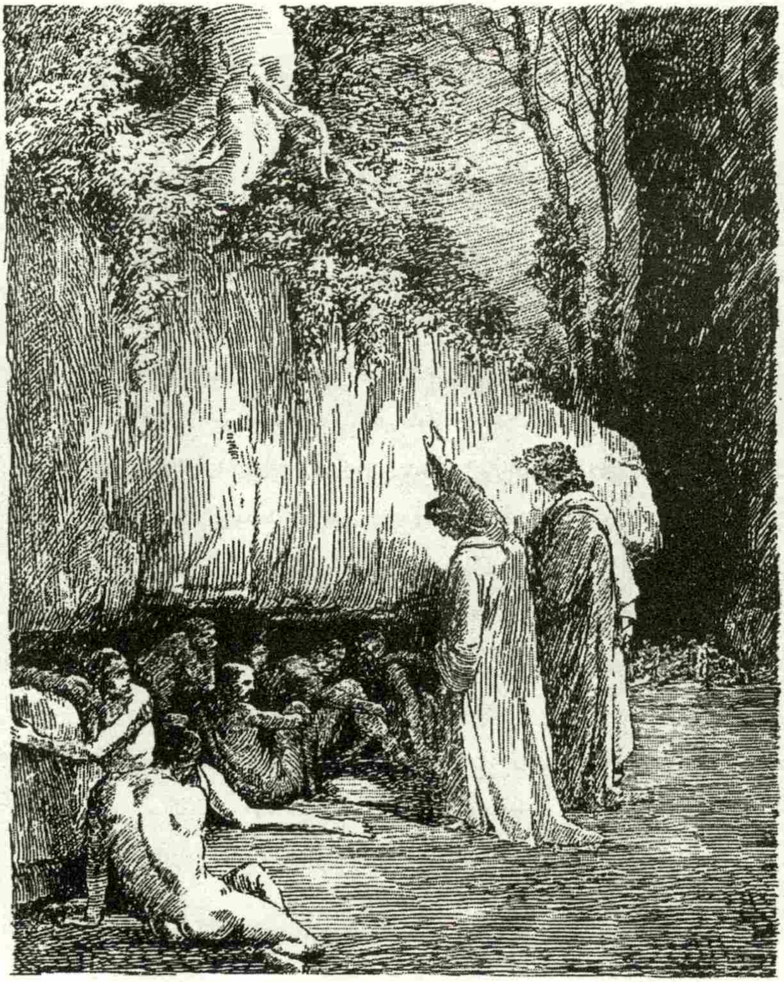
٩٧ ـ وحينما نطق بهذه الكلمات، سمعت بقربي صوتًا يقول: "ربما تصبح في حاجة إلى الجلوس قبل أن تبلغ نهاية الشوط!".

١٠٠ ـ وتلفت كل منا عند سماع هذا الصوت، ورأينا إلى يسارنا كتلة كبيرة من الصخر، لم ينتبه أحدنا إليها من قبل.

١٠٣ ـ فتقدمنا إليها، وكان هناك أشخاص استقروا في الظل وراء الصخر، كرجال يسترخون من الكسل.

١٠٦ ـ وواحد منهم ـ الذي بدا لي أن قد ساده التعب ـ كان جالسًا محتضنًا ركبتيه، وخفض بينهما وجهه إلى أسفل.

١٠٩ ـ قلت "يا سيدي الحبيب، فلتمعن النظر في ذلك الذي يبدو أكسل مما لو كان الكسل له صنوًا".



دانتى وفرجيليو
ينظران إلى الأمراء المهملين الكسالى

١١٢ ـ عندئذ التفت إلينا وأخذ يتأملنا، وحرك وجهه فوق فخذه فحسب، قائلاً "فلتذهب الآن إلى أعلى إذ أنك صنديد".

١١٥ ـ فعرفت حينئذ من كان، وذلك العناء الذي ظل نفسي يلهث منه قليلاً، لم يمنعني من الذهاب إليه؛ وبعد أن.

١١٨ ـ بلغت موضعه، رفع رأسه قليلاً وقال لي "أرأيت الآن كيف تقود الشمس عربتها إلى جانبك الأيسر؟".

١٢١ ـ ورسمت حركاته الكسلي وكلماته بسمة خفيفة على شفتي؛ فبدأت "لست أتألم الآن من أجلك.

١٢٤ ـ يا بلاكوا، ولكن فلتخبرني لم أنت جالس في هذا الموضع بذاته؟ أتنتظر دليلاً؟ أم أنك رجعت فحسب إلى طبعك المألوف؟".

١٢٧ ـ فأجاب "وماذا يجدي يا أخي الصعود؟ إذ أن الطائر الإلهي الذي يجلس على عتبة الباب، لن يدعي أمضي إلى موئل العذاب.

١٣٠ ـ ولأني أخرت حتى النهاية تنهدي الطيب ـ ينبغي أولا أن تدور من حولي السماوات ـ وأنا خارج هذا الباب ـ بقدر ما دارت في أثناء حياتي ـ

١٣٣ ـ ما لم تعني قبل ذلك صلاة تصدر عن قلب يعيش ممتعًا بنعمة الله: وماذا يجدي غير ذلك مما لا يستمع إليه في رحاب السماء؟".

١٣٦ ـ وكان الشاعر قد أخذ يصعد أمامي وشرع يقول "تعال الآن وانظرها قد لامست الشمس أطراف الجنوب، وعند الشواطئ.

١٣٩ ـ يغطي الليل بقدميه مراكش الآن".

***

الأنشودة
5

كانت دانتي يسير وراء دليله وأدركت الأرواح أنه إنسان حي لأنه ترك ظلاً على الصخر، فنظروا إليه في عجب ودهشة وسأل فرجيليو دانتي أن يدعهم يتهامسون وألا يعبأ بما يقال وأن يكون كالبرج الشامخ الذي لا تهتز قمته بعصف الرياح أبدًا وسارع إلى الشاعرين روحان لمعرفة من القادمين. فعرفا أن دانتي إنسان من لحم ودم، فاجتمع حشد من الأرواح حولهما وسألوهما التوقف قليلاً لكي يحمل دانتي عنهم إلى الأرض خبرًا وكان هؤلاء هم من قتلوا ولم تتح لهم فرصة الندم والتوبة عن ذنوبهم إلا في آخر لحظة من حياتهم وأظهر دانتي استعداده لأداء ما يستطيعه من الخير لهم فسأله جاكوبو دل كاسيرو أن يرجو أهل فانو الصلاة من أجل الخلاص من آثامه، وتكلم عن الجراح المميتة التي أصابته وهو محاط بأهل بادوا، وقال إنه لو كان قد هرب إلى ميرا لما قتل في أورياكو، حيث مات وسط بحيرة من دمه الغزير، وقال بوونكونتي دي مونتفلترو أن أحدًا لا يعي به في الأرض ولا حتى ابنته جوفانا وسأله دانتي كيف ابتعدت جثته عن أرض معركة كامبالدينو حتى لم يعرف له قبر فقص عليه كيف تنازع من أجل حياة روحه كل من ملاك السماء وملاك الجحيم، وذكر كيف هطل المطر وجرفته المياه المتدفقة حتى ألقت به في نهر الأرنو. وسألت بيادا تولومبي دانتي أن يذكرها عند عودته إلى الأرض، بعد أن يستريح من عناء رحلته الطويلة، وقالت إنها ولدت في سيينا وماتت في ماريما، و يعرف ذلك زوجها الذي بني بها بعد أن وضع في أصبعها خاتمه، ولم تزد عن ذلك خوفًا.

١ ـ كنت قد رحلت عندئذ عن هذه الأشباح، وتابعت مواطئ قدمي دليلي، حينما صاح من ورائي أحدها.

٤ ـ مشيرًا بأصبعه "انظر كيف يبدو أن شعاع الشمس لا يضيء إلى يسار السائر في أسفل، وكيف تظهر في أفعاله خصائص الإنسان الحي!".

٧ ـ فتلفت بعيني على رنين هذه الكلمات، ورأيتهم ينظرون إلى في عجب ـ إلى وحدي ـ وإلى النور الذي احتجب.

١٠ ـ قال أستاذي "لم يشتد انشغال عقلك حتى تبطئ مسيرك؟ وماذا يعنيك ما يتهامسون به هنا؟

١٣ ـ تعال ورائي، ودع الناس يتكلمون: وكن كبرج ثابت لا تهتز قمته بعصف الرياح أبدًا؛

١٦ ـ فإن من تنبثق لديه فكرة عن فكرة أبدًا، يباعد نفسه عن هدفه؛ إذ تضعف إحداهما من قوة الأخرى".

١٩ ـ وماذا كان يسعي أن أجيبه سوي "إني قادم؟" قلتها وقد علتني مسحة من اللون الذي يجعل الإنسان جديرًا بالصفح أحيانًا.

٢٢ ـ وفي الوقت ذاته جاء قوم عبر الجبل يتقدموننا قليلاً، ويرتدون في لحن متتابع "إرحمني يا الله".

٢٥ ـ وحينما أدركوا أني لم أدع خلال جسمي سبيلاً لمسري أشعة الشمس، أبدلوا ترتيلهم "بآهة!" طويلة خرساء؛

٢٨ ـ وهرول نحونا اثنان منهم كأنهما رسولان، وصاحا بنا "ألا فتعرفانا بحالكما".

٣١ ـ فقال أستاذي "يمكنكما الذهاب وإفادة من أرسلوكما أن ما ترونه ليس سوي جسد من دم ولحم.

٣٤ ـ وإذا كانوا قد توقفوا لرؤية شبحه ـ كما أعتقد ـ فسينالون بذلك ما يرضي سؤلهم: وعليهم بتمجيده، فقد يصبح عزيزًا لديهم".

٣٧ ـ لم أر أبدًا أبخرة ملتهبة تشق عنان السماء الصافية، في بداية الليل بسرعة فائقة، ولا سحب أغسطس عند غروب الشمس.

٤٠ ـ كهاتين الروحين اللتين رجعتا إلى أعلى في زمن أقل من ذلك؛ ولما وصلتا هناك اتجهتا نحونا من سائر الأرواح، كجماعة تجري بدون عنان.

٤٣ ـ قال الشاعر "كثير هؤلاء القوم الذين يندفعون نحونا ويأتون لرجائك، ولكن فلتسر قدمًا ولتصغ غليهم في مسيرك".

٤٦ ـ وأقبلوا صائحين "أيها الروح السائر في طلب السعادة، بتلك الأعضاء التي ولدت بها، هلا توقف خطاك قليلاً،

٤٩ ـ وانظر إذا كنت قد رأيت أحدنا، كي تحمل عنه إلى هناك خبرًا: أواه، لم تسير؟ أواه، لم لا تتوقف؟

٥٢ ـ كنا جميعًا قد قتلنا عنوة، وظللنا آثمين حتى ساعتنا الأخيرة حيث كشف نور السماء عنا الحجاب.

٥٥ ـ ففارقنا الحياة ـ بالندم والغفران ـ في سلام مع الله، الذي يلهب قلوبنا بالشوق لرؤياه".

٥٨ ـ قلت "إني مع إمعاني النظر في وجوهكم لا أتعرف على أحدكم؛ ولكن إذا راقكم أمر أقدر على فعله ـ يا أيتها الأرواح السعيد المولد ـ

٦١ ـ فلتذكروه لي وسأؤديه لكم من أجل ذلك السلام الذي يحملني بذاته على السعي في طلبه، من عالم إلى عالم، وراء خطي دليل مثله".

٦٤ ـ فبدأ أحدهم "إننا نثق جميعًا في فعلك الخير بدون أن نقسم على ذلك ـ ما لم يعطل إرادتك العجز.

٦٧ ـ ولذا أرجوك ـ أنا الذي أتكلم وحدي قبل الآخرين ـ إذا رأيت يومًا تلك البلاد التي تقع بين أرض رومانيا شارل ـ

٧٠ ـ أرجوك أن تتلطف بي فترجوهم في فانو أن يقيموا من أجلي الصلوات الطية، حتى يمكنني التطهر من آثامي الخطيرة.

٧٣ ـ فإني إلى هناك أنتمي، ولكن الجراح العميقة التي خرج خلالها الدم من الجسم الذي كنت أسكنه، قد نالت مني وأنا في غمرة أبناء الأنتينوري.

٧٦ ـ هناك حيث ظننت أني أكثر أمنًا: إن مدبرها هو ذاك المركيز من إست، الذي تجاوز في غضبه على أكثر مما يقتضيه الحق.

٧٩ ولو كنت قد هربت صوب ميرا ـ حينما أدركوني عند أورياكو، لظلت بعد حيث تتردد الأنفاس.

٨٢ ـ وإلى المستنقع جريت، ولكن عوقني البوص والطين، حتى ترديت؛ وهناك رأيت من عروقي بحيرة تصنع فوق الأرض".

٨٥ ـ ثم قال آخر "آه ـ مع رجائي أن تتحقق تلك الرغبة التي تجتذبك إلى الجبل العالي ـ هلا تعينني على بلوغ رغبتي بعطفك الطيب!

٨٨ ـ لقد كنت من مونتفلترو، وإني أنا بوونكونتي: ولا تحفل بي جوفانا ولا غيرها، ولذلك أسير بين هذه الجماعة مطرق الرأس".

٩١ ـ فقلت له "أيه قوة أو قدر نأي عن أرض كامبالدينو، حتى لم يعرف لك قبر أبدًا؟".

٩٤ ـ فأجاب "آه، عند سفح كازنتينو يجري جدول يدعي أركيانو وينبع في الأبنين فوق ذلك الدير.

٩٧ ـ وهناك حيث يزول اسمه، وصلت مجروح الحلق هاربًا على القدمين وقد لوثت السهل بالدم.

١٠٠ ـ وهنا فقدت البصر وعجزت عن الكلام؛ ولكنني انتهيت باسم العذراء ماريا؛ وهنا سقطت، وظل جسدي وحده ملقي على الأرض.

١٠٣ ـ وبالصدق سأخبرك، وستعيد قوله بين الأحياء لقد أخذني ملاك السماء، فصاح به ملاك الجحيم "لم تحرمني منه يا ساكن السماء؟

١٠٦ ـ إنك تحمل منه جزءه الخالد ـ بقطرة الدمع التي تنتزعه مني، ولكني سأجعل لسائره مصيرًا آخر!".

١٠٩ ـ وإنك لتعرف حقًا كيف يتجمع في الهواء ذلك البخار الرطب، الذي يعود ماء حينما يعلو حيث يغشاه البرد.

١١٢ ـ ولقد أتحدث بالعقل تلك الإرادة الخبيثة التي لا تطلب سوي الشر، وأنارت الضباب والريح بالقوة التي تصدر عن طبعها.

١١٥ ـ ولما أفل النهار غطت الوادي بالضباب ـ من براتومانيو إلى القمة الشاهقة، وجعلت السماء في عليائها كثيفة.

١١٨ ـ حتى تحول الهواء المشبع بالبخار إلى ماء وهطل المطر، وانساب منه إلى القنوات ما لم تتشر به الأرض؛

١٢١ ـ وحينما تجمعت المياه في الجداول الكبيرة، تدفقت سريعة إلى النهر الملكي، حتى لم يقفها دونه شيء.

١٢٤ ـ وعند المصب، وجد أركيانو الجارف جسدي المتجمد، فألقي به في مياه الأرنو، ومن صدري أزال الصليب.

١٢٧ ـ الذي كنت قد صنعته بذراعي، حينما غلبي الألم وجرفني النهر نحو ضفتيه وقاعه، ثم غطاني ولفني بأخلاطه".

١٣٠ ـ وبعد الثانية قالت الروح الثالثة: "إيه، عندما تصبح إلى الدنيا عائداً، وتستريح من عناء رحلتك الطويلة.

١٣٣ ـ فلتذكرني، وإني أنا بيا ولقد ولدتني سيينا، وقتلتني ماريما، ويعرف ذلك من وضع من قبل خاتمه.

١٣٦ ـ في أصبعي، حينما بني بي".

***



فلتذكرني.. فإني أنا بيا

الأنشودة
6

كما يحاول الرابح في لعب النرد أن يخرج من وسط رفاقه المجتمعين حوله كذلك تخلص دانتي من جماعة الأرواح التي تجمعت من حوله، وكان بعضهم من أهل كازنتينو أو أريتزو أو من فرنسا سأل دانتي فرجيليو كيف نفي في الإنيادة أن الصلاة تغير حكم السماء، فحاول فرجيليو أن يشرح له الأمر، وقال له إن بياتريتشي سوف تكمل له الشرح لأنها ستكون له نورًا بين الحق والعقل، وعندئذ تعجل دانتي المسير وقد زايله التعب ورأي الشاعران شبحًا منعزلاً ينظر إليهما في كبرياء وهو بهيئة أسد يأخذ قسطًا من الراحة. وسأل فرجيليو ذلك الشبح عن أفضل مرتقي لصعود الجبل فسأله هو عن موطنه، وما إن سمع لفظ "مانتوا" حتى اندفع الشبح - روح سورديلو شاعر التروبادور - إلى فرجيليو، وتعانق الاثنان! فذكر بلاده التي يمزقها الخلاف الداخلي، وناداها بالأمة الذليلة ونعتها بسفينة بدون ملاح وسط العاصفة الهوجاء، ودعاها أن تنظر إلى شواطئها وقلبها، وتساءل هل يعرف جزء منها معني السلام، وقال ماذا تنفع القوانين إذا خلا السرج من القائد القدير واستمطر غضب السماء على الإمبراطور الألماني الذي ترك إيطاليا فريسة للفوضي، ودعاه أن يأتي إلى إيطاليا لكي يلاءم جراحها الدامية، وسأل الله هل أدار عينيه العادلتين عن إيطاليا أم أنه يدبر لها خيرًا مقبلاً يسمو على مداركه وسخر دانتي من فلورنسا التي تجري عدالة شعبها على طرف اللسان، ويتكالب أهلها على الوظائف، وندد بسرعة تغير حكوماتها وقوانينها وعاداتها، وشبهها بالمرأة المريضة التي تحاول أن تدرأ ألمها بالتقلب في فراشها.

١ ـ حينما تنتهي دورة من لعب النرد، يظل الخاسر في موضعه متألمًا، ويستعيد رمياته، وبخسرانه يتعلم كاسف البال.

٤ ـ ومع الرابح يمضي كل الجماعة، هذا يسير أمامه، وذاك من خلف يمسك به، وآخر إلى جانبه يسترعي انتباهه.

٧ ـ ولكنه لا يتوقف، بل يصغي إلى كل منهم، ومن يمدد يديه إلى بشيء لا يلح عليه بعد؛ وبذلك يتخلص من المتكالبين عليه.

١٠ ـ هكذا كنت في ذلك الحشد الكثيف، ولفت وجهي إليهم ـ هنا وهناك ـ وبالوعود خليت نفسي منهم.

١٣ ـ هنا كان الأريتزوي، الذي ذاق الموت من ذراعي جينو دي تاكو الوحشيتين، وكان الآخر من غرق وهو في المطاردة يجري.

١٧ ـ وكان هنا فيدريجو نوفلو، يمد يديه ضارعًا، وذلك المواطن من بيزا ـ الذي جعل مارتزمزمو الطيب يبدو قويًا.

١٩ ـ ورأيت الكونت أورسو، والروح الذي فارق جسده ـ كقوله ـ بالكراهية والحسد ـ لا بإثم اقترفه.

٢٢ ـ أعني بيير دلابروتشا؛ وهنا فلتتدبر السيدة برابنت أمرها، بينما هي هناك، حتى لا تصبح بهذا في زمرة أسوأ.

٢٥ ـ وحينما تخلصت من كل تلك الأشباح ـ التي تضرعت فحسب لكي يصلي الآخرون من أجلها، حتى تصبح سريعًا في عداد الأطهار.

٢٨ ـ بدأت "يا نور عيني، يبدو لي في إحدى فقراتك أنك تنفي صراحة، أن الصلاة تغير من أحكام السماء.

٣١ ـ وأن هؤلاء القوم لا يضرعون إلا لذلك وإذًا فهل يصير أمل هؤلاء إلى البطلان، أم أن مضمون كلماتك لم يتضح لي تمامًا؟".

٣٤ ـ فقال لي "إن كتابتي جد واضحة؛ وليس أمل هؤلاء بالأمل الخادع ـ إذا نظرت الأمر جليًا بعقل واضح.

٣٧ ـ إذ لن تطأطئ العدالة الإلهية من هامتها، لأن نار المحبة تؤدي في لحظة ما ينبغي أن يؤديه من يستقرون ها هنا.

٤٠ ـ وهناك حيث قررت هذا الأمر، لم تمح خطيئة بصلاة، إذ لم تبلغ الصلاة رحاب الله.

٤٣ ـ ومع ذلك فلا تستخلصن من هذا الشك العميق نتيجة، إلا إذا فسّرته لك من ستكون هي النور بين الحق والعقل.

٤٦ ـ لا أدري إذا كنت تفهمني، وإنني أتكلم عن بياتريتشي: وإنك ستراها فوق، على قمة هذا الجبل، ضاحكة مبتهجة".

٤٩ ـ قلت: "فلنسارع الخطي يا سيدي، فلست الآن متعبًا كما كنت من قبل؛ وها قد أخذ الجبل يلقي بظله الآن".

٥٢ ـ فأجابني "إننا سنمضي لتونا قدمًا إلى أقصى ما نستطيع في ضوء هذا النهار، ولكن للواقع صورة تختلف عما تقدر.

٥٥ ـ وقبل أن تصعد أعلى ـ ستراها تعود ـ تلك التي يغطيها جانب الجبل الآن، حتى لم يعد جسمك يحجب أشعتها.

٥٨ ـ ولكن هاك نفسًا تنتحي ناحية بمفردها وتتطلع إلينا إنها ستدلنا على أقصر الطرق".

٦١ ـ فاتجهنا إليها أيتها النفس اللومباردية، كم كان مظهرك متعاليًا مزدريًا، ولكم كانت حركات عينيك هادئة وقورة!

٦٤ ـ ولم تقل لنا شيئًا، بل تركتنا نسير وهي ترقبنا فحسب، بهيئة الأسد حينما يربض.

٦٧ ـ واقترب منها فرجيليو وحده، راجيًا أن تدلنا على خير مرتقي، ولم تجب تلك الروح سؤله.

٧٠ ـ ولكنها سألتنا عن بلدنا وعن حياتنا، وبدأ الليل العزيز: "مانتوا"، فما كان من الشبح المنطوي على نفسه.

٧٣ ـ إلا أن اندفع من الموضع الذي كان مستقرًا فيه من قبل ـ وقال "أيها المانتوي، إنني سورديلو ـ من مدينتك!"؛ وتعانق الاثنان.

٧٦ ـ أواه منك يا إيطاليا، أيتها الأمة الذليلة، يا موئل الآلام، ويا سفينة بغير ملاح وسط العاصفة الهوجاء، إنك لست أميرة على الأقاليم بل بؤرة للفساد!

٧٩ ـ لقد كانت تلك النفس اللطيفة سريعة إلى الترحاب بمواطنها هناك، ما إن تردد في سمعها اسم مدينتها العذب.

٨٢ ـ وإن الأحياء من أبنائك الذين يشملهم سور واحد ويضمهم خندق بعينه ـ لا يكفون الآن عن القتال ويمزقون بعضهم إربًا إربًا.

٨٥ ـ فتشي ـ أيتها البائسة ـ حول شواطئ بحارك، ثم انظري إلى صدرك وابحثي أينعم جزء منك بمباهج السلام!

٨٨ ـ وماذا يجدي أني صلح جستنيان منك العنان، إذا ما خلا السرج من الفارس؟ وبغيابه قد صار خزيك أهون.

٩١ ـ أواه منكم يا من كان عليكم أن تلزموا جانب الطاعة، وتدعوا لقيصر حق الجلوس على السرج ـ إذا وعيتم ما كتبه لكم الله.

٩٤ ـ انظروا كيف جمح هذا الجواد، إذ لم يعد يقومه المهماز ـ منذ أن وضعتم أيديكم في زمامه.

٩٧ ـ ألبرتو ـ أيها الألماني ـ يا من تهجر من اكتسبت صفة الوحوش وسدرت في عصيانها ـ وكان عليك أن تمتطي صهوتها ـ

١٠٠ ـ ألا فليسقط على دمك من النجوم قضاء عادل ـ وليكن مشهودًا وبلا مثيل ـ حتى ينال خلفك منه العرب والفزع!

١٠٣ ـ فلقد شغلك الجشع كما شغل أباك ـ في ذلك الجانب ـ حتى جعلتما حديقة الإمبراطورية خرابًا يبابا.

١٠٦ ـ تعال أيها الغافل وانظر آل مونتيكي وآل كابيليتي، وآل مونالدي وآل فيليبسكي: أولئك حزاني وهؤلاء في هلع.

١٠٩ ـ تعال ـ أيها الغليظ القاسي ـ تعال ـ وانظر ما يعانيه نبلاؤك من الإرهاق وآلام جراحهم الدامية؛ وستري ما ساد سانتافيورا من الإظلام!

١١٢ ـ تعال ـ وانظر إلى روما مدينتك الباكية ـ كأرملة وحيدة ـ والصائحة نهارًا وليلاً "يا قيصري، لماذا تخليت عن صحبتي؟".

١١٥ ـ تعال ـ وانظر كيف يحب الناس بعضهم بعضًا! وإذا لم تحركك الرحمة لإغاثتنا ـ فلتخجلن إذًا من سمعتك!

١١٧ ـ وإذا أبيح لي القول، فإني أسائلك يا جوبيتر الأسمي، يا من صلبت في الأرض من أجلنا. هل اتجهت عيناك العادلتان إلى مواضع أخرى؟

١٢١ ـ أم أن هذا تدبير تعده في أنوار حكمتك، في سبيل خير يعلو حقًا على مداركنا؟

١٢٤ ـ فإن كل مدائن إيطاليا بالطغاة مليئة، ويرتدي ثوب مارتشيلوس كل ريفي يشتغل بسياسة الأحزاب.

١٢٧ ـ فيورنتزا يا بلادي، إن لك أن ترضي بهذا التدهور الذي لا يمسك ـ بفضل شعبك الذي يرعي مصالحه.

١٣٠ ـ وإن عدالة الكثيرين لتأوي إلى قلوبهم، وعنها تصدر في تمهل، حتى لا تبلغ قوسها بدون روية ـ ولكن عدالة شعبك ليست إلى على طرف اللسان.

١٣٣ ـ وكثيرون هم من يرفضون الوظائف العامة؛ ولكن شعبك الحريص يستجيب إليها بدون دعوة، ويهتف "هأنذا متأهب".

١٣٦ ـ ولتسعدي الآن، فقد تهيأت لك الأسباب وإنك ثرية، وفي سلام، وذات حكمة! ولن يخفي الواقع الحقائق التي أذكرها.

١٣٩ ـ وإن أثينا ولاتشيديمونا ـ اللتين وضعتا القوانين القديمة وأقامتا نظمًا دقيقة ـ لم تصنعا ـ بالموازنة بك ـ إلا مثالاً صغيرًا.

١٤٢ ـ للحياة الهانئة، يا من تدبرين الأمور بطريقة محكمة، حتى إن ما تنسجينه في أكتوبر لا يدوم إلى منتصف نوفمبر.

١٤٥ ـ وفي الزمان الذي تذكرينه ـ كم مرة بدلت القوانين، والعملة، والوظائف العادات، وكم من مرات جد دت أعضاءك!

١٤٨ ـ وإذا أحسنت التذكر ونظرت بوضوح، فسترين نفسك شبيهة بتلك العليلة التي لا تجد فوق الريش راحة.

١٥١ ـ ولكنها تدرأ ألمها بالتقلب.

***

الأنشودة
7

تكرر العناق بين شبحي سورديلو وفرجيليو ثم تراجع سوريديلو إلى الوراء وسأل فرجيليو عن شخصه، وحينما عرفه أخذه العجب وأقبل عليه يقبل قدميه، وسأله عن المكان الذي جاء منه فأفاده فرجيليو بأنه جاء خلال حلقات الجحيم وأن موضعه - اللمبو - وهي منطقة لا عذاب فيها ولكنها مظلمة، وبها الأطفال الأبرياء الذين ماتوا قبل تعميدهم استفسر فرجيليو عن مكان الصعود إلى بداية المطهر، فقال سورديلو إنه سيصحبهما كدليل، وإنه يتعذر الصعود ليلاً وسار الشعراء الثلاثة إلى فجوة في الجبل انتظاراً لليوم الجديد، وبلغوا وادي الأمراء الذي فاقت أزهاره ألوان الذهب والفضة و اللؤلؤ والنيلج والزمرد كما امتاز بشذا عطره الفائق ورأي دانتي نفوساً ترتل "السلام لك أيتها الملكة" سأل سورديلو الشاعرين ألا يطلبا إليه الذهاب بهما إلى هذه النفوس لأن رؤيتها ستكون أفضل حيث كانا واقفين وأشار سورديلو إلى الإمبراطور رودلف دي هابسبرج الذي لم يحرك فمه للترتيل مع سائر الأرواح، ولقد كان قادراً على شفاء إيطاليا من جراحها ولكنه أهمل واجبه وأشار سورديلو إلى أدواكر ملك بوهيميا الذي أستغرق في الملذات والكسل. وتكلم عن فيليب الثالث ملك فرنسا - ذي الأنف الصغير - وعن هنري الأول ملك نافار وأشار سورديلو إلى بطرس الثالث الأرجوني - ذي الأعضاء الضخمة - وإلى شارل دانجو - ذي الأنف الكبير - الذي اشتهر بالجزم، وإلى ألفونسو الثالث الأرجوني، وإلى جاكومو الثاني وفيدريجو الثاني الأرجونيين، وإلى هنري الثالث ملك إنجلترا، وإلى جوليلمو دي مونتفيراتي.

١ ـ بعد أن تتابع ذلك الترحاب اللطيف البشوش ثلاث مرات أو أربع، تراجع سورديلو قائلاً "من تكون؟".

٤ ـ "قبل أن تتجه إلى هذا الجبل النفوس الجديرة بالصعود إلى الله، كان أوكتافيوس قد واري في التراب عظامي.

٧ ـ إنني فرجيليو، ولقد فقدت السماء بغير خطيئة سوي أنني عشت بدون إيمان". هكذا أجاب عندئذ دليلي.

١٠ ـ وكمن يري بغتة أمامه شيئًا يثير في نفسه العجب، فيصدق ولا يصدق قائلاً "إنه هو. إنه ليس هو".

١٣ ـ هكذا بدا الآخر؛ ثم أطرق رأسه، ورجع نحوه متضعًا، وقبله حيث يقبل الأقل من يعلوه قدرًا.

١٦ ـ ثم قال "يا فخر اللاتين، الذي أبدت لغتنا خلال ثمراته ما كان في مقدروها! أيها المجد الخالد لأرض ميلادي!

١٩ ـ أية جدارة أو أية نعمة تتيح لي رؤيتك؟ وإذا كنت جديرًا بأن أسمع كلماتك فخبرني أتأتي من الجحيم ومن أي محبس".

٢٢ ـ فأجاب "لقد جئت هنا خلال كل الحلقات في مملكة العذاب: ودفعني فضل صدر من السماء ـ آتي بعونة ها هنا.

٢٥ ـ وليس لأني فعلت بل لأني لم أفعل ـ فقدت رؤية الشمس العالية التي تتشوق إليها ـ والتي لم أعرفها إلا بعد فوات الأوان.

٢٨ ـ هناك مكان في أسفل لا يحزنه عذاب بل ظلمات فحسب، حيث لا تتردد فيه أصوات البكاء عويلاً بل تنهدًا.

٣١ ـ هناك مأواي مع الرضع الأبرياء، الذين عضهم الموت بأنيابه، قبل أن يطهروا من خطيئة البشر.

٣٤ ـ هناك مقري مع من لم يتسربلوا بالفضائل المقدسة الثلاث، وبغير معصية عرفوا سائر الفضائل ـ واتبعوها كلها.



٣٧ ـ ولكن إذا كنت تعرف وتقدر فلتزودنا بإشارة تمكننا من الوصول سريعًا، حيث يبدأ المطهر الحقيقي".

٤٠ ـ فأجاب "ليس لنا من إقامة في مكان محدود؛ ومباح لي أن أصعد وأدور، وسأصحبك كدليل بقدر ما يمكنني المسير.

٤٣ ـ ولكن انظر الآن كيف تؤذن الشمس بالمغيب، ولا نقوي في أثناء الليل على الصعود، ولذا فمن الخير أن نبحث عن مأوي مناسب.

٤٦ ـ هناك نفوس تستقر على مسافة منا إلى اليمين: وإذا أتحت لي فسأذهب بك إليهم، ولن يكون بدون متعة أن تتعرف عليهم".

٤٩ ـ فقيل له: "كيف يتأتي هذا؟ وهل سيمنع أحد من يرغب ليلاً في الصعود، أما أنه لن يصعد لأنه لن يستطيع؟".

٥٢ ـ ورسم سورديلو الطيب بأصبعه خطا على الأرض ـ وقال "انظر، إنك ستعجز عن عبور هذا الخط بعد غروب الشمس.

٥٥ ـ وما من عائق يحول دون الصعود سوي ظلمة الليل وهي ما تشل الإرادة بالعجز.

٥٨ ـ وفي أثنائها يمكن الهبوط، والسير على غير هدي حول الجبل، بينما يحجب الأفق ضوء النهار".

٦١ ـ عندئذ قال سيدي ـ كمن تولاه العجب: سر بنا إذًا إلى هناك ـ حيث تقول إننا يمكننا أن ننال بالتلبث شيئًا من السعادة".

٦٤ ـ وكنا قد ابتعدنا عن ذلك الموضع قليلاً، حينما تبينت أن الجبل محفور، على النحو الذي تحفر به الأودية الجبال ها هنا.

٦٧ ـ وقال ذلك الشبح "إننا إلى هناك سنسير، حيث يصنع المنحدر من نفسه فجوة؛ وهناك سيرقب طلوع الفجر الجديد".

٧٠ ـ وكان هناك طريق منعرج ـ لا هو بالمنحدر ولا بالسهل ـ أدي بنا إلى جانب الوادي، حيث تنخفض حافته لأكثر من النصف.

٧٣ ـ وإن الذهب، والفضة الخالصة، والقرمز، واللؤلؤ، والنيلج، والخشب الرائق اللامع، والزمرد البراق لحظة كسره ـ

٧٦ ـ لتخسف ألوانها جميعًا إذا وضعت بين الأعشاب والأزهار في ذياك الوادي ـ كما يغلب الأصغر على يدي من يكبره.

٧٩ ـ وهناك لم تسبغ الطبيعة ألوانها فحسب، بل صنعت من عبق ألف نفحة شذًا ـ لا عهد لنا به وليس له اسم.

٨٢ ـ ورأيت أرواحًا تجلس فوق الأزهار على الخضرة، وترتل "السلام لك أيتها الملكة"، وحجبها الوادي عن الظهور خارجة.

٨٥ ـ وبدأ المانتوي الذي سار بنا إلى هناك "لا تتطلعا إلى أن أقودكما بين هؤلاء، قبل أن تأوي الشمس الغاربة إلى عشها الآن.

٨٨ ـ ومن هذا الإفريز ستتبينان حركاتهم ووجوههم جميعًا، خيرًا مما لو استقبلتما بينهم في بطن الوادي.

٩١ ـ وذلك الجالس في أعلى موضع، ويبدو أنه أهمل ما كان ينبغي عليه أن يؤديه، ولا يحرك فمًا مع ترتيل الآخرين.

٩٤ ـ كان هو الإمبراطور رودولفو، وكان قادرًا على شفاء الجراح التي أوردت إيطاليا موارد التهلكة، بحيث فات على غيره أوان إحيائها.

٩٧ ـ والآخر الذي يبدو أنه يواسيه، حكم بلادًا ينبع فيها الماء الذي يحمله المولد وإلى الإلب، وينقله الإلب إلى البحر بدوره.

١٠٠ ـ وكان يدعي أدواكر، وفي الأقمطة فاق كثيرًا ابنه فتشسلاو ذا اللحية، الذي به يتغذي الكسل ومنه تطعم ملذات الجسد.

١٠٣ ـ وصغير الأنف، ذاك الذي يبدو عاكفًا على مشورة ذي الوجه الرقيق، مات هاربًا فارطًا زهرة الزنبق.

١٠٦ ـ انظر إليه هناك كيف يضرب صدره! وانظر الآخر الذي جعل ـ في تنهده ـ من راحة كفه وسادة لخده.

١٠٩ ـ إنهما أبو وحمو من كان شرًا على فرنسا وإنهما لعليمين بحياته الأثيمة الفاسدة، وبذا يتأتي الآسي الذي يطعهما.

١١٢ ـ ولقد تمنطق بحبل الفضائل كلها ـ ذاك الذي يبدو ضخم الأعضاء، ويرتل بنغم متآلف مع ذي الأنف الكبير.

١١٥ ـ وإذا كان الفتي الذي يجلس من ورائه قد صار من بعده ملكًا، فيكون الفضل قد انتقل حقًا من إناء لآخر.

١١٨ ـ وهو ما لا يمكن قوله عن سائر الورثة؛ فإن جاكومو وفيدريجو يحكمان المملكتين؛ ولا يملك أحدهما خير ميراث.

١٢١ ـ ويندر أن تظهر في الفروع فضائل البشر، وهذا ما يريده ذلك الذي يمنحها ـ حتى يمكن أن نسأله إياها.

١٢٤ ـ وكذلك تنطبق كلماتي على كبير الأنف، كما أنها ليست أقل انطباقًا على الآخر، أعني بيترو الذي يرتل معه، ولذا تحزن بسببه الآن البروفنس وأبوليا.

١٢٧ ـ وبقدر ما ينحط النبت عن بذرته، فلكوستانتزا أن تفخر بزوجها، أكثر مما تفعل بياتريتشي ومرجريتا.

١٣٠ ـ وانظر إلى الملك الذي عاش حياة البسطة ـ هنري ملك إنجلترا ـ يجلس هناك وحيدًا إن له في فروعه سلالة أفضل.

١٣٣ ـ وذلك الجالس على الأرض بينهم في أدني موضع ـ ناظرًا إلى أعلى ـ هو المركيز جوليلمو الذي حملت ألساندريا وما أثارته من القتال ـ

١٣٦ ـ أهل مونفيراتو وكانافيزي على البكاء من أجله.

***

الأنشودة
8

كانت قد حلت ساعة الغروب التي تثير حنين المسافرين في البحر إلى وطنهم، وسكتت الأرواح فلم يعد دانتي يسمع شيئًا ورأي دانتي روحًا تنهض وتطلب أن ينصت إليها، وسمع الجميع يرتلون بصوت واحد نشيداً يضرعون به إلى الله أن يحمي نفوسهم من شياطين الليل، وشهد دانتي ملاكين يهبطان بثيابهما الخضراء، واحتويا بينهما جماعة الأرواح، وقد قدما لحماية الوادي من الحية رمز الشر والخطيئة أحس دانتي بالخوف فالتصق بفرجيليو، ودعاهما سورديلو إلى النزول إلى وادي الأمراء ورأي دانتي روحًا تتطلع إليه، وكان هذا هو نينو أوجولينو فيسكونتي قاضي جالورا، وابتهج دانتي عندما لم يره بين الملعونين، وتبادلا التحيات الحارة وعندما أدرك نينو وسورديلو أن دانتي إنسان حي، تراجعا وقد أخذهما العجب، ونادي نينو كورادو مالا سبينا لكي يري ما أراده الله بنعمته، وسأل دانتي أن يطلب - عندما يعود إلى الدنيا - إلى ابنته جوفانا أن تصلي من أجل سلامه، وذكر زوجته التي لم تثبت على حبها وتزوجت من غيره، وقال إن مسلكها يوضح كم يدوم الحب الذي لا تذكيه المداعبة أخذ دانتي ينظر نحو السماء وشهد النجوم المتألقة رمز الفضائل الإلهية، ثم جاءت الحية تتسلل بين الأعشاب والأزهار، فهبط الملاكان نحوها بسرعة فولت هاربة، وطار الملاكان عائدين إلى موضعهما في أعلى ودعا كورادو ملاسبينا لدانتي أن يبلغ القمة اللامعة - الفردوس الأرضي - وسأله عن أخبار وادي ماجرا. وقال دانتي إنه لم يذهب إلى بلاده - على غير حقيقة - ولكن شهرتها طبقت الآفاق، وأقسم له بأن شبعه لم يفقد مجد المال والسيف، وأن عاداته الطيبة تميزه عن غيره، وتنبأ كورادو لدانتي بحياة المنفي.

١ ـ كانت ق حلت الساعة التي تبعث الحنين لدي رواد البحار وتلين قلوبهم، يوم أن قالوا وداعًا لأصدقائهم الأعزاء ـ

٤ ـ الساعة التي ترشق بسهم المحبة قلب من يسافر لأول مرة ـ إذا سمع من بعيد رنين ناقوس ـ يبدو أنه يبكي زوال النهار ـ

٧ ـ حينما بدأت أوقف أذني عن السمع، وأخذت أتأمل أحد الأرواح الذي نهض على قدميه، مشيرًا بيده حتى يستمع إليه.

١٠ ـ وضم هذا كلتا راحتيه ورفعهما إلى أعلى، متجهًا بعينيه صوب المشرق كأنه يقول الله "لست أحفل بأحد سواك".

١٣ ـ وعلى شفتيه تردد في خشوع وبأنغام عذبة نشيد "قبل نهاية النهار"، فلم أعد أشعر بما حولي.

١٦ ـ ثم صاحبته سائر الأرواح بخشوع وعذوبة في سائر النشيد كله، وهي شاخصة بأبصارها إلى الدوائر العليا.

١٩ ـ أمعن النر ـ أيها القارئ ـ فيما هو قائم هاهنا، إذ أن النقاب الآن جد رقيق، حتى لتسهل حقًا الرؤية خلاله.

٢٢ ـ ورأيت بعدئذ ذلك الجمع النبيل وقد صمت أفراده ونظروا إلى السماء، وشحب لونهم وبدوا متضعين، كأنهم يتوقعون أمرًا.

٢٥ ـ وشاهدت ملاكين يخرجان من سماء السماوات، ويهبطان أسفل وقد حملا سيفين متوهجين مكسورين نزع طرفاهما.

٢٨ ـ وارتديا ثيابًا مخضرة كوريقات الشجر النابتة توًا، ودفعاها إلى الوراء وقد لامستها وروحتها أجنحتهما الخضراء.

٣١ ـ وجاء أحدهما واتخذ مكانًا في موضع يعلونا قليلاً، ونزل الآخر إلى الشاطئ المقابل، بحيث احتويا تلك الجماعة فيما بينهما.

٣٤ ـ فتبينت جليًا رأسيهما الأشقرين؛ ولكنني حين نظرت إلى وجهيهما ـ زاغ بصري ـ كملكة بالإفراط تضطرب.

٣٧ ـ قال سورديلو: "إنهما يأتيان كلاهما من حلقة ماريا، لحماية الوادي من الأفعى الوشيكة الإتيان".

٤٠ ـ وأنا الذي لم أعرف من أي طريق يأتيان ـ تلفت حوالي عندئذ ـ والتصقت بالكتفين الأمينتين، وقد تجمد سائري.

٤٣ ـ فقال سورديلو بعد: "فلنهبط الآن إلى الوادي بين أشباح هؤلاء العظماء، وسنتحدث إليهم وسيبتهجون برؤيتك كثيرًا.

٤٦ ـ وأظن أني كنت قد نزلت ثلاث خطوات فحسب حتى أصبحت في أسفل، ورأيت واحدًا يتطلع إلى وحدى، وكأنه يود التعرف على.

٤٩ ـ وكانت قد حلت الساعة التي يظلم فيها الهواء، ولكن ليس إلى الحد الذي يحتجب فيه ـ بين عيني وعينيه ـ ما كان من قبل خافيًا عني.

٥٢ ـ جاء نحوي، وذهبت إليه: تينو أيها القاضي النبيل ـ كيف ابتهج قلبي حينما لم أرك بين أهل المعصية!

٥٥ ـ وما من آيات تحيات طيبة إلا وتبادلناها؛ ثم سألني "منذ متى كان إتيانك إلى سفح الجبل عبر المياه الشاسعة؟".

٥٨ ـ فقلت له "آه، لقد جئت هذا الصباح من حلقات الآسي، ولا زلت في حياتي الأولي ـ وإن كنت برحلتي هذه أنال الحياة الآخرة".

٦١ ـ وعندما سمعت إجابتي، تراجع إلى الوراء هو وسورديلو، كجماعة أخذها عجب مفاجئ.

٦٤ ـ وإلى فرجيليو اتجه أحدهما، وإلى روح كان جالسًا هناك اتجه الآخر صائحًا: "انهض يا كورادو؛ وتعال اشهد ما أراده بنعمته الله".

٦٧ ـ ثم اتجه إلى قائلاً: "باسم ذلك الفضل الذي أنت مدين به إلى من يخفي أولي علل فعاله ـ بحيث لا يمكننا إدراكها ـ

٧٠ ـ حينما تصبح في الجانب الآخر من الموج الخضم، قل لجوفانا ابنتي أن تتجه بصلواتها من أجلي ـ حيث يستجاب إلى دعاء الأبرياء.

٧٣ ـ ولا أعتقد أن أمها ما زالت تحبني، منذ أن بدلت نقبها البيضاء، والتي ستظل تلك البائسة في حاجة إليها.

٧٦ ـ ومن اليسير أن يتضح بمسلكها كم تدوم لدي المرأة نار المحبة، إذا لم تؤجج النظرات أو اللمسات من أوراها.

٧٩ ـ وإن الحية التي تقود شعب ميلانو إلى ساحة الوغي، لن تبني لها قبرًا جميلاً كما كان ديك جالورا قادرًا على بنائه".

٨٢ ـ هكذا تكلم وقد ارتسم على وجهه ذلك الغضب العادل، الذي يضطرم في القلب بالقدر المناسب.

٨٥ ـ ولغير السماء لم تتجه عيناي المتحفزتان، حيث تسير النجوم بأبطأ سرعة، كعجلة في أقرب موضع إلى مركزها.

٨٨ ـ قال دليلي "ماذا تنظر يابني هناك في أعلى" فقلت له "إنني أنظار إلى تلك الشعلات الثلاث، التي يتوهج بها القطب هنا في كل أرجائه".

٩١ ـ فقال لي "لقد هبطت في ذلك الجانب النجوم الأربعة اللامعة التي رأيتها هذا الصباح، وصعدت هذه إلى مكانها".

٩٤ ـ وبينما كان يتكلم جذبه سورديلو إليه قائلاً: "فلتنظر هناك عدونا"؛ وأشار بأصبعه حتى ينظر هناك.

٩٧ ـ في ذلك الجانب ـ حيث لا حاجز للوادي الصغير ـ رأيت حية ـ ربما كانت هي التي قدمت لحواء مرير الطعام.

١٠٠ ـ ومن بين الأعشاب والأزهار جاءت الزاحفة الخبيثة، رافعة رأسها آنا فآنا، ولحست ظهرها كحيوان يلحس نفسه.

١٠٣ ـ لم أر ـ ولذا لا يمكنني القول ـ كيف طار بازيًا السماء؛ ولكني تبينت جليًا كلا منهما في طيرانه.

١٠٦ ـ وعلى حفيف الأجنحة الخضراء ـ وهي تشق أجواز الفضاء ـ لاذت الحية بالفرار، ثم استدار الملاكان وعادا طائرين جنبًا إلى جنب، إلى مقرهما في أعلى.

١٠٩ ـ والشبح الذي كان قد اقترب من القاضي عند ندائه ـ لم ينقطع لحظة عن النظر إلى ـ خلال هذه الحملة كلها.

١١٢ ـ وبدأ "ألا فليجد ـ في إرادتك ـ النور الذي يقودك إلى أعلى ـ شمعًا وفيرًا يكفي حاجتك لبلوغ القمة الخضراء.

١١٥ ـ وإذا كنت تعرف أنباء صحيحة عن وادي ماجرا او عن المناطق المجاورة فخبرني بها ـ فقد كنت هناك ذات يوم من العظماء.

١١٨ ـ وكنت أدعي كورادو مالاسبينا، وإني لست كورادو القديم، ولكني منحدر من صلبه ولقد حملت لأهلي المحبة التي تستكمل صفاءها هاهنا".

١٢١ ـ فقلت له "آه، إني لم أذهب إلى بلادكم أبدًا، ولكن أين يقيم ـ في أرجاء أوروبا ـ من لا يعرفها؟

١٢٤ ـ وإن الشهرة التي تمجد بيتكم ـ تعلى من ذرك سادتكم وتذيع من صيت أرضكم ـ حتى ليعرفها من لم يذهب إليها بع.

١٢٧ ـ وأقسم لك ـ ولعلى أبلغ القمة ـ أن شعبك المجيد لا يفقد شيئًا من مجد المال أو السيف.

١٣٠ ـ وهو بعاداته وطبيعته يتميز، حتى إنه على رغم فساد الدنيا ـ بالرأس الخبيث ـ يسير وحده مستقيمًا ـ ولطريق الشر مزدريًا".

١٣٣ ـ فقال لي "فلتذهب الآن، إذ لن تأوي الشمس ـ سبع مرات ـ إلى الفراش الذي يغطيه الحمل ويعتليه بكل أقدامه الأربع.

١٣٦ ـ حتى يثبت هذا الرأي اللطيف في أم رأسك ـ بمسامير أقوي من كلام الناس ـ

١٣٩ ـ إذا لم يتوقف الحكم الإلهي عن سيره".

***

الأنشودة
9

كانت الشمس قد غربت وتقدم الليل حتى أخذ برج العقرب يعبر الأفق، وكان دانتي قد غلبه النعاس وقبيل الصباح - حينما يكاد عقل الإنسان يصبح إلهيًا في رؤياه - بدا لدانتي في الحلم أنه رأي نسرًا يهبط من السماء كبرق خاطف وانتزعه إلى أعلى حتى منطقة من النيران، فانقطع نومه وقد ساده الفزع وأخذ فرجيليو يطمئنه وأخبره أنه بلغ الآن المطهر وقال عن لوتشيا جاءت من السماء فحملته إلى أعلى وصعد هو في إثرها، وأرت فرجيليو باب المطهر، فاستعاد دانتي ثقته بنفسه وصعد خلف فرجليو. ويخاطب دانتي القارئ ويذكر كيف أنه يعمل على السمو بموضوعه وتدعيمه بفن أعظم اقترب الشاعران من باب المطهر ورأي ثلاث درجات وشهد ملاكًا حارسًا شع منه نور ساطع حتى لم يقو على النظر إليه وسألهما الملاك عن حالهما وحذرهما من الصعود مزيدًا، ولكن لما أفاده فرجيليو أن لوتشيا هي التي سهلت لهما سبيل الصعود رحب بهما ودعاهما إلى المدخل صعد دانتي على درجات السلم التي ترمز أولاها لصفاء النفس وترمز الثانية للاعتراف بالخطايا وترمز الثالثة للحب الذي يطهر القلب وسأل دانتي الملاك أن يفتح لهما الباب فرسم على جبينه سع (خاءات) رمز الخطايا، وفتح باب المطهر بمفتاحين أحدهما من الذهب والآخر من الفضة، وحذرهما من النظر إلى الخلف حتى لا يعودا إلى الخطايا. وأحدث فتح باب المطهر دويًا هائلاً فاق الدوي الذي حدث عند استيلاء قيصر على الخزينة المحفوظة في صرة تاربيا. وسمع دانتي داخل الباب نشيدًا يرتل على أنغام الموسيقي العذبة، وفهم بعض كلماته بدون أن يفهمه كله.

١ - كانت حظية تيتونوس العتيق - قد أصابها شحوب اللون - في شرفة المشرق، وهي بعيدة عن ذراعي عاشقها الولهان.

٤ ـ وأضاء جبيها بأزاهير نظمت بهيئة الحشرة ذات الجسم البارد، التي تلدغ بذنبها الناس.

٧ ـ وفي الموضع الذي كنا فيه، كان الليل قد سار خطوتين صعداً، وخفض إلى أسفل جناحي خطوته الثالثة.

١٠ ـ حينما انثنيت فوق العشب ـ وقد غلبني النعاس ـ أنا الذي حملت من آدم بعض طبعه ـ إذ كنا جلوساً نحن الخمسة.

١٣ ـ وفي الساعة التي يبدأ فيها الخطاف شدوه الحزين قبيل الصباح ـ ربما لذكري كوارثه القديمة.

١٦ ـ وعندما يكاد عقلنا يصبح إلهياً في رؤياه ـ وقد زاد عن الجسد بعده وقل تقيده بالأفكار.

١٩ ـ بدا لي في الحلم أني أري نسراً معلقاً في السماء بريا‌ش من ذهب، وذا جناحين مفتوحتين ويوشك أن يهبط.

٢٢ ـ وتراءي لي أني كنت حيث تخلي جانيميد عن قومه، حينما رفع إلى المجمع الأعلي.

٢٥ ـ وقلت لنفسي "ربما اعتاد الصيد هنا فحسب، وربما يأنف أن يحمل بمخالبه ـ من غير هذا المكان ـ فريسة إلى أعلى".

٢٨ ـ ثم بدا لي أنه قد دار قليلاً ثم هبط كالبرق رهيباً، واختطفني صاعداً بي حتى منطقة من النار.

٣١ ـ وهناك تراءي لي كأن كلينا قد احترق، وشواني الحريق الذي تخيلته، حتى لم يكن بد من أن ينقطع نومي.

٣٤ ـ على غير هذا النحو لم يفزع أخيل ـ وقد دار فيها حواليه بعينين يقظانتين بدون أن يدري إلى أي موضع صار ـ

٣٧ ـ حينما حملته أمه بين ذراعيها وهو نائم ـ من كيرون إلى أسكيروس ـ حيث ارتحل به الإغريق بعد ـ

٤٠ ـ وكما فزعت عندما طار النوم من عيني، وصرت شاحب اللون، كالرجل الذي يتجمد من الرعب.

٤٣ ـ وإلى جانبي كان أنيسي وحده، وبلغ ارتفاع الشمس إذ ذاك أكثر من مسيرة ساعتين، واتجهت بعني صوب البحر.

٤٦ ـ وقال سيدي "لا يأخذنك الخوف، ولتكن مطمئن القلب، إذ أننا موفقان في المسير، فلا تتخاذل، وعليك بشحذ كل قواك.

٤٩ ـ لقد بلغت المطهر الآن وهاك الإفريز الذي يغلقه في كل جانب، وانظر المدخل الذي يبدو مشطوراً هناك.

٥٢ ـ منذ وقت غير بعيد، وفي الفجر الذي يمهد للنهار، حينما قال الوسن من روحك ـ فوق الأزهار التي يزين بها ذلك المكان هناك في أسفل ـ

٥٥ ـ أقبلت سيد وقالت لي "إنني لوتشيا: ولتدعي آخذ هذا الوسنان، وسأيسر له طريق الصعود".

٥٨ ـ وتخلف عنا سورديلو وسائر الأشباح النبيلة ثم حملتك لوتشيا؛ وحينما وضح النهار مضت إلى العلياء، وسرت في إثرها.

٦١ ـ وهنا وضعتك، ولكنها أرتني أولا بعينيها الجميلتين ذلك المدخل المفتوح، ثم ذهبت هي وذهب نومك معها".

٦٤ ـ وكمن ينتقل من الشك إلى اليقين، ويتحول خوفه إلى طمأنينة حينما تتكشف له الحقيقة ـ

٦٧ ـ هكذا بدلت حالي؛ ولما رآني دليلي مطمئن البال، تحرك فوق عبر الإفريز، وسرت من ورائه صوب المرتفع.

٧٠ ـ وإنك لترى جلياً ـ أيها القارئ ـ كيف أعمل على السمو بموضوعي، ولذا فلا تعجب إذا أنا دعمته بأسمى سبحات الفن.

٧٣ ـ ثم اقتربنا، وأصبحنا في الموضع الذي بدا لي من قبل مشطوراً، بهيئة فرجة تشق حائطاً.



نسر يحمل دانتي صاعداً به
خلال منطقة من النيران

٧٦ ـ ورأيت بابًا، ومن تحته ثلاث درجات تؤدي إليه ـ ذات ألوان مختلفة ـ وشهدت حارسًا لم ينطق بعد بكلمة.

٧٩ ـ وعندما فتحت عيني أكثر فأكثر، رأيته يجلس على الدرجة العليا، وكان ذا وجه لم أقو على النظر إليه.

٨٢ ـ وأمسك بيده سيفًا عاريًا، عكس بشدة نحونا أشعة أنواره، حتى كان اتجاه نظراتي إليه مرات عديدة أمرًا غير ذي جدوى.

٨٥ ـ وشرع يقول "خبراتي حيث أنتما ماذا تبغيان؟ وأين دليلكما؟ خذا حذركما حتى لا يسوءكما المجئ فوق".

٨٨ ـ فأجابه أستاذي "إن سيدة من السماء عليمة بهذه الأشياء قالت لنا الآن "فلتذهبا هناك فهناك المدخل".

٩١ ـ فاستأنف الحارس اللطيف كلامه "عساها تسارع بخطاكما إلى طريق الخير، ولذا فلتأتيا صعدًا إلى درجاتنا".

٩٤ ـ فذهبنا إلى هناك، وكانت درجة السلم الأولي مصوغة من مرمر أبيض أملس شديد اللمعان، حتى انعكست عليه صورتي كما أبدو.

٩٧ ـ وكانت الدرجة الثاني سوداء أكثر منها داكنة محمرة ومصنوعة من صخرة خشنة ذات حبب، مشقوقة طولاً وعرضًا.

١٠٠ ـ والدرجة الثالثة التي ارتكزت فوقهما، بدت لي ذات حمرة نارية مشتعلة، كدم ينبثق من شريان.

١٠٣ ـ وعلى هذه الدرجة وضع ملاك الله كلتا قدميه، وجلس على العتبة التي بدت لي كصخرة من الماس.

١٠٦ ـ وجذبني دليلي على الدرجات الثلاث، وأنا جد راغب في ذلك، وقال لي "سله متضعًا أني فتح لنا الباب".

١٠٩ ـ فألقيت بنفسي خاشعًا عند قدميه المقدستين وسألته أن يفتح الباب رحمة بي، ولكني ضربت صدري أولا ثلاث مرات.

١١٢ ـ فرسم على جبيني بطرف حسامه سبع خاءات، وقال "أحرص على أن تزيل عنك هذه الندوب حينما تصبح بالداخل".

١١٥ ـ كان لون الرماد أو الأرض التي تحرث وهي جافة في لون ثيابه؛ ومن تحتها سحب مفتاحين إلى الخارج.

١١٨ ـ ومن الذهب كان أحدهما مصوغًا، ومن الفضة صبغ الآخر: وبالأبيض عالج الباب أولا، ثم بالأصفر، حتى صرت راضيًا.

١٢١ ـ وقال لنا "كلما يعجز أحد هذين المفتاحين عن الدوران في القفل ـ لا ينفتح هذا الطريق.

١٢٤ ـ إن أحدهما أغلى ثمنًا؛ ولكن الآخر يقتضي فنًا وحذقًا أكثر قبل أن ينفتح الباب ـ لأنه هو الذي يحل العقدة.

١٢٧ ـ لقد أخذتهما من بطرس؛ وأخبرني أنه أولي بي أن أخطئ في فتحه من أن أبقيه موصدًا، حين يرتمي عند قدمي الناس".

١٣٠ ـ ثم دفه مدخل الباب المقدس قائلاً "ألا فلتدخلا ولكني أعرفكما بأن من ينظر منكما إلى الخلف يرتد إلى الخارج".

١٣٣ ـ وحينما دار على رزاتهما مصاعرًا المقدس ـ المصنوعان من متين المعدن الرنان ـ

١٣٦ ـ لم تبدو صخرة تاربيا هكذا، ولم تبد مستعصية على هذا النحو، حينما انتزع منها ميتلوس الطيب، تاركًا إياها خاوية من بعده.

١٣٩ ـ واتجهت مصغيًا إلى رنين الصوت الأول، وبدا لي أني أسمع "اللهم لك الحمد"، في ثنايا أصوات ممتزجة بلحن عذب.

١٤٢ ـ ولقد زودني ما سمعته بصورة صادقة لما اعتاد أن يبلغ الأسماع، حينما يقف الناس للإنشاد على أنغام الأرغن.

١٤٥ ـ فتارة تفهم كلماتهم، وطورًا لا تفهم.

***

الأنشودة
10

سمع دانتي صوتًا يصدر عن إغلاق باب المطهر ولكنه لم ينظر خلفه، وصعد الشاعران خلال طريق ضيق منعرج محفور داخل الصخر، وكانت الساعة قد تجاوزت التاسعة والنصف صباحًا، وخرجا إلى الإفريز الأول إفريز المتكبرين، وجال دانتي بعينيه يمنة ويسرة فرأي حائطًا من المرمر الأبيض تزينه مشاهد من الحفر البارز، كان أولهما يمثل هبوط جبريل مبشرًا ماريا بميلاد السيد المسيح، وظهرت فيه ماريا كأنها تقول بتواضع أنها أمة الرب ورأي دانتي مشهدًا ثانيًا يصور الاحتفال بنقل التابوت المقدس إلى أورشليم، ويسبقه داود الملك وهو يرقص ابتهاجًا، وتري ميكال وهي تنظر من نافذة قصرها وقد سادها الازدراء والحزن، ورأي دانتي المشهد الثالث الذي يصور قصة الإمبراطور تراجان والأرملة التي فقدت ابنها فجاءت تطلب الانتقام لمقتله، فأراد إرجاء النظر في أمرها، ولكنها قالت له ماذا يكون له في خير يفعله غيرها إذا أهمل هو ما يخصه، فتأثر الإمبراطور وقام بواجبه الذي اقتضته العدالة والرحمة ولفت فرجيليو نظر دانتي إلى حشد يسير بخطي قصيرة بطيئة، فزاغ بصر دانتي عند النظر إليهم، واستفسر عن حالهم، وكان هؤلاء هم جماعة المتغطرسين النادمين التائبين وندد دانتي بكبريائهم ولامهم على التحليق بعقولهم عاليًا، وقال إن البشر كالديدان التي لم يكتمل نموها. ورأي دانتي هؤلاء يسيرون ناءت ظهورهم بما حملوه من الأحجار الثقيلة، بهيئة التماثيل الزخرفية التي تستخدم لتدعيم الشرفات أو الأسقف، وتبلغ ركبتا التمثال منها موضع صدره، بحيث يبعث وضعه الآسي في عيني رائيه، وبدا أكثر المتطهرين صبرًا يقول إنه لا يستطيع الاحتمال مزيدًا.

١ ـ حينما أصبحنا بداخل عتبة الباب الذي لا تأوي إليه المحبة الصادرة عن الأرواح الخبيثة ـ إذ تجعل طريق الضلال يبدو مستقيمًا ـ

٤ ـ أدركت من صرير الباب أنه قد أعيد إغلاقه ولو كانت قد اتجهت بعيني إليه، فأي عذر كان من شأنه أن يناسب خطئي؟

٧ ـ وأخذنا نصعد خلال صخرة منفرجة كانت تميل بنا من جانب لآخر، كالموجة التي تمتد وتنحسر.

١٠ ـ وبدأ دليلي "علينا أن نستعين هنا بشيء من الحذر في التزام الجانب الذي يميل هنا تارة وطورًا هناك".

١٣ ـ وحملنا ذلك على إبطاء مسيرنا، حتى إن القمر الهابط كان قد بلغ مثواه طلبًا للراحة.

١٦ ـ قبل أن نخرج من سم الخياط: ولكن عندما أصبحنا حرين طليقين فوق الجانب الذي ينحسر فيه الجبل إلى الخلف ـ

١٩ ـ وكان قد نالني التعب وصرنا كلانا غير واثقين من طريقنا ـ عندئذ وقفنا على سطح أشد عزلة من الدروب في الصحاري.

٢٢ ـ ومن طرفه الذي يشارف الفضاء ـ إلى سفح الجبل العالي الذي يمضي صعيدًا ـ امتدت مساحة يعادل طولها ثلاث أضعاف من قامة إنسان.

٢٥ ـ وإلى أبعد ما استطاعت عيني أن تبلغ بجناحيها، إلى اليسار تارة وإلى اليمين طورًا، بدا لي هذا الإفريز بمثل ذلك الاتساع.

٢٨ ـ ولم تكن أقدامنا قد تحركت بعد هناك في أعلى، حينا عرفت أن ذلك الشاطئ الصخري الذي أعوزته سبيل الصعود ـ

٣١ ـ كان مصنوعًا من مرمر أبيض ومزينًا بحفر بديع، حتى لم يكن ليخجل منه بوليكيتوس وحده، بل الطبيعة كذلك.

٣٤ ـ وإن الملاك الذي جاء إلى الأرض بقرار السلام، وبكاه الناس سنوات عديدة والذي فتح السماء بعد إغلاقها الطويل ـ

٣٧ ـ ظهر أمامنا هناك محفوراً ببراعة فائقة وفي وضع لطيف، حتى لم يبد لنا صورة خرساء.

٤٠ ـ ويمكنني أن أقسم بأنه قال "السلام لك!"؛ إذ كانت مصورة هناك تلك التي أدارت المفتاح لكي تفتح باب المحبة السامية.

٤٣ ـ وعلى وجهها ارتسمت هذه الكلمات "انظروا أمة الرب" ـ كما تطبع الصورة واضحة على صفحة الشمع.

٤٦ ـ "لا يسترعين انتباهك موضع واحد فحسب"، هكذا تكلم معلمي الحبيب، ولقد وقفت منه إلى الجنب الذي يضم قلوب الناس.

٤٩ ـ وبذلك لفت وجهي ورأيت ـ خلف ماريا في ذاك الجانب الذي وقف فيه من كان يحدوني إلى ذلك ـ

٥٢ ـ رأيت قصة أخرى محفورة على الصخر، ولذا تجاوزت موضع فرجيليو واقتربت منها حتى تتضح معالمها لعيني.

٥٥ ـ وكان محفوراً هناك في المرمر ذاته، العربة والثيران وهي تجر التابوت المقدس، الذي يثير في الإنسان الخوف من مهمة لم يعهد بها إليه.

٥٨ ـ وإلى الأمام بدا قوم، وقسموا سبع جوقات، وجعلوا جميعهم إحدى حاستين من حواسي تقول "لا.."، والأخرى تقول "نعم، إنهم يرتلون".

٦١ ـ فبشأن دخان السنا الذي كان مرسوماً هناك ـ على ذلك النحو اختلفت العينان والأنف في قول لا ونعم.

٦٤ ـ وفي مقدمة التابوت المبارك، وسار هناك الزبوري المتواضع، وأخذ يرقص مشمراً؛ وكان على تلك الحال أكثر وأقل من ملك.

٦٧ ـ وقبالته حفرت صورة ميكال عند نافذة قصر منيف، وكانت تتأمل كسيدة سادها الحزن والازدراء.

٧٠ ـ وخطوات من الموضع الذي كنت فيه واقفاً، لكن أري عن كثب قصة أخرى مرسومة، شعت أمامي ببياضها من وراء ميكال.

٧٣ ـ فهناك سجلت قصة المجد الرفيع للأمير الروماني، الذي حملت فضائله جريجوريو على إحراز نصره الكبير.

٧٦ إنني أتكلم عن الإمبراطور تراجان، ولقد مثلت عند عينان جواده، أرملة مسكينة، ملكها الحزن وسكبت الدمع الهتون.

٧٩ ـ وحواليه ظهر حشد من الفرسان كثيف، وبدت فوق رؤوسهم نسور الذهب ترفرف مع الريح.

٨٢ ـ ومن بين هؤلاء جميعًا بدت البئيسة تقول "انتقم ـ يا مولاي ـ لمقتل بسني الصريع، فقلبني من أجله مطعون".

٨٥ ـ بدا أنه يجيبها "عليك الآن بالانتظار حتى أعود" فقالت كمن ألهبها الألم "وإذا لم تعد يا مولاي؟".

٨٨ ـ فقال "سيؤدي لك ذلك من يحل مكاني" فقالت "وماذا يكون ذلك في خير يفعله غيرك، إذا وضعت ما يخصك منه موضع النسيان؟".

٩١ ـ فقال عندئذ "هدئي الآن من روعك؛ إذ ينبغي على أن أقوم بواجبي قبل أن أرحل فإن العدالة تتطلبه والرحمة توقفني".

٩٤ ـ إن ذلك الذي لم يشهد أبدًا شيئًا غريبًا عليه، صنع هذا الكلام المنظور ـ الغريب علينا ـ إذ ليس له هنا وجود.

٩٧ ـ وبينما كنت أمتع نفسي بالتأمل فيما بدا لمثل هذا التواضع من الصور، التي تعتز النفس برؤياها ـ بفضل كمال صانعها ـ

١٠٠ ـ همس لي الشاعر "هاك في هذا الجانب جمعًا كبيرًا، ولكنهم يسيرون بخطى بطاء وسيقودنا هؤلاء إلى ما يتلو من الدرجات".

١٠٣ ـ وعيناي اللتان رضيتا بالتأمل، لكي تريا شغفهما من المشاهد الجديدة ـ لم تتوانيا في الاتجاه إليه.

١٠٦ ـ ومع ذلك فلا أريد أيها القارئ أن تنصرف عن قصدك الطيب، بسماعك كيف يشاء الله أن يوفي الدين.

١٠٩ ـ ولا تحفل بما للعذاب من الصور بل عليك بالتفكير فيما يسفر عنه؛ وقدر أنه ـ على أسوأ حال ـ لا يمكنه أن يتجاوز يوم الحشر.

١١٢ ـ فبدأت "أستاذي، إن الكتلة التي أراها تتقدم نحونا لا تبدو رجالاً من البشر، ولا أدري ما هي، إذ يزيغ بصري عندما أنظر إليها".

١١٥ ـ فقال لي "إن طبيعة عذابهم القاسي تنوء بهم إلى الأرض، حتى تضاربت عيناي بشأنهم منذ هنيهة.

١١٨ ـ ولكن فلتنظر بانتباه إلى هناك، وبعينيك فلتتبين من هؤلاء الذين يأتون تحت عبء هذه الصخور ويمكنك أن تري الآن كيف يقرع كل منهم صدره".

١٢١ ـ أيها المسيحيون المتغطرسون، أيها البائسون المكدودون ـ الذين تضعون ثقتكم في خطي إلى الخف ـ و قد عميت بصيرتكم ـ

١٢٤ ـ ألا تدركون أننا لسنا سوي ديدان ـ ولدنا لنصنع الفراشة بهيئة الملاك ـ التي تطير إلى موئل العدالة بغير عائق؟

١٢٧ ـ ولم تحلق نفوسكم عاليًا، ما دمتم لستم سوي حشرات ناقصة، أشبه بديدان لم تكتمل نموها؟

١٣٠ ـ وكما في سبيل تدعيم شرفة أو سقف ـ نري أحيانًا زخرفًا بهيئة تمثال تبلغ ركبتاه عظام صدره ـ

١٣٣ ـ وفي عيني ناظره يبعث آسي حقيقيًا بما هو فيه غير حقيقي ـ هكذا رأيت هؤلاء مصنوعين ـ حينما أمعنت النظر فيهم.

١٣٦ ـ وحقًا لقد ازداد أو قل انحناؤهم، بازدياد أحمالهم أو نقصانها، ومن بدا منهم أكثر صبرًا ـ

١٣٩ ـ بدا يقول باكيًا "لست أقوى على الاحتمال مزيدًا".

***

الأنشودة
11

أخذت أرواح المتكبرين نشيدًا مقتبسًا من صلاة الأحد، فمجدوا الله وسألوه خبزهم اليومي وطلبوا المغفرة والخلاص من لوتشيفيرو ـ إبليس ـ وسارت الأرواح على الإفريز الأول ـ إفريز المتكبرين ـ وهي تتطهر من خطيئتها تحت أثقال من الصخر، وعبر دانتي عن ضرورة التعاون بين أهل الأرض وبين أهل المطهر في الصلاة من أجل خلاصهم جميعًا سأل دانتي أحد الأرواح عن أقصر الطرق وأقلها ميلاً وانحدارًا لبلوغ الإفريز الثاني ـ إفريز الحاسدين ـ وسمع دانتي أومبرتو ألدوبراندسكي الزعيم الجبلي يشير إلى الطريق الذي يمكن أن يصعده إنسان حي، وتكلم عن دمه العريق وعن غطرسته التي جلبت الكوارث عليه وعلى أقاربه جميعًا، وقال إنه يحمل الصخر حتى ينال رضا الله وتحدث دانتي إلى أوديريزي دا جوبيو مزخرف المخطوطات الذي رغب في التفوق في الدنيا، فكلم دانتي عن تفوق جوتو على تشيمابوي وتفوق كافالكانتي على جوينتزلي، وقال أوديريزي إن الشهرة في الأرض ليست سوى نفثة ريح تهب هنا تارة وهناك طورًا وتغير اسمها بتغيير اتجاهها، وإنه ليس هناك فرق يذكر بين الموت في سن الشيخوخة أو في سن الطفولة، وإن ألف سنة أمام الأبدية لا تزيد عن طرفة عين، وقال إن الشهرة كالعشب الذي يحضر ثم يجف سريعًا وقص أوديريزي على دانتي ما قام به بروفنتزان سالفاني من العمل المتواضع بوقوفه للاستجداء ـ إبان مجده ـ في ميدان سيينا ليجمع المال اللازم لتخليص صديق له وقع في أسر أعدائه، وبذلك كفر عن غطرسته وكبريائه.

١ ـ "أبانا الذي تستوي في السموات، لا بكونك محدودًا بشيء هناك، بل بما تكنه من زائد المحبة لبراياك الأوائل في علياء السماء ـ

٤ ـ فليقدس كل الوري اسمك وجبروتك، وجدير بهم أن يضفوا على روحك الحبيب آيات الحمد والثناء.

٧ ـ ولينزل علينا سلام ملكوتك؛ وإن لم يأتنا فلا سبيل لنا لبلوغه بأنفسنا، بكل ما أوتيناه من حذق وفن.

١٠ ـ وكما يضحي ملائكتك بإرادتهم في سبيلك وهم يرتلون الهوشعنا، هكذا فليضح البشر بإرادتهم.

١٣ ـ أعطنا اليوم خبزنا كفافًا، إذ بدونه يعود القهقري من يمعن في إجهاد نفسه كي يتقدم في هذه البيداء القفر.

١٦ ـ وكما نغفر للجميع ما عانيناه من إساءاتهم إلينا، فلتغفر برحمتك معاصينا، بدون النظر إلى ما نحن له أهل.

١٩ ـ ولا تختبر مع عدونا القديم قوتنا التي يسهل قهرها، بل خلصنا ممن يهمزها بمثل هذا العنف.

٢٢ ـ ربنا، إننا لا نؤدي لك من أجل ذواتنا ختام هذه الصلاة ـ إذ لا حاجة لنا بذلك ـ بل نؤديها في سبيل من تخلفوا من بعدنا".

٢٥ ـ هكذا بينما كانت هذه الأشباح تصلي من أجل ذواتها ومن أجلها، للقيام برحلة مؤاتية، سارت تحت ثقل يشبه ما يراودنا في الحلم أحيانًا.

٢٨ ـ وتفاوتت فيما نالته من العذاب، ودارت جميعها مجهدة على الإفريز الأول ـ وهي تتطهر من ضباب العالم الخبيث.

٣١ ـ وإذا قيلت في سبيلنا كلمات طيبة هناك أبدًا، فماذا يمكن أن يقوله أو يفعله هنا من أجلها، أولئك الذين غرست في الخير إرادتهم؟

٣٤ ـ وحقًا ينبغي علينا أن نعينها في غسل الشوائب التي حملتها من هناك، لتقدر على الخروج خفيفة نقية إلى الدوائر ذات النجوم.

٣٧ ـ "آه، فلتخلصك العدالة والرحمة من حملك سريعًا، حتى يمكنك أن تبسط جناحيك كي يصعدا بك كما ترغب.

٤٠ ـ فهلا ترينا في أي جانب يوجد أقصر طريق صوب السلم؛ وإذا وجد أكثر من طريق فلتدلنا على أقلها انحدارًا.

٤٣ ـ إذ أن هذا الذي يجئ معي بطئ، على رغم إرادته، في الصعود أعلى ـ بحمل ما يرتديه من جسد آدم".

٤٦ ـ لم يكن واضحًا عمن صدرت هذه الكلمات، التي أجيب بها عما تحدث به ذاك الذي كنت أتابع خطاه.

٤٩ ـ ولكنني سمعت: "تعاليا معنا إلى اليمين فوق الحافة، وستجدان الطريق الذي يمكن أن يرتقبه إنسان حي.

٥٢ ـ ولو لم تعوقني الصخرة التي تخضع رقبتي المتغطرسة ـ إذ تقتضيني أن أظل مطأطئ الرأس.

٥٥ ـ لنظرت إلى من لا يزال حيًا ولا يذكر اسمه، لكي أري هل أعرفه وأثير بهذا الثقل شفقته علي.

٥٨ ـ لقد كنت لاتينيًا وابنًا لتسكاني عظيم وكان أبي يدعي جوبليو ألدوبراندسكي؛ ولست أدري إذا كان اسمه قد ذكر بينكم أبدًا.

٦١ ـ وإن دم أسلافي ومآثر أسرتي قد جعلتني متغطرسًا ـ وبدون أن أفكر في أمنا المشتركة.

٦٤ ـ أمعنت في ازدراء سائر البشر، حتى كان في ذلك موتي، وكما يعرفه أهل سيينا ويعرفه كل طفل في كامبانياتيكو.

٦٧ ـ إنني أومبرتو؛ ولم تجلب الكبرياء الضر على وحدي، إذ ساقت معها إلى الكارثة أقربائي جميعًا.

٧٠ ـ وبسببها ينبغي على أن أحمل هذا الثقل، حتى أؤدي التكفير لله هنا في عالم الموتي، ما دمت لم أؤده وأنا في عداد الأحياء".

٧٣ ـ وبينما كنت مصغيًا إليه أطرقت رأسي إلى الأرض، وانحنى أحدهم تحت العبء الذي يثقله ـ ولم يكن هو ذاك الذي تكلم ـ

٧٦ ـ ورآني، وعرفني، وأخذ يناديني، وبذل جهدًا كبيرًا لكي يثبت عينيه على، ويمضي مع رفاقه سائرًا وقد تقوس ظهره.

٧٩ ـ فقلت له "آه، أولست أنت أوديريزي، فخر جوبيو ومجد ذلك الفن، الذي يسمي في باريزي فن زخرفة الكتب؟".

٨٢ ـ فقال "يا أخي، إن الصفحات لتزداد إشراقًا، بلمسات من ريشة فرانكو البولوني: فله الآن كل الفخر، ولي منه جانب.

٨٥ ـ وفي الحق ما كان ينبغي أن أكون رجلاً لطيف المعشر، وأنا في الحياة الدنيا، بما تملك قلبي من الرغبة العارمة في أن أكسب قصب السبق.

٨٨ ـ ولمثل هذه الكبرياء يؤدي هنا الجزاء؛ وما كان لي أن أوجد هنا، إذا لم أكن قد اتجهت إلى الله، وأنا قادر على ارتكاب المعصية.

٩١ ـ أيها المجد الباطل لمناشط البشر؛ ما أقصر الوقت الذي تظل فيه هامتك مكللة بالخضرة ـ ما لم تلاحقه عصور الظلام!

٩٤ ـ لقد اعتقد تشيمابوي أنه في فن الرسم راسخ القدم، ولكن الصيحة الآن لجوتو، حتى لقد أظلمت شهرة الأول.

٩٧ ـ وهكذا انتزع أحد الجويديين مجد اللغة من الآخر؛ وربما ولد من سيطردهما من العش معًا.

١٠٠ ـ وما الشهرة في الأرض إلا كنفثة ريح تهب هنا تارة وطورًا هناك، وتغير اسمها إذ تغير جانبها.

١٠٣ ـ وإذا ما انتزعت الشيخوخة منك الجسد، أو إذا مت وأنت لا تزال تتفوه بلفظ "مامه" و"إش" ـ ففي أي ـ الحالين ستكون أعلى صيتًا.

١٠٦ ـ قبل أن تنقضي ألف سنة ـ والتي هي أما الأبدية أقصر من طرفة عين، بالموازنة بأبطأ دائرة تدور في رحاب السماء؟

١٠٩ ـ وإن من يسير أمامي بطئ الخطو، جلجلت بذكره كل أرجاء تسكانا، والآن يندر أن يهمس باسمه في سيينا.

١١٢ ـ حيث كان فيها سيداً، حينما قضي على الغضب الفلورنسي، الذي كان متغطرساً في ذلك الزمان كما هو الآن داعر.

١١٥ ـ وما صيتكم إلا كلون العشب الذي يجئ ويروح، وتمحوه تلك التي تخرجه من الأرض طريًا".

١١٨ ـ فقلت له "إن قولك الحق يملأ قلبي تواضعًا جميلاً، ويهبط بغطرستي الجوفاء: ولكن من ذا الذي كنت تتكلم عنه الآن؟".

١٢١ ـ فأجاب "إنه بروفنتزان سالفاني؛ وهو هنا لأنه كان مدعيًا في محاولته أن يضع بين قبضتيه سيينا بأسرها.

١٢٤ ـ لقد سار على هذا المنوال، ولا يزال يسير منذ موته بدون توقف: وهذا هو الثمن الذي يؤديه مكفرًا، من يجترئ هناك على الكثير".

١٢٧ ـ فقلت "إذا كان ذلك الروح الذي ينتظر حتى ختام حياته لكي يندم ـ يقدر عليه البقاء هناك في أسفل ولا يصعد هنا في أعلى.

١٣٠ ـ إذا لم تعنه صلاة طيبة ـ ويظل هناك حتى ينقضي زمان يعدل سنوات عمره ـ فكيف أتيح له المجئ هاهنا؟".

١٣٣ ـ فقال لي "حينما كان يعيش في قمة مجده، لزم باختياره ميدان سيينا، بدون أن يعزو التفاتًا للخجل.

١٣٦ ـ ولكي يحرر صديقه من العذاب الذي عاناه في سجن شارل، وقف هناك وقد ارتجف فيه كل شريان.

١٣٩ ـ ولن أقول مزيداً، وإني لعارف أني أتكلم في غموض، ولكن لن يمضي وقت قليل حتى يفعل جيرانك ما يجعلك قادراً على أن تفقه قولي.

١٤٢ ـ فقد خاصه هذا الفعل الحميد من ذالك المحبس".

***



الأنشودة
12

كان دانتي يسير إلى جانب أوديريزي ولكنه ابتعد عنه حينما دعاه فرجيليو إلى أن يسرع الخطي ورأي دانتي نحتًا دقيق الصنع محفورًا على الأرض يشبه ما يوجد فوق أغطية القبور، فرأي لوتشيفيرو منحوتًا وهو يهبط من السماء كأنه البرق، وشهد بریاروس ممدداً بثقله على الأرض، ورأي تيمبريوس وبالالس ومارس مجتمعين حول جوبيتر، وشهد نمرود عند أسفل برج بابل، وإنيوبي بين أبنائها وبناتها الموتي، وشاؤل ميتًا فوق سيفه، وأراكنا وهي نصف عنكب، و رحبعان تحمله عربة دون أن يطارده أحد، و ألكمايون وإريفولي، ورأي أبناء سنخاريب فوق أبيهم في الهيكلن وتاميريس التي قتلت قورش، وأوليفانا الذي قتله يهوديت، وشهد طروادة وقد دمرتها النيران وكانت هذه كلها صور لما ناله المتكبرون من العقاب، وكانت دقيقة الصنع حتى بدت كأنها الواقع الذي حدث في الماضي وكان دانتي يسير وهو مشغول الخاطر حينما دعاه فرجيليو أن يرفع رأسه ولفت نظره إلى ملاك السماء الذي جاء متشحًا بالبياض، وبدا كنجمة الصبح وهي تتلألأ بسط الملاك جناحيه ودعا الشاعرين إلى الصعود أعلى، وندد بضلال الناس أمام مجد الدنيا الزائف، وضرب بجناحيه جبهة دانتي ووحد دانتي الطريق يقل انحداره، كالطريق الذي يؤدي إلى كنيسة سان مينياتو التي تشرف على فلورنسا، المدينة التي أحسن قيادها! وسمع دانتي الملاك يرتل بصوت عذب أبياتًا من الكتاب المقدس، وأحس في صعوده أنه أصبح أخف وزنًا، فاستوضح فرجيليو الأمر، فأفاده بأن هذا يرجع إلى زوال خطيئة الكبرياء عنه، فتحسس دانتي جبهته بأصابعه فأدرك أن علامة الكبرياء قد محيت، وابتسم فرجيليو دليل الرضا.

١ ـ أخذت أسير جنبًا إلى جنب مع تلك النفس المثقلة بحملها، كثورين يسيران تحت وطأة النير، بقدر ما أتاح لي مر بي الحبيب.

٤ ـ ولكن حينما قال لي "دعهم وشأنهم وامض قدمًا، فمن الخير هنا أن يدفع كل منا سفينته بالشراع والمجاذفين ـ جهد ما يستطيع ـ".

٧ ـ مددت قامتي ثانيًا كما تقتضيه طبيعة السير، ولو أن أفكاري ظلت تساورها بوادر الخور والضعة.

١٠ ـ وتقدمت، وتبعت خطي أستاذي عن طيب خاطر، وكان كل منا قد أبدي كيف صرنا خفيفين.

١٣ ـ وقال لي "اتجه بعينيك إلى أسفل، وسيكون من الخير لك أن تنظر إلى موطئ قدميك لكي تيسر طريقك".

١٦ ـ وكما تحمل لوحات القبور فوق الراقدين فيها صورة ما كانوا عليه في حياتهم، حتى تحفظ ذكراهم.

١٩ ـ حيث يبكي عليهم بوخز الذكري، التي لا تحرك إلا ذوي القلوب العطوفة.

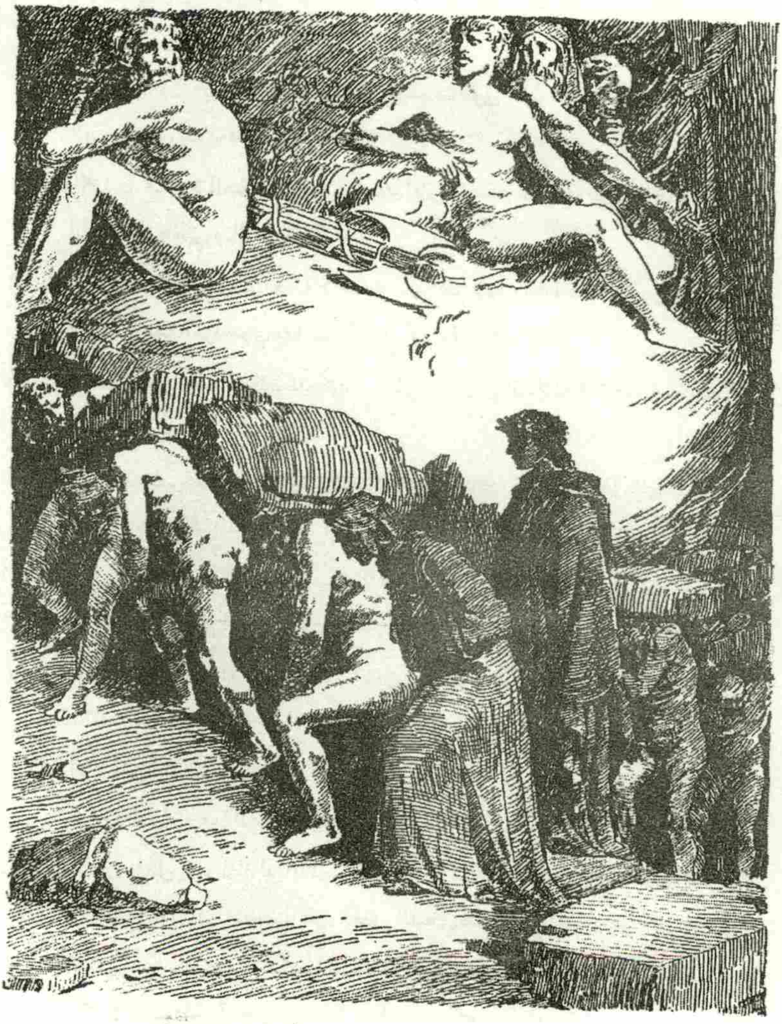
٢٢ ـ هكذا رأيت هناك رسومًا منحوتة، ولكنها تجلت بدقة صانعها على صورة أفضل، فوق كل الطريق الذي يبرز من جانب الجبل إلى الخارج.

٢٥ ـ رأيت ـ في جانب ـ ذلك الكائن الذي خلق ذا نبل يفوق سائر الكائنات ـ رأيته يهبط كالبرق من السماء إلى أسفل.

٢٨ ـ ورأيت ـ في الجانب الآخر ـ برياروس ـ وقد أصابته صاعقة سماوية، وتمدد ببرودة الموت ثقيلاً على الأرض.

٣١ ـ ورأيت تيمبريوس، ورأيت بالاس ومارس ـ ما زالوا يحملون سلاحهم، وقد اجتمعوا حول أبيهم وتطلعوا إلى أشلاء المردة المتناثرة.

٣٤ ـ ورأيت نمرود كالمشدوه عند أسفل برجه الشاهق، ينظر إلى القوم الذين شاركوه غطرسته في شنعار.



المتغطرسون يتطهرون بحمل الأحجار الثقيلة

٣٧ - أيا إنيوبي، بأية عينين والهتين رأيت صورتك محفورة على الطريق، بين سبعة وسبعة من أطفالك الصرعى!

٤٠ - أيا شاول، إنك بدوت هنا ميتًا كما بدوت فوق ذات سيفك في جبل جلبوع، الذي لم يعرف بعد مطرًا ولا طلا!

٤٣ - أراكنا يا فاقدة العقل، لقد شهدتك الآن نصف عنكب، بين مزقات النسيج الذي صنع لكي ينالك منه الويل.

٤٦ - لا رحبعام، إن صورتك هنا لا يبدو أنها في تهديدها ماضية، ولكنها تبدو بالرعب مليئة، وتجري بها عربة دون أن يطاردها أحد.

٤٩ - وكذلك أظهر الممشي الصلد كيف جعل ألكمايون القلادة المشؤومة - تبدو لأمه باهظة الثمن.

٥٢ - وأبدي المشي كيف ألقي الأبناء بأنفسهم فوق سنخاريب داخل الهيكل - وكيف تركوه صريعًا هنالك.

٥٥ - وأظهر الدمار والقتل الوحشي اللذين قامت بهما تاميريس، حينما قالت لقورش "إنك إلى الدم عطش وإنني بالدم أفعمك".

٥٨ - وأبدي كيف هرب الأشوريون مهزمين بعد موت أوليفانا، وأظهر آثار اغتياله كذلك.

٦١ - ورأيت طروادة قد صارت رمادًا وخرابًا: فيا إليوم - كيف بدوت على حال من المذلة والهوان، في الصورة التي تشاهد هناك!

٦٤ - أي فنان حمل الفرشاة أو القلم، استطاع أن يرسم الخطوط والظلال التي كان من شأنها أن تثير العجب، في العقل الدهي هناك؟

٦٧ - فالموتي بدوا موتي والأحياء أحياء وإن من شهد الأحداث، لم ير خيرًا مما رأيته عند موطئ قدمي، بينما كنت أسير منحني الظهر.

٧٠ - فلتتكبروا الآن ولتسيروا شامخين أنوفكم - يا أبناء حواء، ولا تخفضوا وجوهكم لكي تتبينوا ما تسلكونه من سبل الشر!

٧٣ ـ كنا قد مضينا في سيرنا حول الجبل، وكانت الشمس قد قطعت شوطًا أبعد مما قدره خاطري المشغول.

٧٦ ـ حينما بدأ يقول ـ من كان يسير أمامي وهو حاضر البديهة دومًا؛ "إرفع رأسك؛ إذ لم يعد هناك وقت لكي تسير مشغول الخاطر.

٧٩ ـ ولتنظر هناك إلى ملاك يتأهب للمجئ نحونا؛ وانظر كيف تعود الوصيفة السادسة من عملها اليومي.

٨٢ ـ ولتزين بالوقار طلعتك وفعالك، حتى يروق له أن يبعثنا إلى أعلى؛ ولتفكر في أن هذا النهار لن يشرق بعد أبدًا!".

٨٥ ـ وكنت قد اعتدت تنبيهه لي ألا أضيع الوقت أبدًا، حتى لم يعد يمكنه أن يحدثني بطريقة خفية في هذا الشأن.

٨٨ ـ وإلينا جاء الكائن الجميل بالبياض متشحًا، وبدا بوجهه كنجمة الصبح وهي تتلألأ.

٩١ ـ ومد ذراعيه ثم بسط جناحيه؛ وقال "هيا أقبلا فالسلالم هنا قريبة، ومن السهل صعود كما عليها الآن.

٩٤ ـ وقلائل جدًا من يلبون هذا النداء أيها الجنس البشري ـ الذي ولدت لكي تطير إلى العلياء ـ لم تهوي هكذا أمام قبضة من الريح؟".

٩٧ ـ وقادنا إلى حيث تكسر الصخر: وهنا ضربني على جبهتي بجناحيه، ثم وعدني برحلة آمنة.

١٠٠ ـ وكما إلى اليمين (عند ارتقاء الجبل، حيث تستوي الكنيسة التي تسيطر من وراء جسر روباكونتي على المدينة التي حسن قيادها).

١٠٣ ـ ينكسر هناك المرتقي الشديد المنحدر، بالدرجات التي صنعت في عصر أمن فيه السجل والميكال.

١٠٦ ـ هكذا يعتدل ميل الشاطئ الذي ينحدر هنالك بشدة من الدائرة الأخرى؛ ولكن الصخر العالي أحدق بكلا الجانبين.

١٠٩ ـ وفيما كنا نتجه بخطواتنا هنالك، سمعت أصواتًا ترتل "طوبي للمساكين بالروح" ـ بعذوبة لا يفصح عنها بيان.

١١٢ ـ أواه، كيف تختلف هذه المداخل عن أبواب الجحيم إذ يتم الدخول هنا بمصاحبة الأناشيد، ويتم هناك في أسفل بالعويل الوحشي.

١١٥ ـ وكنا قد أخذنا نصعد على الدرجات المقدسة، وتراءي لي أني أصبحت أخف كثيرًا مما بدوت من قبل في رحاب السهل.

١١٨ ـ قلت عندئذ "خبرني أستاذي، أي شيء ثقيل أزيح عن كاهلي، حتى لا يكاد ينالني عند المسير عناء؟".

١٢١ ـ فأجاب: "حينما تزول تمامًا "الخاءات" التي لا تزال باقية على جبينك ـ كما زالت عنك إحداها.

١٢٤ ـ ستسيطر إرادتك الطيبة على قدميك، بحيث لن يقتصر الأمر على أنهما لن تشعرا بالتعب، بل ستكون بهجتهما في أن تدفعا صعدًا".

١٢٧ ـ وعندئذ أصبحت كمن يسيرون وعلى رؤوسهم شيء لا يدركونه إلا بإشارات من غيرهم، تثير بشأنه الشك لديهم.

١٣٠ ـ ولذا تعاونهم أيديهم على أن يستوثقوا، وتتحسس وتجد، وتؤدي ذلك العمل الذي لا يمكن أن تؤديه أعينهم.

١٣٣ ـ وبالأصابع الممتدة من بمناي، لم أجد سوي ستة من الأحرف التي رسمها حامل المفتاحين على جبيني.

١٣٦ ـ وابتسم دليلي حينما نظر إلى.

***

الأنشودة
13

صعد الشاعران إلى الإفريز الثاني الذي بدا قفرًا وفي لون الصخر الداكن رمز الحقد والحسد واهتدي فرجيليو بحركة الشمس ونورها واستعان بها في سيره، وسمع دانتي أرواحًا تنطق بدعوات رقيقة إلى مائدة المحبة ـ التي تمحو الحسد ـ وتمثلت بأقوال ماريا وأوريستس والمسيح. وأمعن دانتي النظر فرأي أشباحًا بعباءات في لون الحجر، وأخذه الإشفاق عليها حتى ذرف الدمع الغزير، وكانوا كالعميان الذين يقفون أمام الكنائس يطلبون الإحسان وقد مال كل منهم برأسه على الآخر ليستدروا الرحمة بكلامهم وهيئتهم، وكانوا عاجزين عن رؤية النور؛ لأن أعينهم أغلقت بأسلاك من حديد كما يصنع بالباز البري الذي لا يهدأ بالا. وشعر دانتي أنه يسيء إلى هؤلاء العميان إذ يسير بينهم ويراهم وهم لا يرونه، فأدرك فرجيليو ما يدور بخاطره وحفزه على الكلام دعا دانتي لهؤلاء بأن يبدد الله زبد ضمائرهم لكي تصفو ذاكرتهم، وسألهم أيوجد بينهم واحد من اللاتين ورأي دانتي شبحًا رافعًا ذقنه كشخص أعمي، وكان ذلك شبح سابيا اليينية التي اعترفت له بأنها لم تكن حكيمة حينما فرحت بمصائب الآخرين أكثر من فرحها بمباهجها هي، وقالت إنها ابتهلت إلى الله أن يحقق إرادته حتى يخسر مواطنوها معركة كولي، وحينما رأتهم يولون الأدبار أخذتها بهجة لا تدانيها بهجة، ثم اتجهت إلى التوبة في آخريات أيامها وسألت دانتي عن شخصه بعد أن عرفت أنه إنسان حي واعترف دانتي بأنه لم يرتكب الحسد إلا قليلاً، وأنه يخاف عذاب المتكبرين في الإفريز الأول وأبدي استعداده لأن يؤدي لسابيا ما تطلبه، فسألته أن يعيها بصلاته وأن يحمل ذكراها الحسنة إلى أهلها المتغطرسين.

١ ـ كنا قد بلغنا ذروة السلم، حيث ينحسر من جديد الجبل الذي يخلص الناس من المعصية بارتقاء درجاته.

٤ ـ وهناك إفريز يدور حول الجبل ـ كالإفريز الأول ـ ، سوي أن قوسه ينحني بصورة أكبر.

٧ ـ وما من روح يري به ولا صورة تنظر؛ ويبدو كل من الجبل والطريق عاريين وفي لون الصخر الداكن.

١٠ ـ قال الشاعر "إذا نحن انتظرنا قومًا لنسألهم، فأخشي أن يتعطل اختيارنا للطريق طويلاً".

١٣ ـ ثم ثبت على الشمس عينيه؛ وجعل من جنبه الأيمن لحركته محورًا، واستدار بالجنب الأيسر من جسمه.

١٦ ـ وقال "أيها النور المبارك، الذي أدخل في رعايته الطريق الجديدة، امض بنا كما يقتضيه السير هنا بالداخل.

١٩ ـ إنك تدفئ الدنيا وتشع عليها بضيائك: وينبغي أن تكون أنوارك دلائلنا أبدًا، إذا لم يدع سبب آخر إلى العكس".

٢٢ ـ وإن ما نحسبه هنا بمسافة ميل، كنا قد قطعناه هناك في وقت قصير، بالرغبة الملحة التي تملكتنا.

٢٥ ـ وسمعنا حفيف أرواح تطير نحونا بدون أن نراها، وأخذت تهتف بنداءاتها الرقيقة إلى مائدة المحبة.

٢٨ ـ وقال عاليًا أول صوت مر بنا في طيرانه "ليس لهم خمر"، ثم مضي من خلفنا وهو يردد قوله.

٣١ ـ وقبل أن ننقطع تمامًا عن سماع كلماته ببعده عنا، مر بنا صوت آخر يصيح قائلاً "إنني أوريستس"، ولم يتوقف هو كذلك.

٣٤ ـ فقلت "أواه، أية أصوات هذه يا أبتاه؟". وفيما كنت أسأله إذا بصوت ثالث "يقول أحبوا من نالكم منهم الضر".

٣٧ ـ فقال معلمي الطيب "بالسوط تلهب هذه الدائرة خطيئة الحسد، ولذا فإن أهدابه مستمدة من المحبة.

٤٠ ـ وينبغي أن يكون الرادع من نغمة مغايرة: وفي رأيي ـ أنك ستسمعها كما أتصور ـ قبل أن تبلغ طريق الغفران.

٤٣ ـ ولكن فلتثبت بصرك بانتباه عبر الهواء، وستري أمامنا قومًا جلوسًا، وقد ارتكز كل منهم على طول الصخر".

٤٦ ـ حينئذ حملقت بعيني أكثر من ذي قبل؛ ونظرت أمامي، فرأيت أشباحًا تسربلت بعباءات لا يختلف لونها عن لون الصخر.

٤٩ ـ وبعد أن مضينا إلى الإمام قليلاً، سمعتهم يصيحون "صلي من أجلنا يا ماريا!"؛ وسمعت صيحات تنادي "ميكائيل" و"بطرس" و"جميع القديسين".

٥٢ ـ لا أظن أن إنسانًا يسير حتى اليوم فوق الأرض، تبلغ به القسوة حدًا لا يطعن عنده الآسي قلبه ـ بما رأيته حينئذ.

٥٥ ـ إذ أني حينما أصبحت شديد القرب إليهم، بحيث تبينت أوضاعهم جلية، انهمر مرير الآسي من عيني هتونًا.

٥٨ ـ وبدوا لي أنهم تغطوا بقماش صنع من خشن الشعر، وتحامل كل منهم على كتف الآخر، واحتمل الصخر ثقلهم جميعًا.

٦١ ـ وكالعميان الذين يعوزهم القوت فيقفون في أيام الغفران ليسألوا حاجتهم، وقد مال كل منهم برأسه على الآخر.

٦٤ ـ لكي يسارع إلى إثارة الشفقة في قلوب الناس، لا برنين كلماته وحدها، بل بنظراته التي هي ليست أقل تأثيرًا.

٦٧ ـ وكما لا يبلغ نور الشمس أعين العميان، كذلك يأبي هنا نور السماء أن يبسط ظله على الأشباح التي تكلمت عنها الآن.

٧٠ ـ إذ أن سلكًا من حديد يخترق أجفانهم جميعًا ويحيكها، كما يصنع بالباز البري إذ لا يهدأ بالاً.

٧٣ ـ وفي مسيري بدا لي أني أهيهم، حينما كنت أراهم بدون قدرتهم على أن يروني: ولذا اتجهت إلى ناصحي الحكيم.

٧٦ ـ ولكنه أدرك ما أردت بصمتي أن أقوله: ولذلك لم ينتظر أن أتجه إليه بسؤالي، بل قال "تكلم، وجن موجزًا والزم موضوعك".

٧٩ ـ وجاءني فرجيليو من ذلك الجانب من الإفريز الذي يسهل فيه تعرض الإنسان للسقوط، إذ لا يحيط به سور.

٨٢ ـ وفي جانبي الآخر وقفت أشباح المتضعين، الذين بكوا بمرارة خلال حياكة أعينهم الرهيبة، حتى أخضلت خدودهم بالدمع.

٨٥ ـ واتجهت إليهم وبدأت "أيها القوم الواثقون من مشاهدة الأنوار العلوية، التي هي وحدها ما تتشوقون إليها.

٨٨ ـ ألا فلتبدد النعمة الإلهية زبد ضمائرهم سريعًا، حتى يسيل مجري ذاكرتكم صافيًا خلالها.

٩١ ـ فلتخبروني ـ إذ سيكون هذا مقبولاً لدي وعزيزًا ـ أتوجد هنا بينكم روح من اللاتين؛ فقد يكون من الخير لها أن أعرف ذلك".

٩٤ ـ "يا أخي، إننا هنا جميعًا مواطنون من المدينة الحقة؛ ولكنك تعني بسؤالك من عاش في إيطاليا غريبًا".

٩٧ ـ بدا لي أني أسمع هذا الجواب من روح تتقدم قليلاً عن الموضع الذي كنت واقفًا عليه، ولذا جعلت صوتي مسموعًا أقرب إليهما.

١٠٠ ـ ومن بين الآخرين رأيت روحًا بدت عليها أمارات الترقب؛ ولو رغب أحد أن يسألني "كيف"؟ لقلت إنها كانت مرفوعة الرأس بهيئة المكفوف.

١٠٣ ـ قلت "أيتها الروح التي تروضين نفسك لكي تصعدي أعلى، إذا كنت أنت من توجهت إلى بالجواب، فعرفيني بشخصك بذكر اسمك أو بلدك".

١٠٦ ـ فأجابتني "كنت سيينية، وإني أتطهر هنا مع هؤلاء القوم من حياتي الآثمة، وإننا لنذرف الدمع إلى من نأمل أن يعيرنا نفسه.

١٠٩ ـ ولم أكن حكيمة مع أني دعيت باسم سابيا، وبإزراء الآخرين كنت أشد ابتهاجًا مما كنت بحظي السعيد.

١١٢ ـ ولكيلا تظن إني أخدعك، فلتتبين ـ فيما أ نا أحدثك ـ أكنت قد جن جنوني ـ حينما آذن قوس عمري بالنزول.

١١٥ ـ كان أهل موطني قد خاضوا المعركة مع أعدائهم، على مقربة من كولي، فأخذت أصلي الله من أجل ما تجلت فيه مشيئته.

١١٨ ـ وهناك منوا بالهزيمة وردوا إلى خطي الهرب المرير؛ وبينما كنت أشهد مطاردتهم أخذتني بهجة منقطعة النظير.

١٢١ ـ حتى اتجهت إلى أعلى بوجهي المجترئ رافعة عقيرتي على الله وقلت "لم أعد أخشى بأسك الآن! ـ كما يفعل الشحرور بسنوح بارقة من إشراق السماء.

١٢٤ ـ ولما أشرفت على ختام حياتي أردت أن أعقد السلام مع الله، ولكن ما كان ديني لينقص بعد بالندم.

١٢٧ ـ لو لم يحدث أن تذكرني بطرس المشاط في صلواته المقدسة، الذي تآسى على حالي رحمة بي.

١٣٠ ـ ولكن من أنت الذي تسير مستفسرًا عن حالنا ـ بعينين مفتوحتين ـ أعتقد ـ وتتكلم بينا تردد أنفاسك؟".

١٣٣ ـ فقتل "إنني سأحرم هنا من عيني، ولكن لفترة قصيرة، إذ قل ما ارتكبتاه من المعاصي بنظرة الحسد.

١٣٦ ـ وإن خوفًا أشد منه وطأة يجعلني معلق النفس، ألا وهو الخوف من العذاب في أسفل، إذ لا تزال تثقلني أحمالهم هناك تحت.

١٣٩ ـ فقالت لي "إذًا من الذي جاء بك هنا بيننا فوق، ما دمت تعتقد أنك ستعود إلى أسفل؟" فقلت "إنه ذلك الذي هو معي ولا ينطق بكلمة.

١٤٢ ـ وإني لإنسان حي؛ ولذا فلتسأليني أيتها لروح المختارة ـ إذا كنت تريدين أن أحرك بعد في سبيلك قدمي الفانيتين ـ في عالم الأرض".

١٤٥ ـ فأجابت "آه، هذا شيء جديد على سمعي، وإنه لدليل عظيم على أنك حبيب الله؛ ولذا فلتعني بصلواتك أحيانًا.

١٤٨ ـ وإني لأسألك باسم ما أنت شديد الشوق إليه، إذا وطئت يومًا أرض تسكانا، أن تعيد ذكراي الحسنة لدي أقربائي.

١٥١ ـ إنك ستراهم بين أولئك القوم المزهوين، الذين يحدوهم الأمل في تالاموني، وسيفقدون هناك أملا أكبر مما راودهم في العثور على نهر ديانا.

١٥٤ ـ ولكن أمراء البحر سيمنون هناك بأفدح خسارة.

***

الأنشودة
14

سمع دانتي روحين تتكلمان عنه إذ جاء إلى المطهر حيًا، وكان الأول هو جويدو دل دوكا والثاني رينييري دا كلبولي وسأله جويدو عن شخصه ومن أين جاء، فأجابه بأنه أتي من ضفتي نهر ينساب وسط تسكانا (ويقصد نهر الأرنو). وتساءل رينييري لم أخفي دانتي اسم النهر، فتكلم جويدو نيابة عنه وذكر كيف ينحدر النهر، وكيف يطارد الناس الفضيلة على ضفتيه، وقال إن النهر يجد على جانبيه خنازير قبيحة (أهل كازنتينو)، ثم يلقي كلابًا تنبح بما يزيد عن طاقتها (أهل أريتزو)، ثم تصبح الكلاب ذئابًا (أهل فلورنسا)، وفي انحداره يجد الثعالب المليئة بالغدر (أهل بيزا)، ويقول إن من خير هذا الرجل (أي دانتي) أن يذكر بعد ما يكشف عنه الروح الحق. وقال جويدو: إن حفيد رينييري (فولتشييري) سيصيد الذئاب على ضفة النهر الوحشي (الأرنو)، وسيبيع أجساد الفلورنسيين وهم على قيد الحياة، وسيخرج ملطخًا بالدم من الغابة الحزينة التي لن تستعيد أشجارها المزدهرة بعد ألف سنة، وفي أثناء ذلك تولي رينييري الحزن والاضطراب. وتأثر دانتي بهذا الموقف فرجاهما أن يفصحا له عن اسميهما فأفصح جويدو دل دوكا عن اسمه وقال عن الحقد ملأ قلبه، حتى إنه كان يكفهر لرؤية غيره سعيدًا، وأفصح عن اسم رينييري دا كالبولي الذي كان زينًا لأسرته، ولكن لم يرثه من هو في شمائله. وذكر أن المنطقة الواقعة بين البو والأبثنين والبحر الأدرياني ونهر الرينو مليئة ببراعم سامة فات الأوان لاقتلاعها حتى تزرع الأرض. وتساءل قائلاً أين خيرة الرجال مثل أريجو ماناردي وبيير ترافرساري وبرناردينو دي فوسكو وفيدريجو تينيوزو... وسأل التسكاني (أي دانتي) أن يذهب عنه لأن البكاء يلذ له أكثر من الكلام وسار دانتي وفرجيليو، وسمعا أصوات بعض من ينالون

العقاب لكي يتطهروا من الحسد وختم فرجيليو الموقف بالتنديد بالبشر الذين يتطلعون إلى الأرض دون السماء فيأخذهم الله بالعذاب الأليم.

١ ـ من ذا الذي يطوف حول جبلنا، ويفتح عينيه ويغلقهما كما يشاء ـ قبل أن يهبه الموت نعمة الطيران؟".

٤ ـ "لا أدري من يكون، ولكني أعرف أنه ليس وحيداً: سله أنت عن ذلك ما دمت أقرب إليه، ولتلقه بالترحاب حتى يتكلم".

٧ ـ هكذا كان يتحدث عني روحان وقد استند أحدهما إلى الآخر، هناك إلى يمينين ثم رفعا وجهيهما لمخاطبتي.

١٠ ـ وقال أحدهما "أيتها النفس الصاعدة إلى السماء، وما زلت في جسدك مغمورة، ألا فلتواسينا رحمة بنا ولتخبرينا.

١٣ ـ من أين تأتين ومن تكونين؛ إذ أن ما منحتيه من النعمة ليثير فينا العجب، كما يتأتي من أمر لم يحدث من قبل أبداً".

١٦ ـ فقلت "في وسط تسكانا ينساب جدول، ينبع في فالتيرونا، ولا يملؤه مجرى يبلغ طوله مائة ميل.

١٩ ـ ومن ضفتيه، أحمل جسدي ومن العبث أن أخبرك من أكون إذ ما زلت رجلاً غير ذائع الصيت".

٢٢ ـ عندئذ أجابني ذاك الذي تكلم أولاً إذا كنت أسير بإدراكي غور كلامك، فإنك تتحدث عن نهر الأرنو".

٢٥ ـ وقال له الآخر "لم أخفي هذا الرجل اسم ذلك النهر، كما يفعل المرء حينما يتناول أموراً رهيبة؟".

٢٨ ـ وعبر الشبح الذي سئل عن ذلك بقوله "لست أدري؛ ولكن يجدر حقاً أن يزول اسم مثل ذلك الوادي.

٣١ ـ لأنه من منبعه ـ حيث يكون الجبل الذي ينفصل عنه بيلورس شاهق الارتفاع، حتى إنه لا يتجاوز إلا في مواضع قليلة ـ

٣٤ ـ لأنه من منبعه ـ إلى مصبه حيث يستعاض عما تجففه السماء من مياه البحر، وبذا تستمد منها الأنهار ما تحمله في مجاريها ـ

٣٧ ـ هناك يمعن الجميع في مطاردة الفضيلة على أنها عدو كالأفعي، إما لشؤم المكان أو بالعادات الخبيثة التي تحملهم على ذلك.

٤٠ ـ وبذلك تغيرت طباع أهل الوادي البئيس، حتى ليبدو أن تشيرتشي هي التي أطلقتهم إلى الرعي.

٤٣ ـ يتجه النهر لأول وهلة بمجراه الضئيل، بين خنازير قبيحة تناسبها ثمار البلوط أكثر من سائر الأطعمة المعدة لغذاء البشر.

٤٦ ـ ثم في انحداره إلى أسفل يجد كلابًا تعوي بما يزيد عن طاقتها، فيشيح عنها بوجهه المزدري.

٤٩ ـ ويمضي هابطًا؛ وكلما يزداد اتساعًا، يلقي الخندق البائس اللعين مزيدًا من الكلاب التي تستحيل ذئابًا.

٥٢ ـ وفي نزوله بعد خلال مهاو أعمق، يجد ثعالب بالغدر مفعمة، حتى لا تخشى أن تقع هي بذاتها للغدر ضحية.

٥٥ ـ ولن أكف عن الكلام ولو سمعني غيرك؛ وسيكون من الخير لهذا الرجل أن يذكر فيما بعد، ما يكشف لي عنه صادق الإلهام.

٥٨ ـ وإني لأري حفيدك يصبح صائدًا لتلك الذئاب على ضفة النهر العاتي، ويبعث الرعب في قلوبها جميعًا.

٦١ ـ وأراه يبيع أجسادها وهي لا تزال حية، ثم يقتلها كما يقتل الثور العجوز ومن الحياة يحرم الكثيرين ومن المجد يحرم نفسه.

٦٤ ـ ويخرج ملطخًا بالدم من الغابة الحزينة ويتركها بحيث لن يستعيد أشجارها ـ خلال ألف سنة ـ الحال التي كانت عليها من قبل".

٦٧ ـ وكما عند إعلان الأنباء الأليمة، يضطرب وجه من يصغي إليها، في أية ناحية ينشب الخطر أنيابه فيها.

٧٠ ـ هكذا رأيت الروح الآخر الذي كان قد اتجه لكي ينصت، رأيته يضطرب ويأخذه الآسي، بعد أن تلقي هذه الكلمات.

٧٣ ـ حديث أحدهما ومرأي الآخر جعلاني حريصًا على أن أعرف اسميهما، فوجهت إليهما سؤالي مقترنًا بالرجاء.

٧٦ ـ وعندئذ استأنف الروح الذي حدثني أولاً: "إنك تريد أن أحمل نفسي على أن أفعل في سبيلك، ما أنت راغب عن فعله في سبيلي.

٧٩ ـ ولكن لما كان الله يريد أن يشع في شخصك فيض نعمائه، فلن أكون عليك في شيء بخيلاً، ولذلك فلتعلم أني أدعي جويدو دل دوكا.

٨٢ ـ ولقد كان دي بنار الحقد يستعر، حتى كنت تراني مكفهر الوجه حينما أشهد إنسانًا يفيض بشرًا.

٨٥ ـ ومن زرعي أحصد مثل هذا القش: أيها البشر، لم تضعون قلوبكم حيث تمتنع المشاركة بالضرورة.

٨٨ ـ هو ذا رينييري؛ إنه زين وفخر لبيت كالبولي، حيث لم يرثه من بعده من هو في حسن شمائله.

٩١ ـ وفيما بين البو والجبل وفيما بين شاطئ البحر والرينو، ليس دمه وحده هو الذي أعوزه الخير الضروري للحياة الحقة وللعيش السعيد.

٩٤ ـ إذ أن ما بداخل هذه الحدود ملئ بالبراعم الشامة، حتى فات أوان تطهيرها لكي تزرع الآن.

٩٧ ـ أين ليتزيو الطيب وأريجو مانادري؟ وأين بيير ترافرسارو، وجويدو دي كاربينيا؟ آه منكم يا أهل رومانيا، يا من أصبحتم أنذالاً!

١٠٠ ـ متى يولد من جديد في بولونيا رجل مثل فابرو؟ ومتى يظهر في فاينتزا رجل كبرناردينو دي فوسكو ـ نبتًا نبيلاً من عشب مهين؟

١٠٣ ـ فلا تعجبن أيه التسكاني إذا ما بكيت، حينا أذكر جويدو دا براتا مقرونًا بأوجولينو داتزو، الذي عاش بين ظهرانينا.

١٠٦ ـ وحينما أذكر فيدريجو تينيوزو وصحبه، وبيت ترافسارا وآل أناستاجي (وقد صارت كل من أسرتيهما بدون عقب).

١٠٩ ـ والنساء والفرسان، والمتاعب والمباهج، التي أوحت إلينا بالمحبة والنبالة، حيث باتت القلوب الآن مفعمة بالشر.

١١٢ ـ أيا قرية إبرتينورو، لم لا تهربين بعيدًا، ما دامت أسرتك قد ولت وولي معها كثيرون، حتى لا ينال الفساد منهم منالاً؟

١١٥ ـ وحسنًا تصنع بانيًا كافال التي لا تنجب من الأبناء مزيدًا، وشرًا تفعل كاستروكارو، وتفعل كونيو أسوأ منها، إذ لا تزالان حريصتين على إنجاب مثل هؤلاء الكونتات.

١١٨ ـ وسيحسن آل باجاني صنعًا، بعد أن يذهب عنهم شيطانهم؛ ولكن لن تبقى لهم أبدًا عاطر الذكرى.

١٢١ ـ أيا أوجولينو دي فانتوليني، لقد صرت الآن مأمون السمعة، إذ لا يرتقب من يمكنه بمفاسده أن يحيلها إلى حلكة الإظلام.

١٢٤ ـ ولكن فلترحل عني الآن أيها التسكاني؛ إذ يبهجني الآن البكاء أكثر من الكلام، فلقد أحون حديثنا قلبي".

١٢٧ ـ وأدركنا أن هذه الأرواح العزيزة قد سمعت وقد أقدامنا ونحن نسير؛ ولذا جعلتنا بسكوتها آمنين في الطريق الذي سلكناه.

١٣٠ ـ وبعد أن صرنا وحيدين بتقدمنا في المسير، مرق قبالتنا دوي بدا كالبرق حينما يشق أجواز الفضاء، وأخذ صوت يقول.

١٣٣ ـ "كل من وجدني يقتلني"؛ وانحسر مدبرًا كالرعد الذي يذوي، إذ يشق فجأة طيات السحاب.

١٣٦ ـ وما إن أصبح ليسمعنا منه هدنة، إذا بنا نسمع دويًا آخر شديد التكسر، حتى بدا كالرعد الذي يتبع ومضي البرق توًا، وقال:

١٣٩ - "إنني أجلاوروس التي تحولت إلى حجر" ولكي ألتصق بشاعري خطوت عندئذ إلى اليمين لا إلى الأمام.

١٤٢ - وكان الهواء قد سكن في كل جانب، فقال بي عندئذ "كان هذا هو الزمام القاسي الذي كان عليه أن يحفظ الناس داخل حدودهم.

١٤٥ - ولكنكم تتناولون الطعم بحيث يجتذبكم عدوكم القديم إليه بحركة من خطافه؛ ولذا قال أن ينفعكم الآن عنان أو نداء.

١٤٨ - وإن السماء لتناديكم، وتدور من حولكم مبدية لكم كائناتها الأبدية الجميلة، ومع ذلك فلا تتطلع أعينكم إلا إلى الأرض.

١٥١ - ولذا يصب عليكم عذابه من هو بكل شيء عليم.

***

الأنشودة
15

بلغت الساعة الثالثة بعد ظهر يوم الاثنين ١١ أبريل سنة ١٣٠٠ حينما كان الشاعران يسيران صوب المغرب وواجهتهما أشعة الشمس، وأحس دانتي بضوء شديد أثقل جبهته فرفع يديه إلى حاجبيه ليخفف من حدة الضوء، ومع ذلك فقد انعكس النور على وجهه كما ينعكس شعاع من صفحة ماء أو من وجه مرآة، فسارع نظره إلى الانحراف عنه وأفاده فرجيليو بأن هذا رسول من السماء جاء يدعوهما إلى الصعود، وقد رحب بهما الملاك، وسمع دانتي ترتيل بعض أبيات من الكتاب المقدس. وتساءل دانتي عن بعض ما خفي عليه من كلام جويدو دل دوكا في الأنشودة السابقة فقال فرجيليو: إن الحرص على شئون الدنيا يولد الحسد، وبذلك يقل نصيب كل فرد في المشاركة في الخير، وذلك بعكس الاهتمام بشئون السماء الذي يزيد الخير لكل الناس، وإن الله يسارع إلى المحبة كما يتجه شعاع إلى جسم لامع، وبقدر ما تشيع المحبة يزيد الخير الأبدي، وكلما زاد عدد المتحابين زاد الخير وزادت المحبة، وقال إن بياتريتشي سوف تشرح فيما بعد ما لم يتضح له الآن وبلغ الشاعران الإفريز الثالث، وأخذت دانتي النشوة فرأي ثلاث رؤي، رأي العذراء ماريا تبحث عن المسيح حينما تخلف عنها في الهيكل، ورأي زوجة بسستراتوس طاغية أثينا تسأل زوجها الانتقام ممن عانق ابنتهما وقبلها علنًا، ولكنه رفض أن يعاقب من أحب ابنته، ورأي اليهود يرجمون القديس اسطفانوس وهو ينظر إلى السماء ويسأل الله أن يغفر لقتلته وعاد دانتي إلى وعيه فسأله فرجيليو ماذا به وقد سار وهو يترنح كمن يميل به النعاس أو يلعب بلبه الخمر، وقال له إنه يفهم خفايا نفسه وإنه حدثه ليحفزه على المسير وفي سيرهما رأي دانتي دخانًا أسود كالليل حجب عنه الرؤية والهواء النقي.

١ ـ وبال ـورة التي تبدو عليها الدائرة التي تتوثب دومًا كطفل يلهو، فيما بين بداية النهار، ونهاية ثالث ساعة منذ طلوعه.

٤ ـ هكذا بدا الآن ما كان على الشمس أن تقطعه في سيرها حتى يحل المساء؛ وكان هناك قد هبط المساء على حين كنا قد بلغنا هنا منتصف الليل.

٧ ـ وضربتنا أشعة الشمس في منتصف وجهينا، إذ كنا قد قمنا بالطواف حول الجبل، حتى أخذنا نسير رأسًا صوب المغرب.

١٠ ـ حينما أحسست أن جبهتي قد بهرها بهاء يفوق كثيرًا ما واجهني من قبل. وأثار عجبي أشياء لم يكن لي بها عهد.

١٣ ـ ولذا رفعت يدي إلى طرف حاجبي، وصنعت لنفسي مهما ظلاً يخفف عني من حدة الضوء.

١٦ ـ وكما عندما ينعكس شعاع من صفحة ماء أو من وجه مرآة إلى الجانب المقابل، ويصعد أعلى بطريقة تماثل.

١٩ ـ تلك التي يسقط بها، ويبعد بزاوية متساوية عن مسقط حجر، كما يظهره العلم والتجربة.

٢٢ ـ هكذا بدا لي أن قد صدمني نور انعكس أمامي هنالك، ولذا بادرت عيناي إلى تجنبه.

٢٥ ـ فقتل "أيها الأب الحبيب، ما ذلك الذي لا أقوى على أن أدرأ نظري منه كما أبتغي، ويبدو أنه يتقدم إلينا؟".

٢٨ ـ فأجابني "لا تعجب إذا كانت أسرة السماء لا تزال تبهرك: فما هو سزي رسول يأتي ليدعونا إلى الصعود.

٣١ ـ وسرعان ما ستكون رؤيتك هذه الكائنات أمرًا غير شديد الوطأة عليك، بل ستصبح لديك بهيجة، بقدر ما تهيئك طبيعتك للشعور بذلك".

٣٤ ـ وبعد أن صعدنا إلى الملاك المبارك، قال لنا بصوت سعيد: "فلتدخلا هنا على درجات سلم يقل انحدارها عن الأخرى كثيرًا".

٣٧ ـ وبعد أن ارتحلنا من هناك مضينا صعدًا، و سمعنا خلفنا ترتيلاً يردد؛ "طوبى للرحماء" و"تهلل أيها الظافر!".

٤٠ ـ وصعدنا إلى أعلى أستاذي وأنا، وكنا وحيدين كلانا؛ وفي صعودنا خطر لي أجنى بعض الثمر من كلماته.

٤٣ ـ فاتجهت إليه متسائلاً "ماذا يقصد ذلك الروح من رومانيا بقوله "الامتناع" و"المشاركة؟".

ـ وعندئذ قال لي "إنه يعرف ما يجره عيبه الأكبر على نفسه من الضرر؛ ولذا فلا تعجب إذا عنفنا عليه حتى يقل بكاؤنا بسببه.

٤ ـ ولما كانت رغباتكم تتركز حيث يقل نصيب الفرد بالمشاركة، فإن الحسد ينفخ في كير تنهدكم.

٥٢ ـ ولكن إذا اتجهت رغائبكم إلى أعلى بالمحبة الكائنة في أعلى الدوائر، فلن يستقر في صدوركم ذلك الخوف.

٥٥ ـ إذ كلما زاد هناك عدد من يقولون "متاعنا"، زاد ما يملكه كل فرد من الخير، واشتد اضطرام المحبة في ذلك الدير".

٥٨ ـ فقلت "إنني عن بلوغ مرتبة الرضا لأشد بعداً مما لو كنت قد لزمت الصمت من قبل، وأجمع في خاطري شكا أعظم.

٦١ ـ وكيف يمكن أن يوزع خير على مالكين عديدين، فيصبحون به أغنى مما لو امتلكه أناس أقل عدداً؟".

٦٤ ـ فأجابني "مادمت تركز فكرك في شئون الأرض فحسب، فإنك لا تستمد من نور الحقيقة سوى سرابيل الظلمة.

٦٧ ـ إذ أن ذلك الخير اللانهائي الذي يجل عن الوصف، ويستقر هناك في الأعالي، يسارع إلى المحبة، كما يجري شعاع من النور إلى الجسم اللامع.

٧٠ ـ ويبذل من نفسه بقدر ما يحسمن أوارها؛ حتى إنه كلما تشيع المحبة يجد الخير الأبدي سبيله لكي يربو عليها.

٧٣ ـ وكلما كثر المتجهون بمحبتهم إلى العلياء، نما الخير موضوع المحبة وزاد المتحابون، وكالمرآة عكس كل منهم محبته على الآخر.

٧٦ ـ وإذا كان حديثي لا يغني من جوعك، فإنك سوف تري بياتريتشي التي ستخلصك من هذه اللهفة ومن كل لهفة سواها.

٧٩ ـ وكما زال منك الآن جرحان، فلتحرص على أن تزول عنك سريعًا الجروح الخمسة، التي لا تلتئم إلا بالعذاب".

٨٢ ـ وحينما أوشكت أن أقول "إنك ترضيني"، رأيت أني قد بلغت الدائرة الأخرى، فحملتني عيناي المتطلعتان على السكوت.

٨٥ ـ وهناك بدا لي أن قد أخذتني فجأة رؤيا نشوانة، وإذا بي أري أشخاصًا عديدين مجتمعين في هيكل.

٨٨ ـ وسيدة عند مدخله تقول بهيئة الأم الرؤوم: "يا بني، لماذا فعلت بنا هكذا؟

٩١ ـ هو ذا أبوك وأنا كنا نطلبك ونحن يحدونا العذاب" وما إن لزمت الصمت حتى اختفي ما تراءي لي منذ هنيهة.

٩٤ ـ ثم تبدت لي سيدة غيرها، وقد اخضل خداها بالدمع الذي يقطره الآسي، حين يبعث في النفس بشدة الغضب.

٩٧ ـ وبدت تقول "إذا كنت سيدًا من المدينة التي قام على اسمها بين الآلهة خلال شديد، والتي تشع منها أنوار كل علم.

١٠٠ ـ فلتصب انتقامك يا بسستراتوس على هاتين الذراعين الفاجرتين اللتين عانقتا ابنتنا في العن". وبدا لي ذلك السيد الرفيق اللطيف.

١٠٣ ـ يجيبها بوجهه الوجيع "إذا نحن عاقبنا من يضمر لنا المحبة، فماذا نحن فاعلون بمن يرجو لنا الشر؟".

١٠٦ ـ ثم رأيت قومًا استشاطوا غضبًا يقتلون فتي بالحجارة رجمًا، ويصيحون في عنف بعضهم إلى بعض "ألا فلتقتل! ألا فلتقتل!".

١٠٩ ـ وإلى الأرض رأيته يتهاوي بالموت الذي كان قد أثقله، ولكنه جعل من عينيه دومًا بابين نحو السماء.

١١٢ ـ وفي كل ما انهال عليه أخذ يضرع إلى العلي القدير أن يغفر لقاتليه، بتلك النظرة التي تفتح باب الرحمة الإلهية.

١١٥ ـ وحينما ثابت إلى روحي من نشوتها، متجهة إلى ما هو ماثل أمامها في الواقع، تبينت عنصر الحقيقة في رؤاي.

١١٨ ـ وقال دليلي الذي أمكنه أن يراني كرجل ينضو عنه غشاوة النعاس "ماذا دهاك حتى لم تعد تملك زمام نفسك.

١٢١ ـ إذ أنك سرت أكثر من نصف فرسخ، وقد حجبت عينيك وتمايلت ساقاك، كمن يميل به النعاس أو بنت الحان؟".

١٢٤ ـ فقلت "إذا أصغيت إلى يا أبتاه الحبيب فأحدثك بما تراءي لي، حينما التوت ساقاي على هذا النحو".

١٢٧ ـ فقال لي "وإذا أنت حجبت وجهك بمائة قناع، فلن تخفي على أفكارك مهما كانت صغيرة الشأن.

١٣٠ ـ ولقد تبدي لك ما رأيته، حتى لا تجد لنفسك عذرًا في ألا تفتح قلبك لمياه السلام، التي تتدفق من النبع الأبدي.

١٣٣ ـ ولم أسأل "ماذا بك" كما يفعل من لا ينظر سوي بعينه التي تعوزها الرؤية، حينما يطرح جسدها بغير روح.

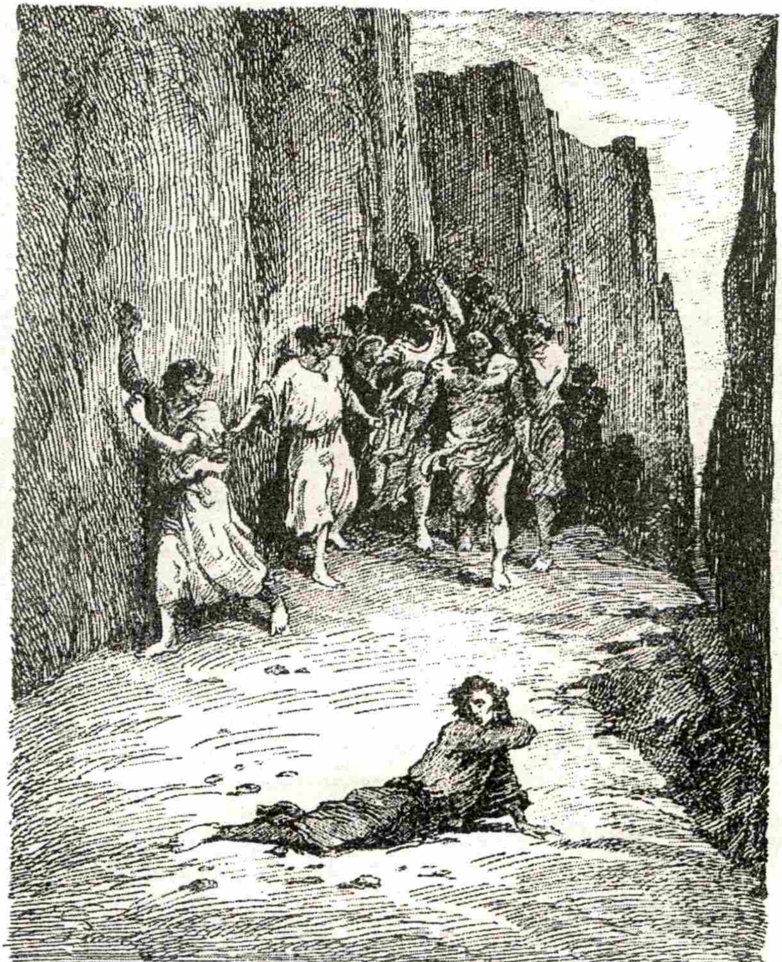
١٣٦ ـ بل سألتك لكي أستحثك على المسير؛ وهكذا ينبغي أن يحفز الكسالي، إذ يتراخون في استخدام يقظتهم حين تعود إليهم".

١٣٩ ـ وكنا نسير مساء متطلعين إلى الأمام بقدر ما أمكن أن تبلغه أعيننا، في مواجهة أشعة الغروب المتألقة.

١٤٢ ـ وها يأتي نحونا رويدًا رويدًا دخان في مثل سواد الليل؛ ولم يكلن لنا هناك من مأوي يهرب منه إليه.

١٤٥ ـ وقد حرمنا من الرؤية ومن الهواء الخالص.

***



رجم القديس إسطفانوس

الأنـشـودة
16

سار الشاعران وسط دخان أسود كثيف في ظلمة تشبه ظلمة الجحيم، ومضى دانتي وراء فرجيليو كما يمضي الرجل الكفيف خلف دليله وسمع دانتي أصوات المتطهرين ترتل طالبة الرحمة من حمل الله الذي يمحو خطايا البشر، وصدرت أصواتهم في نعمة واحدة وبتآلف تام سأل دانتي إحدى الأرواح أن تتبعه في المسير، وسألها الإفصاح عن شخصها واستفسر منها عن طريق السير، فأعلن ماركو لومباردو عن اسمه، وقال إنهما يسيران في الطريق الصحيح واستوضح دانتي ما ساوره من الشك حينما سمع حديث جويدو دل دوكا - في الأنشودة ١٤ - وكيف أن بعضًا يجعلون سبب فساد الدنيا راجعًا إلى السماء، على حين يجعله آخرون راجعًا إلى الأرض قال لومباردو إن هذا معناه إلغاء إرادة الإنسان، وقال إن السماء تبعث الحياة في الإنسان وتمنحه النور الذي يؤدي للخير أو للشر، وتمنحه الإرادة الحر التي تحتمل المشقة في أولي المعارك مع السماء، إذا حسن غذاؤها، وقال إن سبب الفساد في العالم قائم في الإنسان ذاته والنفس كالطفل الساذج تنخدع وتجري وراء ثروات الأرض التافهة إذا لم يمنعها دليل أو عنان، ولذلك كان من الضروري وضع القانون ووجود الحاكم العادل، ولا عبرة بالقانون وحده ولكن العبرة بمن يطبقه، والقوم الذين يرون دليلهم يجري وراء خيرات الأرض يحذون حذوه ولا يسألون مزيدًا وقال إن روما كانت ذات شمسين، البابا الذي ينير طريق الله، والإمبراطور الذي ينير طريق الدنيا، ثم أطفأ البابا نور الإمبراطور، واتحدت السلطتان في يد البابا فسار العالم في طريق الشر وذكر لومباردو أن أعالي إيطاليا كان يسكنها قوم أفاضل، ولكنها خلت منهم الآن، وأنه لا

يزال هناك ثلاثة شيوخ فضلاء، وأن الكنيسة تدنس في الوحل إذا خلطت في ذاتها بين السلطتين الدينية والزمنية وتحدث دانتي إلى ماركو لومباردو بالتقدير والإعزاز وأفاده بأنه فهم ما غمض عليه وارتحل لومباردو حينما رأي النور ينبعث وسط الدخان الأسود، الذي لا يحق به أن يتجاوزه في منطقة تطهره.

١ ـ ما من ظلمة جحيم ولا حلكة ليل اختفت فيه كل الكواكب ـ تحت سماء جرداء اشتد بالسحاب اسودادها.

٤ ـ صنعت لوجهي حجابًا كثيفًا ولا غطاء من شعر خشن الملمس ـ كما صنع ذلك الدخان الذي غمرنا هنالك.

٧ ـ إذ لم يدع لأعيننا سبيلاً إلى الرؤية؛ وعندئذ اقترب مني رفيقي الحكيم الأمين وأعارني كتفه.

١٠ ـ وكما يسير الأعمي وراء دليله حتى لا يضل طريقه، ولكيلا يصطدم بشيء يؤذيه أو ربما يقتله.

١٣ ـ هكذا سرت خلال الهواء المرير الخبيث، مصغيًا إلى دليلي الذي جعل يقول "حذار أن تنفصل عني".

١٦ ـ وسمعت أصواتًا، بدا لي أن كلا منها يضرع ـ باسم السلام والرحمة ـ سائلاً حمل الله أن يرفع خطايانا.

١٩ ـ وبدأوا صلاتهم جميعًا بقولهم: "يا حمل الله"؛ وصدر ذلك عن جملتهم من فم واحد وفي نغمة بذاتها، حتى بدا بينهم الانسجام الكامل.

٢٢ ـ فقلت "أأرواح تلك التي أسمعها يا أستاذي؟" فأجابني "إنك تدرك صوابًا؛ وإنهم يسيرون لكي يحلوا ما انتابهم من عقدة الغضب.

٢٥ ـ "والآن من أنت الذي تشق دخاننا، ولا تتكلم عنا إلى وكأنك لا تزال تحسب الزمن بغرة الشهر؟".

٢٨ ـ هكذا تحدث إلينا أحد الأصوات؛ وعندئذ قال أستاذي "فلتجب ولتسأله هل الصعود من هنا؟".

٣١ - فقلت "أيها المخلوق الذي تطهر نفسك لكي تعود إلى خالقك مجملاً - إذا أنت تبعتني فستسمع مني أمرًا عجبًا".

٣٤ - فأجابني "سأتبع خطاك كما يباح لي ذلك، وإذا منعنا الدخان من الرؤية، فسيحفظ السمع صلتنا بدلاً منها".

٣٧ - وحينئذ بدأت: "بهذا الدثار الذي يحل الموت وثاقه - أذهب صعداً، ولقد جئت هنا خلال أهوال الجحيم.

٤٠ - وإذا كان الله قد حباني بنعمته حتى صارت مشيئته أن أري رحابه، على نحو لا يدانيه العرف المألوف.

٤٣ - فلا تخف عني من كنت قبل مماتك، بل قله لي، وخبرني أأسير موفقًا إلى طريق الصعود، ولتكن كلماتك لنا دليلاً.

٤٦ - "لقد كنت لومبارديًا ودعيت باسم ماركو: وعرفت شئون الدنيا، وأحببت تلك الفضيلة التي ثني عنها كل فرد قوسه الآن.

٤٩ - وإنك لتسير قدمًا في طريق الصعود" هكذا أجابني، ثم أضاف "وإني لأرجوك أن تصلي من أجلي حينما تبلغ الأعالي".

٥٢ - فقلت له "أقسم لك بإيماني بأن أؤدي ما تطلبه إلى، ولكني سأنفجر من شك يراودني، إذا لم أجد لنفسي منه مخرجًا.

٥٥ - كنت من قبل قليل الشك؛ ولكن شكي تضاعف الآن بكلامك الذي يجعله لدي أكيداً، هنا وفي الموضع الآخر الذي أقرنه به.

٥٨ - وإن العالم ليخلو تمامًا من كل فضيلة ما تنبئني بذلك، وهو في الشر مغمور وبه مفعم.

٦١ - ولكني أرجو أن توضح لي السبب حتى أتبينه وأطلع الآخرين عليه؛ إذ يعزوه بعض إلى السماء، ويجعل آخرون سببه هنا في أسفل".

٦٤ - فأرسل لأول وهلة تنهدًا عميقًا، انتزعه منه الآسي آهة صماء؛ ثم بدأ "يا أخي، إن الدنيا لعمياء، وإنك لآت منها حقًا.

٦٧ ـ إنكم يا معشر الأحياء ترجعون سبب كل شيء إلى السماء وحدها في الأعالي، كأنها بالضرورة معها جميع الأشياء.

٧٠ ـ ولو كان الأمر كذلك، لقضي فيكم على الإرادة الحرة، ولما صار من العدل أن يبتهج الإنسان بالخير ويحزن بالشر.

٧٣ ـ وإن السماء لتبدأ نوابضكم، ولا أقول جميعها، وحتى لو عددتم أني أعني ذلك، فقد منحتم الاستنارة لإتباع الخير أو الشر.

٧٦ ـ ووهبتم الإرادة الحرة، التي إن هي احتملت العناء في أولى معاركها مع السماء، وإن حسن غذاؤها، ظفرت بكل شيء في النهاية.

٧٩ ـ وإنكم خاضعون في حريتكم لقوة أكبر وطبيعة أفضل؛ وتخلق فيكم هذه الطبيعة العقل الذي لا يخضع لسلطان السماء.

٨٢ ـ ولذا فأن ضل العالم الحاضر طريقه فإن السبب يرجع إليكم، ولتبحثوا عنه في ذواتكم؛ وسأكون أنا الآن ـ في هذه السبيل ـ عينك الأمينة.

٨٥ ـ وإن النفس الساذجة لتبعث من يد من يتأملها من قبل أن توجد، كأنها طفلة غريرة تلهو بين الضحكات والدموع.

٨٨ ـ وهي بسذاجتها لا تدرك سوي أنها منبعثة من يد خالقها السعيد، وتعود راضية إلى ما يبهجها.

٦١ ـ وفي تذوقها طعم الخير الضئيل لأول وهلة، تجري في إثره وهي به مخدوعة، إذا لم يشنها عن حبه دليل أو عنان.

٩٤ ـ ولذا لزم وضع قانون يؤدي مهمة العنان، وكان من الضروري وجود ملك يتبين ـ على الأقل ـ برج المدينة الحقة.

٩٧ ـ وإن القوانين لقائمة ولكن من ذا الذي يطبقها؟ لا أحد؛ إذ يمكن للراعي الذي يقودها أن يمضغ الجرة، ولكن تعوزه الحوافر المشقوقة.

١٠٠ ـ ولذا فإن القوم الذين يرون دليلهم لا يهدف إلا إلى ما هو مهوم إليه من الخير، لا يتغذون بغيره ولا يسألون مزيداً.

١٠٣ ـ ويمكنك أن تتبين أن القيادة السيئة هي السبب في فساد العالم، لا لأن ذلك يرجع إلى فساد طبيعتكم في ذاتها.

١٠٦ ـ وروما التي صنعت الدنيا الصالحة، اعتادت أن تكون ذات شمسين أنارتا كلا الطريقين طريق الدنيا وطريق الله.

١٠٩ ـ ولقد أطفأت إحداهما أنوار الأخرى؛ وارتبط السيف بالعكاز؛ واتحاد الواحدة بالأخرى عنوة يقتضي السير في طريق الشر.

١١٢ ـ إذ باتحادهما لم تعد إحداهما تخشى من الأخرى شيئًا وإذا أنت لم تصدقني فلتمعن نظرك في سنبلة القمح، إذ يعرف كل نبت بثمره.

١١٥ ـ وفي البلاد التي يرويها الأديج والبو، كان من المألوف أن يجد الفضل والنبل مستقرًا لهما، قبل أن يلقي فردريك أهوال الكفاح.

١١٨ ـ والآن يمكن أن يعبرها آمنًا كل من كان يرغب في تجنبها، خجلاً من التحدث إلى أهلها الصالحين أو الاقتراب إليهم!

١٢١ ـ وفي الحقيقة لا يزال هناك ثلاثة شيوخ تعذل بهم الأيام الخوالي زماننا الحاضر، ويبدو لهمأن الوقت يمر بطيئًا حتى يدعوهم الله إلى حياة أفضل.

١٢٤ ـ وهم كورادو دا بالاتزو وجيراردو الطيب، وجويدو دا كاستلو الذي تفضل تسميته اللومباردي الأمين بأسلوب الفرنسيين.

١٢٧ ـ ولذلك فلتقل إنه حينما تخلط كنيسة روما بين سلطتين في ذاتها، تتردي في الوحل وتدنس نفسها وحملها".

١٣٠ ـ فقلت "لقد أحسنت القول يا ماركو العزيز؛ وإني لأتبين الآن لم حرم أبناء لاو من ميراث الأرض.

١٣٣ ـ ولكن من هو جيراردو الذي تقول إنه ظل نموذجًا لقوم انقرضوا، وملامة لعصر همجي؟".

١٣٦ ـ فأجابني "إنك بكلامك إما تخدعني وإما تغريني، إذ على رغم حديثك التسكاني إلي، فإنك تبدو كأن لم تسمع شيئًا عن جيراردو الطيب.

١٣٩ ـ ولست أعرفه بلقب غير الذي أستعيره من ابنته جايا وليكن الله في عونك،
إذ لن أتابع سيري معكما.

١٤٢ ـ وانظر ها قد أبيض النور الذي يشع خلال الدخان؛ ويجدر بي أن أرحل قبل
أن يتبينني الملاك ـ الذي هو ماثل هناك".

١٤٥ ـ وهكذا عاد أدراجه ولم يشأن أن يسمع مني مزيدًا.

***

الأنشودة
17

أخذ الدخان في الانقشاع ورأى دانتي أشعة الغروب في أعالي جبل المطهر، وكانت قد اختفت عند الشطآن الخفيضة ورأى دانتي في خياله ثلاث رؤى، فرأى أولا بروكني إبنة ملك أثينا التي تحولت بالغضب على أقاربها إلى عندليب ورأى ثانيا هامان مصلوبًا وحوله أحشويروش ملك الفرس وأستير ومردخاي، وكان ذلك رمزًا لمن غضبوا على المختارين من الله ورأى ثالثًا لافينيا ابنة ملك الروتوليين تبكي موت أمها أماتا، وهذا رمز للغضب على الأعداء وأفاق دانتي من خياله حينما سقط عليه وهج شديد، وسمع صوتًا كصوت الملائكة يقول هنا مكان الصعود، فقال فرجيليو إن هذا روح إلهي يقدم العون بدون سؤال وبعد صعود أول درجة في السلم أحس دانتي بجناح الملاك يزيل من جبينه خطيئة الغضب، وسمعه يبارك صانعي السلام. وقال فرجيليو لدانتي إن الخالق ومخلوقاته تسودهم المحبة الطبيعية (الغريزية) والمحبة العقلية، وإن المحبة الطبيعية لا تخطئ، على حين أن المحبة العقلية القائمة على الإرادة الحرة ترتكب الخطأ بارتكابها الشر، أو بزيادة ميلها لثروات الدنيا، أو بانحرافها عن محبة الله، وإذا اتجهت المحبة العقلية إلى الله واعتدلت في محبة الدنيا، فإنها لا ترتكب الإثم، والعكس صحيح ولكن لما كان الإنسان لا يحب أذى نفسه ـ فهو على الأقل لا يؤذي نفسه عامداً ـ ولما كانت كراهية الله منزوعة منه، فإن محبة الشر تتجه إلى الآخرين، ويتمثل ذلك في رغبة المتغطرسين في سقوط غيرهم، وفي كراهية الحاسدين مجد الآخرين وسلطانهم، وفي حرص الحانقين لما نالهم من المهانة على الانتقام ممن أهانهم، وتتطهر الغطرسة والحسد والغضب في الأفاريز الثلاثة السابقة، بينما يتطهر

المتباطئ في فعل الخير في هذا الإفريز الرابع، ويعذب البخل والجشع وشهوة الجسد في أعلى وترك فرجيليو لدانتي أشياء يتعلمها بنفسه فيما بعد.

١ ـ فلتذكر أيها القارئ إذ كنت يومًا في جبال الألب فأحدق بكل الضباب، حتى لم تعد تري خلاله إلا كما يري الخلد خلال جلده.

٤ ـ وحينما تأخذ الأبخرة الرطبة الكثيفة في التبدد ـ فلتذكر ـ كيف تتسلل أشعة الشمس ضئيلة خلالها.

٧ ـ وسيسهل عليك أن تدرك كيف أصبحت عندما رأيت من جديد لأول وهلة أضواء الشمس، التي آذنت عندئذ بالمغيب.

١٠ ـ وإذ كنت أقرن خطاي بخطي أستاذي الأمينة، هكذا خرجت من مثل ذلك السحاب إلى الأشعة الذاوية الآن على الشطآن الخفيضة.

١٣ ـ أيها الخيال الذي تفقدنا الوعي بأنفسنا أحيانًا، حتى لا يتنبه المرء ولو نفخ من حواليه في ألف بوق.

١٦ ـ من ذا الذي يؤثر فيك، إذا لم يبعث فيك الحس شيئًا؟ أيحركك في السماء نور يتشكل بطبيعته أو بمشيئة تدفعه إلى أسفل!

١٩ ـ لقد تراءي في خيالي الأثر الخبيث لمن تحولت صورتها إلى الطائر الذي يبتهج بشدوه كثيرًا.

٢٢ ـ وهنا شغل ذهني بما يعتمل فيه، حتى لم يعد يأتيه ما يمكن أن يتلقاه عندئذ من الخارج.

٢٥ ـ ثم طرأ على خيالي الرفيع رجل مصلوب، تعلوه أمارات الازدراء والعنف، وعلى تلك الحال أدركته المنون.

٢٨ ـ ومن حوله وقف أحشويروش الكبير، وزوجته أستير، ومردخاي العادل، الذي كان مكملاً في قوله وفعله.

٣١ ـ وحينما تلاشت هذه الصورة من تلقاء ذاتها، كفقاعة يعوزها الماء الذي تكونت تحت سطحه.

٣٤ ـ مثلت في خيالي صبية تبكي بمرارة، ومضت تقول "أيتها الملكة، لم رغبت أن تصيري بالغضب عدمًا؟

٣٧ ـ إنك قتلت نفسك حتى لا تفقدي لافينا : وها أنت تفقدينني الآن! وإنني لباكية على موتك يا أماه قبل موت غيرك".

٤٠ ـ وكما ينقطع النوم حين يسطع فجأة نور عجيب على العينين المسبلتين، وفي انقطاعه يداعب المرء فترة قبل أن يتم زواله.

٤٣ ـ هكذا تداعي ما تمثل في خيالي حينما أصاب وجهي نور، يزيد بهاؤه كثيرًا عما هو في مألوفنا.

٤٦ ـ وأخذت أتلفت حوالي لكي أري أين أصبحت، عندما سمعت صوتًا يقول "هنا مكان الصعود"، فحولني ذلك عن كل هدف سواه.

٤٩ ـ وبعث في نفسي شديد الرغبة لكي أري من ذا الذي كان يتكلم، تلك الرغبة التي ما كانت لترضي سوي برؤيته وجهًا لوجه.

٥٢ ـ ولكن كما تثقل الشمس على أعيننا، وتحجب عنا وجهها بشدة وهجها، هكذا أعوزتني الرؤية ها هنا.

٥٥ ـ "هذا روح إلهي يوجهنا إلى طريق الصعود بدون سؤال، وبنوره يخفي عنا نفسه.

٥٨ ـ وإنه يصنع بنا كما يصنع الإنسان بنفسه؛ إذ أن من يلمس حاجة غيره وينتظر منه الرجاء، يتجه بروح الشر إلى الرفض.

٦١ ـ ولنوائم الآن بين خطونا وبين هذه الدعوة الكريمة ولنحرص على الصعود قبل حلول الظلام، إذ لن نقدر على ذلك حتى يعود النهار".

٦٤ ـ هكذا قال دليلي، فاتجهنا معًا سائرين نحو مسلم، وحينما أصبحت على أولي درجاته.

٦٧ ـ أحسست بقربي شيئًا يهفهف على وجهي كأنه حركة جناح، وسمعت "طوبي لصانعي السلام، الذين لا يعرفون الغضب الذميم!".

٧٠ ـ وكانت قد علت فوقنا شاهقة آخر أشعة يأتي في إثرها الليل، حتى أخذت تتبدي لنا النجوم في كل جانب.

٧٣ ـ فقلت في نفسي "لم تخذلينني يا قواي؟"، إذ شعرت أن ساقي قد شد وثاقهما.

٧٦ ـ وكنا قد أصبحنا حيث لم يعد السلم يصعد مزيدًا، ووقفنا دون حراك، كسفينة حطت على الشاطئ.

٧٩ ـ وانتظرت قليلاً لكي أري هل كنت سأسمع شيئًا في الدائرة الجديدة، ثم التفت إلى أستاذي وقتل.

٨٢ ـ "خبرني ـ يا أبتاه الحبيب ـ أية خطيئة تتطهر هنا في هذه الدائرة التي نحن فيها؟ وإذا توقفت أقدامنا فلا يتوقفن حديثك".

٨٥ ـ فقال لي "إن محبة الخير التي تقصر عن أداء واجبها، تتجدد هاهنا؛ وهنا يستأنف ضرباته المجداف المتواني.

٨٨ ـ ولكن لكي تفهمني بعد على نحو أوضح، فلتعرني انتباهك، وستنال بوقوفنا هنا بعض الثمار الطيبة".

٩١ ـ وبدأ "لم يوجد ـ يا بني ـ أبدًا خالق ولا ومخلوق دون محبة طبيعية أو عقلية؛ وإنك لتعرف ذلك.

٩٤ ـ ولا تقع المحبة الطبيعية في الخطأ قط، ولكن الأخرى تتعرض للخطأ، إما بخبيث مقصدها وإما بزيادة حرارتها أو نقصانها.

٩٧ ـ وبينهما هي تتجه بكليتها إلى الخير الأول وتعتدل إزاء الثاني، لا يمكنها أن تصبح سببًا في طلب الملذات الخبيثة.

١٠٠ ـ ولكن حينما تنحرف نحو الشر، وتسارع إلى الخير الدنيوي بحرص يزيد أو يقل عما ينبغي، فإنها تثير المخلوق على الخالق.

١٠٣ ـ وبذلك يمكنك أن تدرك أنه ينبغي أن تكون المحبة لديكم بذرة كل فضيلة، وأصلاً لكل فعل يستحق العقاب.

١٠٦ ـ والآن، بما أنه لا يمكن للمحبة أن تشيح بوجهها أبدًا عن خير من يمارسها، فإن الكائنات تصبح في مأمن من كراهة ذواتها.

١٠٩ ـ وإذ لا يمكننا أن نتصور وجود كائن قائم بذاته منفصل عن الموجود الأول، فلا موضع لكراهة الله في قلوب الناس.

١١٢ ـ وفضلاً عن ذلك ـ فإذا صح تقديري فيما أصنفه ـ فإن محبة الإنسان للشر لا تصيب سوي جاره؛ وفي جبلتكم تتبع هذه المحبة بثلاث صور.

١١٥ ـ فهناك من يأمل في التفوق بسقوط جاره، ولهذا وحده يتطلع إلى أن يهوي من عليائه إلى الحضيض.

١١٨ ـ وهناك من يخشي أن يفقد السلطان والحظوة والمجد والشهرة بارتفاع شأن غيره، فيحزن ويأسي حتى يتمني له العكس.

١٢١ ـ وهناك من يبدو بالإهانة غاضبًا، حتى يصبح إلى الانتقام مهومًا، وليس لمثله سوي المبادرة إلى مضرة غيره.

١٢٤ ـ وإنه ليبكي من هذه الصور الثلاث للمحبة ـ هناك من أسفل وأريدك الآن أن تدرك النوع الآخر من المحبة، التي تسارع إلى ذلك الخير بطريقة منحرفة.

١٢٧ ـ ففي ذهن كل امرئ فكرة شوهاء عن خير أسمي، يمكن أن تهدأ به نفسه، فيظل مشوقًا إليه وبذلك يعمل على أن يبلغ رحابه.

١٣٠ ـ ولو دفعتك المحبة المتوانية إلى رؤيته أو نيله، لعذبك على ذلك هذا الإفريز ـ بعد توبتك النصوح.

١٣٣ ـ وهناك خير آخر لا يسعد به الإنسان؛ وما هو بالسعادة ولا بالخير الجوهري ـ ثمرة كل فعل حميد وأصله.

١٣٦ ـ وإنه ليبكي فوقنا في ثلاث حلقات، على المحبة التي تسخو في بذل نفسها لهذا الخير؛ أما كيف قسمت ثلاثة أقسام ـ

١٣٩ ـ فهذا ما أكست عنه ـ حتى تجده بنفسك".

***

الأنشودة
18

انتهي فرجيليو من حديثه السابق، فاستفسر دانتي عن المحبة مصدر كل فعل طيب وعكسه فقال فرجيليو إن النفس تخلق مهيأة للمحبة الغريزية في الإنسان، والتي لا تهدأ إلا إذا أبهجها موضوع المحبة، وليست كل محبة حميدة بذاتها وساور دانتي الشك في المحبة الغريزية التي تأتي من الخارج، وكيف يثاب عليها الإنسان أو يلام وقال فرجيليو: إنه سيشرح له الأمر في حدود العقل وسيترك ناحية الإيمان لتتولي بياتريتشي شرحها، وذكر أن الروح منفصلة عن المادة ومتحدة بها في وقت واحد، وإن المعارف الأولي والرغبات الأولية غريزية في الإنسان كغريزة النحل في صنع العسل، وهي لا تستحق مدحًا ولا لومًا، ولكن الإنسان مزود بالعقل الذي عليه أن يحرس عتبة الرضا، وبذلك يكون الجزاء تبعًا لقبول المحبة الطيبة أو الخبيثة أو رفضهما وقال فرجيليو إن الفلاسفة أدركوا هذه الحرية القطرية، وأورثوا العالم علم الأخلاق، وإن بياتريتشي تعني بالقوة النبيلة الإرادة الحرة، كما سيأتي في الفردوس وبذلك زالت شكزم دانتي، وبدأ يساوره النعاس، ولكنه زال من عينيه بظهور حشد من الكسالي اللا مبالين الذين جاؤوا مسرعين خلف الشاعرين، وصاح اثنان منهم بذكر مثالين عن السرعة من أخبار العذراء ماريا وقيصر في أسبانيا، واستفسر فرجيليو عن أقرب الطرق إلى الصعود وسأله الراهب من دير سان إتزينو السير وراء هذا الحشد لأنه لا يمكنهم الوقوف، وتكلم عن ألبرتو دلا سكالا الذي سوف يحزن لأنه حابي ابنه المشوه الجسد الناقص العقل وجعله رئيسًا لذلك الدير وفي مؤخرة الحشد صاح اثنان بمثال عن تباطؤ اليهود حين خروجهم من مصر وعن تخلف رفاق إينياس عنه عند بلوغه صقلية، فعاش أولئك وهؤلاء بدون مجد وتواردت على دانتي الأفكار حتى أخذه النعاس.

١ ـ كان معلمي العظيم قد ختم حديثه، وأخذ يمعن النظر في عيني كي يري هل أصبحت راضي النفس.

٤ ـ وأنا الذي كان لا يزال يثيرني عطش جديد، ثم ظاهري عن السكوت، وقلت لنفسي "ربما تثقل عليه أسئلتي الكثيرة".

٧ ـ ولكن ذلك الأب الصديق، الذي أدرك رغبتي الحائرة التي لم تفصح عن ذاتها، منحني بحديثه الشجاعة حتى أتكلم.

١٠ ـ قلت "إن بصري ليزداد حدة، بين طيات أنوارك يا أستاذي، حتى لأتبين بجلاء بجلاء كل ما يعرضه أو يشرحه لي حديثك.

١٢ ـ ولذا فإنني أرجوك أيها الأب العزيز الحبيب، أن تحدثني عن المحبة التي تعزو إليها كل فعل حميد ونقيضه.

١٦ ـ فقال لي "وجه إلى أنوار عقلك الثاقبة، وسيتضح لك خطأ العميان الذين يجعلون من أنفسهم لشعوبهم زعماء.

١٩ ـ وإلى كل ملذة تميل نفسكم الشهوية المهيأة للمحبة، حينما تنهض بدافع من ملذتها إلى مباشرة الفعل.

٢٢ ـ وإن نفسكم العاقلة لتستخلص من الموضوع الواقعي معني تفسره في باطنكم، بحيث توجه نِفسكم الشهوية إليه.

٢٥ ـ وإذا كانت باتجاهها تميل إليه، فما هذا الميل سوي المحبة، وهذه هي المحبة الطبيعية، التي يتجدد ارتباطها بم بتأثير ملذاتكم.

٢٨ ـ ثم كما تتجه النار إلى أعلى ـ إذ هي بطبيعتها مهيأة للصعود، حيث تبق في عنصرها زمنًا أطول.

٣١ ـ هكذا نجد النفس المحبة ينالها الشوق، الذي هو هزة روحية تعروها، ولا تهدأ أبدًا حتى تسعد باتحادها بالمحبوب.

٣٤ ـ والآن يمكنك أن تري كيف تتواري الحقيقة، عن القوم الذين يؤكدون أن كل محبة هي في ذاتها شيء حميد.

٣٧ ـ إذ ربما يبدو عنصرها طيبًا أبدًا؛ ولكن ليس كل ختم جيدًا ولو كان شمعه من النوع الجيد".

٤٠ ـ فأجبته "لقد أدركت أسرار المحبة بفضل كلماتك وبذهني الذي تابعها، وإن كان ذلك قد أفعمني بمزيد من الشك.

٤٣ ـ لأنه إذا وافتنا المحبة من الخارج، ولم يكن للنفس من سبيل سوى هذه الخطوة، فلا فضل لها إذا سارت مستقيمة أو منحرفة.

٤٦ ـ فقال لي "إنني مستطيع أن أحدثك بقدر ما يتبينه العقل هاهنا؛ ولكن لا تنتظر تفسير ما يتجاوز ذلك إلا من بياتريتشي ـ إذ أن هذه مسألة إيمان.

٤٩ ـ وإن كل صورة جوهرية ـ والتي هي منفصلة عن المادة وبها متحدة ـ تجمع في ذاتها قوة نوعية.

٥٢ ـ لا تدرك في النبات بأوراقه المخضرة.

٥٥ ـ ومع ذلك فلا يدري الإنسان من أين يتأتي له إدراك الأفكار الأولي، ولا ميله إلى الرغبات الأولية.

٥٨ ـ التي ما هي فيكم إلا كدأب النحل في صنع العسل؛ ولا تستحق هذه الإرادة الأولية ثناء ولا لومًا.

٦١ ـ والآن لكي يتواءم معها كل ما سواها، تولدت فيكم الملكة والمشردة، وعليها أن تحرس عتبة الرضا.

٦٤ ـ وهذا هو الأصل الذي ينبثق منها ما هو جدير بكم، تبعًا لقبول المحبة الطيبة أو الخبيثة أو رفضهما.

٦٧ ـ وإن من بلغوا بالاستدلال العقلي أغوار الخليقة ـ أدركوا هذه الحرية الفطرية، وبذلك أورثوا العالم علم الأخلاق.

٧٠ ـ وبهذا لو سلمنا بأن كل محبة تستعر في باطنكم، ما هي إلا نابعة فيكم بالضرورة، فإن فيكم القورة على كبح جماحها.

٧٣ ـ وإن بياتريتشي لتنعت هذه القوة النبيلة بالإرادة الحرة، ولذلك فلتحرص على أن تعيها في ذهنك، حين تأخذ في التحدث عنها إليك".

٧٦ ـ والقمر الذي تأخر طلوعه إلى ما يقرب من منتصف الليل، جعل النجوم تبدو لنا أكثر ندرة وتشكل بهيئة دلو يشتعل كله بالنار.

٧٩ ـ وانطلق قبالة السماء في تلك المسالك التي تشعلها الشمس، حينما يراها ساكن روما تغرب بين أهلاسردينيا وأهل كورسيكا.

٨٠ ـ وذلك الطيف اللطيف الذي نالت بييتولا من السهرة بسببه ما لم تنله مدينة مانتوا ـ أزال عنه ما أثقلته به من العبء.

٨٥ ـ ولذلك أصبحت ـ أنا الذي نلت عن أسئلتي إجابة صريحة واضحة ـ أصبحت كمن يشرد بفكره حينما يأخذه النعاس.

٨٨ ـ ولكن أطار من عيني هذا النعاس فجأة ـ جماعة كانت قد اتجهت نحونا من وراء ظهرينا.

٩١ ـ وكما شهد بهرا إسمينوس وأسوبوس في العصر القديم هياجًا وحشدًا إزاء ضفافهما في أثناء الليل ـ حينما استنجد أهل طيبة بالإله باخوس.

٩٤ ـ هكذا اندفع القادمون، حسبما تبين لي في مجيئهم، حول تلك الدائرة، وقد تقوست خطواتهم، واستحثتهم الإرادة الطيبة والمحبة العادلة.

٩٧ ـ وسرعان ما صاروا فوقنا، إذ تقدم عدواً كل ذلك الحشد الكبير، وفي طليعته صاح اثنان منهم وهما يذرفان الدمع.

١٠٠ ـ "جرت ماريا بسرعة إلى الجبل؛ ولكي يخضع قيصر مدينة إيردا ضرب مارسيليا ثم سارع إلى أسبانيا".

١٠٣ ومن بعدهما صاح الآخرون: "سارعوا، سارعوا، حتى لا يضيع الوقت بالمحبة القليلة، إذ تربو النعمة الإلهية بالسعي في فعل الخير".

١٠٦ ـ "أيها القوم ـ يا من ربما تعوض الآن حماستكم الشديدة عن الإهمال والتواني اللذين بدرا منكم بفتوركم في صنع الخير.

١٠٩ ـ إن هذا الرجل الحي ـ ولست أكذبكم يقنيًا ـ يرغب في الصعود أعل حينما تعود الشمس للإشراق علينا؛ ولذا فلتخبرونا أين نجد المخرج قريبًا إلينا".

١١٢ ـ كانت هذه كلمات دليل إليهم؛ فقال واحد من بين تلك الأرواح "ألا فلتأت في إثرنا، وستجد الغرة هنالك.

١١٥ ـ ولقد تسلطت علينا الرغبة في المسير حتى لا نستطيع إزاءها وقوفًا؛ ولذا فلتغفر لنا إذا رأت في طريقة عذابنا شيئًا غليظًا.

١١٨ ـ وكنت في فيرونا راهب سان إتزينو، في عهد باروسًا الطيب، الذي لا تزال ميلانو تتكلم عنه وهي تأسي وتتألم.

١٢١ ـ وهناك من له الآن في القبر قدم، والذي سيذرف دمعه عاجلاً على ذلك الدير، ويحزن بما كان له من السلطان.

١٢٤ ـ إذ وضع ابنه المشوه الجسد، الناقص العقل، والمولود في العار ـ مكان راعيه العدل".

١٢٧ ـ ولست أدري أقال مزيدًا أم سكت، وكان عندئذ قد تجاوز موضعنا كثيرًا؛ ولكني سمعت منه ذلك وسرني أنني وعيته.

١٣٠ ـ وقال من كان لي في كل حاجة سندًا : "فلتلتفت ها هنا ولتنظر إلى اثنين من بينهم ـ يأتيان نادمين على الكسل".

١٣٣ ـ وفي مؤخرتهم جميعًا أخذ الاثنان يقولان: "القوم الذين انشق لهم البحر ـ كانوا قد هلكوا قبل أ، تشهد مياه الأردن ورثتهم.

١٣٦ ـ ومن لم يحتملوا مع ابن أنكيسيس العبء حتى نهاية رحلته، وهبوا أنفسهم لحياة خالية من المجد".

١٣٩ ـ ولما ابتعدت عنا هذه الأشباح، حتى لم نعد نقوي على رؤيتها، بدأت في خاطري فكرة جديدة.

١٤٢ ـ نبعت منها أفكار كثيرة منوعة، فأخذت أسرح خاطري من فكرة لأخرى، حتى أغمضت عيني وأنا مأخوذ اللب.

١٤٥ ـ وتحولت تأملاتي إلى حلم.

***

الأنشودة
19

في ساعات الصباح الأولي من يوم الثلاثاء ١٢ إبريل ١٣٠٠ رأي دانتي في الحلم امرأة شوهاء تتلعثم في كلامها، ولكنها تخلصت مما كانت عليه بنظرة من دانتي، وأخذت تغني قائلة إنها عروس البحر التي تضل الملاحين وتجتذبهم إليها، وهي رمز البخل والجشع وشهوة الجسد ثم ظهرت قديسة أبدت غضبها لما أوشك أن يتعرض له دانتي من الإغراء، فكشف فرجيليو عن بطن عروس البحر، فاستيقظ دانتي بما فاح منها من الرائحة الخبيثة. وكان النهار قد طلع، ودعا ملاك الخلاص الشاعرين إلى الصعود، وأزال بجناحه من جبين دانتي خطيئة اللامبالاة والتكاسل في فعل الخير وحفز فرجيليو دانتي إلى المسير، فتقدم مسرعًا كالبازي الذي يسارع إلى غذائه ووصل الشاعران إلى الإفريز الخامس، ورأي البخلاء والمسرفين يبكون وقد استلقوا وانقلبوا على وجوههم، وقالوا إن نفوسهم لاصقة بالتراب واستفسر فرجيليو عن الطريق إلى الإفريز السادس، فأشار أحد الأرواح على الشاعرين بالسير بحيث يكون يمينهما إلى فضاء الجبل وتقدم دانتي إلى مصدر الصوت وطلب إليه أن يتوقف قليلاً عن التطهر لكي يحادثه، وسأله عن شخصه وعن حال المتطهرين هنا، وهل يريد أن يؤدي له خدمة في الأرض وكان ذلك هو البابا أدريانو الخامس الذي عرف في مدة بابويته القصيرة اعباء منصبه الخطير، وقال إنه تاب عن البخل حينما ولي البابوية وأدرك أن الحياة الدنيا كاذبة وكان عقاب هؤلاء أن ينكفئوا على وجوههم فوق الأرض، لأنهم لم ينظروا في أثناء الحياة إلى أعلى وركع دانتي إلى جواره، ولكن أدريانو سأله الوقوف على قدميه لأن الجميع ما هم إلا خدام لله، وسأله أن يتابع سيره حتى لا يعطل تطهره،

وذكر ابنة أخيه ألادجا الطيبة الشمائل - إذا لم تكن قد فسدت بمثالب أسرتها - وهي الوحيدة التي تذكره في الدنيا بالخير.

١ - في الساعة التي لا تقوي فيها شمس النهار على أن تلطف من برودة القمر حين تشتد برود الأرض أو زحل أحيانًا.

٤ - وحينما يري الرمالون نجوم "الحظ الأكبر" طالعة قبيل الفجر في قبة المشرق - في مسري لا تسوده الظلمة إلى قليلاً.

٧ - تراءت لي في الحلم امرأة متلعثمة اللسان حولاء العينين، وتبدت ملتوية على قدميها، مبتورة اليدين، شاحبة اللون.

١٠ - فأخذت أنظر إليها؛ وكما تبعث الشمس الدفء في الأطراف الباردة التي يثقل عليها الليل، هكذا انطق بنظرتي.

١٣ - لسانها، ثم انتصبت قامتها في برهة، واكتسي وجهها الشاحب باللون الذي تتطلبه المحبة.

١٦ - وحينما حلت عقدة لسانها على ذلك النحو شرعت تغني، حتى كان من العسير على أن أحول انتباهي عنها.

١٩ - وغنت قائلة: "إنني عروس البحر الفاتنة التي أضل الملاحين في عرض البحر، وإني لمفعمة باللذة التي أبعثها فيمن يصغي إلي!

٢٢ - ولقد اجتذبت بغنائي أوليسيس الهائم في رحلته؛ وإن من يألف معايشتي يندر عنى ارتحاله، إذ أرضي كافة رغائبه!".

٢٥ - ولم تكن قد أغلقت بعد فاهما، عندما مثلت إلى جانبي سيدة مباركة، متحفزة لكي تدخل الاضطراب في روعها.

٢٨ - وقالت وقد علاها الازدراء "فرجيليو، هذه المرأة - من تكون؟؛ فأقبل هو بعينين مثبتتين على تلك الأمينة فحسب.

٣١ - وأمسك بالأخرى، وعراها من الأمام بشق ملابسها، وكشف لي عن بطنها فأيقظتني كريه الروائح التي فاحت منها.

٣٤ ـ وأخذت أتلفت بعيني؛ وقال أستاذي الطيب "لقد ناديتك ثلاث مرات على الأقل، ألا فلتنهض ولتقبل ولنبحث عن الثغرة التي ستدخل خلالها".

٣٧ ـ فنهضت واقفًا، وكان نور النهار المكتمل قد غمر حلقات الجبل المقدس كلها، وسرنا وأشعة الشمس المشرقة وراء ظهرينا.

٤٠ ـ وبينما كنت أتابعه حملت جبيني كمن تثقل عليه وطأة الأفكار، فيسير منحني الظهر.

٤٣ ـ إذ بي أسمع: "هيا أقبل ـ فهاهنا المعبر" ـ تقال صوت لطيف، وبما لا يسمع يسمع نظيره في هذه الحدود الفانية.

٤٦ ـ وبجناحين مفتوحتين ـ بدتا كجناحي بجعة ـ وبين حائطين من الصخر الصلد ـ اتجه بنا أعلى ـ من تحدث هكذا إلينا.

٤٩ ـ ثم خفق بأرياشه مهفهفًا علينا، قائلاً لنا إن الحزاني سينعمون بالطوباوية، إذ تلم نفوسهم زمام العزاء.

٥٢ ـ "ماذا دهاك حتى لم تعد تحملق إلا في الأرض؟" ـ بدأ دليلي يقول لي ذلك ـ حينما تجاوزنا كلانا في صعودنا حد الملاك قليلاً.

٥٥ ـ فقلت "إن رؤيا جديدة تتملكني وتدفعني إلى المسير في ظلال من الشك، حتى لا يمكنني أن أكف عن التفكر فيها".

٥٨ ـ فقال لي "لقد شهدت تلك الساحرة العتيقة التي تحمل وحدها المتطهرين على البكاء فوقنا الآن؛ ورأيت كيف يتخلص المرء منها.

٦١ ـ إلا فليكفك هذا، ولتضرب الأرض بعقبيك ولتتجه بعينيك إلى النداء الذي يشيعه المليك الأبدي في أرجاء الدوائر الكبرى.

٦٤ ـ وكالبازي الذي ينظر إلى قدميه أولا، ثم يتجه إلى مصدر النداء ويبسط جناحيه بالرغبة في الغذاء الذي يجتذبه إليه.

٦٧ ـ هكذا فعلت؛ وبقدر ما كان الصخر مشقوقًا ليفسح طريًا لمن يمضي صعدًا ـ كذلك سرت إلى حيث يبدأ الدوران.

٧٠ ـ وحينما أصبحت طليقًا في الدائرة الخامسة، رأيت فيها قومًا يذرفون دموعهم، وقد استلقوا جميعًا منكفئين على الأرض.

٧٣ ـ وسمعتهم يقولون في تنهد عميق "لصقت نفسي بالتراب"، حتى لم تكد كلماتهم تفهم.

٧٦ ـ "أيها المختارون من الله، يا من تخفف العدالة والأمل قسوة عذابهم ألا فلتوجهونا إلى الدرجات التالية".

٧٩ ـ "إذا جئتما آمنين من الاطراح هاهنا، وكنتما راغبين في العثور على أقصر الطرق، فلتكن يمني أيديكما دائمًا إلى الخارج"ز

٨٢ ـ هكذا سأل شاعري وهكذا تلقي الجواب من موضع يتجاوزنا قليلاً؛ وبذلك تبينت من كان مختفيًا وراء هذه الكلمات.

٨٥ ـ فاتجهت بعيني إلى عيني سيدي، وحينئذ أباح لي بإيماءة بشوشة ـ ما سألته عيني الراغبة.

٨٨ ـ وعندما أمكنني التصرف وفقًا لتقديري، تقدمت فوق ذلك الكائن الذي استرعت كلماته انتباهي من قبل.

٩١ ـ وقلت "أيها الروح الذي ينضج فيه البكاء ما لا يمكن العودة بدونه إلى رحاب الله، فلتكف من أجلي برهة عن مشغلتك الكبرى.

٩٤ ـ ولتخبرني من كنت، ولم تتجه ظهوركم أعلى، وهل تريد أن أنا لك شيئًا في الدنيا ـ التي جئت منها وما زلت على قيد الحياة؟".

٩٧ ـ فقال لي: "إنك ستعرف لم توجه السماء ظهورنا إليها؛ ولكن عليك أن تعلم أولاً أنني كنت خليفة القديس بطرس.

١٠٠ ـ وهناك بين مدينتي سستري وكيافيري ينساب جدول جميل، ومن اسمه يتخذ لقب أسرتي ذروة مجده.

١٠٣ ـ لقد خبرت ـ فترة تتجاوز الشهر قليلاً ـ كيف يثقل الثوب الأعظم على من يحفظه من الوحل نقيًا، حتى لتبدو من الريش ـ إلى جانبه ـ سائر الأعباء.

١٠٦ - تأخرت في توبتي واأسفاه! ولكن حينما أصبحت راعيًا رومانيًا اكتشفت عندئذ بطلان الحياة الدنيا.

١٠٩ - ووجدت أن قلبي لم يهدأ هناك ولم يستطع أحد أن يزداد علوًا في تلك الحياة، ولذا اشتعل قلبي بمحبة هذه الحياة.

١١٢ - وإلى تلك اللحظة كنت نفسًا بائسة يتملكها البخل ونائية عن الله وكما ترى فإنني أتعذب بذلك في هذا الموضع الآن.

١١٥ - وإن ما يفعله البخل ليتضح هنا في تطهر النفوس التائبة، وما من عذاب في الجبل أشد مرارة من ذلك.

١١٨ - وكما لم تتجه أعيننا إلى العلياء - بتركزها على شئون الدنيا - هكذا تلقي بها العدالة الإلهية هنا هنا إلى الأرض.

١٢١ - وكما قضى البخل فينا على محبة كل خير، وبذلك فقدنا القدرة على الفعل الطيب، هكذا تطبق العدالة عليها ها هنا.

١٢٤ - وقد قيدت أقدامنا وأيدينا وشلت من حركاتنا؛ وسنظل ممد دين دون حراك طالما يروق ذلك للسيد العادل".

١٢٧ - وكنت قد جثوت على ركبتي وأنا راغب في الكلام؛ ولكن حينما بدأت - وتبين هو - بسمعه فحسب - مدى توقيري إياه.

١٣٠ - قال "ما الذي يدعوك إلى أن تنثني هكذا إلى أسفل"؟ فقلت له "في سبيل كرامتك - أنبني ضميري - لوقوفي في حضرتك".

١٣٣ - فأجبني "أقم ساقيك يا أخي، وانهض! ولا ترتكب معي هذا الخطأ فما أنا وأنت والآخرون جميعًا سوى خدام لقوة واحدة.

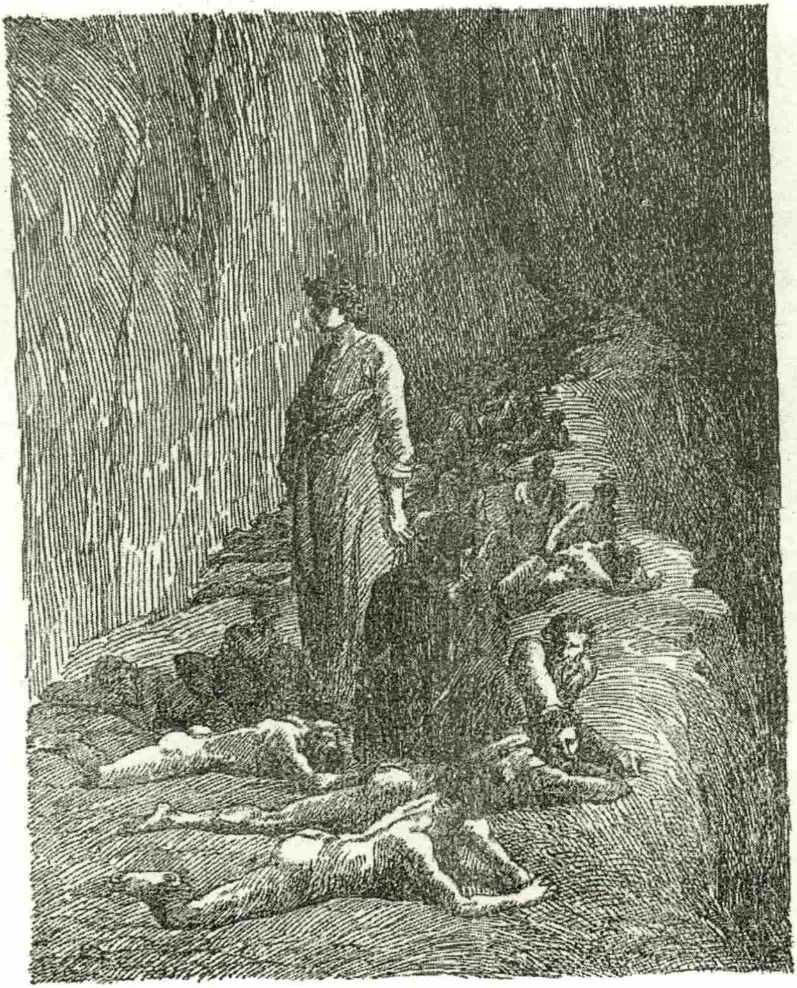
١٣٦ - وإذا كنت قد فهمت أبدًا كلمة الكتاب المقدس التي تقول "إنهم لا يزوجون ولا يتزجون"، فيمكنك أن تدرك جيدًا لم أتكلم هكذا.

١٣٩ - ولتذهب عني الآن فلست أرغب في أن تظل هنا مزيدًا، إذ يعطل تلبثك بكائي - الذي أنضج به ما ذكرته بنفسك.

١٤٢ ـ وإن لي هناك ابنة أخ تدعي ألادجا، وهي بطبعك حلوة الشمائل، ما لم يفسدها بيتنا بمثاله السيئ.

١٤٥ ـ وهي الوحدة التي بقيت لي في ذلك الجانب".

***



دانتي وفرجيليو يأسيان
على البخلاء والمبذرين

الأنشودة
20

تقدم الشاعران إلى الأمام بناء على رغبة أدريانو الخامس، وسارا في موضع مزدحم بالمتطهرين الذين اطرحوا أرضًا، ولعن دانتي القديمة رمز البخل والجشع. وسمع دانتي الأرواح تتغنى بأمثلة عن الفقر والأريحية تتناول ميلاد المسيح في المذود، وفابريسيوس الروماني الذي آثر الفقر مع الفضيلة على الثروة في ظلال الإثم، والقديس نيقولا البيزنطي حامي العذاري. قال روح لدانتي إنه كان أصلا لأسرة خبيثة أظلت العالم المسيحي كله، وأعلن أنه هيج كابيه ابن القصاب ـ كما يشاع ـ وقال إن مقاليد الحكم قد آلت إليه في فرنسا وإن قومه كانوا يعرفون معنى الخجل ثم أخذوا في النهب والطغيان قد استيلائهم على البروفنس وقال إن شارل دانجو قدم إلى إيطاليا وهزم كرنوادينو دي هوهنشتاوفن، وتنبأ بقدوم شارل دي فالوا الذي سيبقر بطن فلورنسا برمح يهوذا، وينال بذلك الإثم والعار، وذكر شارل الثاني دانجو الذي باع ابنته بيع الإماء في سبيل الله، وتنبأ بتآمر فيليب الجميل على قتل بونيفاتشو الثامن ـ عدو دانتي ـ الذي سيصبح بذلك كالمسيح الذي صلب وقتل ـ عند المسيحيين ـ وسأل الله متى يحل انتقامه! وقال هيج كابيه إن أصوات المتطهرين ستذكر في أثناء الليل أمثلة عن البخل والجشع، مثل بيجماليون ملك صور، وميداس ملك فريجيا، وعخان اليهودي، وسفيرة وزوجها حنانيا، وهليودوروس وزير سلوقس ملك سوريا، وبوليمنستور ملك تراقيا ،وكراسوس الورماني. ومضى الشاعران في طريقهما، وشعر دانتي بزلزلة جبل المطهر زلزلة عنيفة حتى أحس قشعريرة الموت، وسمع الأرواح ترتل: "المجد لله في الأعالي". وكان دانتي راغبًا في الاستفسار عن ذلك، ولكن إسراع فرجيليو في السير جعله يمضي وجلاً متفكرًا.

١ ـ ما من رغبة تقوى على مغالبة رغبة تفضلها؛ وعلى هذا فلكي أبعث في نفسه المسرة ـ على غير مسرتي ـ سحبت من الماء إسفنجتي التي لم تفعم.

٤ ـ وسرت قدمًا؛ وتقدم دليلي في المواضع الخالية على طول الصخر، كمن يسير إزاء سور وهو بشرفاته ملتصق.

٧ ـ إذ أن القوم يذرفون من أعينهم قطرة فقطرة الشر الذي يملأ العالم كله، أقبلوا في الجانب الآخر وهم شديدو القرب من حافته الخارجية.

١٠ ـ ألا لعنة الله عليك أيتها الذئبة العتيقة التي تزيد فرائسك عن سائر الوحوش جميعًا، بجوعك المسعور دون قرار!

١٣ ـ أيتها السماء التي يبدو أن الإنسان يعزو إلى دورانها تغير الأحوال هنا في العالم الأسفل ـ متى سيأتي من بفضله سيطرد هذا الوحوش؟

١٦ ـ و أخذنا نسير بخطي بطيئة قصيرة، وظللت منتبهًا إلى الأشباح التي سمعت بكاءها الحار وأنيبها الأليم.

١٩ ـ وطرأ على سمعي "ماريا الحبيبة " ـ تنادي أمامنا خلال صراخ أشبه بما يصدر عن امرأة أخذها الطلق.

٢٢ ـ وسمعت بعد "لقد كنت شديدة الفقر، كما يمكن أن يبين في ذلك المذود، حيث وضعت حملك المبارك".

٢٥ ـ وفي إثر ذلك سمعت "يا فابروسيوس الطيب، إنك قد آثرت الفقر مع الفضيلة على المعصية مع الثراء الواسع".

٢٨ ـ فراقت لي هذه الكلمات حتى اندفعت إلى الأمام، لكي أتعرف على ذلك الروح الذي بدا أنها صادرة عنه.

٣١ ـ وتابع كلامه متحدثًا عن الأريحية التي بدرت من القديس نيقولا نحو العذاري الفقيرات، لكي يسير بشبابهن إلى الحياة الشريفة.

٣٤ ـ فقلت "أيها الروح الذي يتكلم عن مثل هذا الخير العظيم ـ خبرني من كنت ـ ولم تجدد وحدك ذكر هذه المدائح النبيلة؟

٣٧ ـ ولم يكون كلامك دون جزاء، إذا عدت لكي أكمل الرحلة القصيرة من هذه الحياة التي تمضي كالطير إلى ختامها".

٤٠ ـ فقال لي سأخبرك ـ لا لعون أتوقع أن أناله هناك ـ بل لأن نعمة عظيمة تشع فيك أنوارها من قبل أن تدركك المنون.

٤٣ ـ لقد كنت أصلاً للنبت الخبيث الذي يشبع الظلمة في أرجاء العالم المسيحي، حتى ندر أن تجيي منه ثمرة طيبة.

٤٦ ـ ولكن إذا قوي شأن دوديه وجاند وبروجس، فسيم الانتقام لذلك سريعًا؛ وإني لأسأل هذا من قاضي الوجود.

٤٩ ـ وفي ذلك الجانب كنت أدعي هيج كابيه: ومن صلبي ودل كل من حملوا اسم فيليب ولويس، والذين يحكمون الآن فرنسا.

٥٢ ـ وكنت ابنًا لقصاب من باريس: وحينما انقرض كل الملوك القدامي سوي راهب يتسربل برمادي الثياب.

٥٥ ـ وجدت نفسي قابضًا على زمام الحكم في أنحاء المملكة، وأصبحت بممتلكاتي الجديدة ذا صولة وصرت بالأصدقاء معززًا.

٥٨ ـ حتى سما رأس ابني إلى التاج المترمل، الذي نبتت منه لأولئك الملوك أعظم مدشنات.

٦١ ـ وطالما لم ينزع الصداق البروفنسي الكبير شعور الخجل من سلالتي، لم يكونوا ذوي شأن كبير، ولكنهم على الأقل لم يكونوا قد ارتكبوا الشرور.

٦٤ ـ وعندئذ بدأوا أعمال النهب بارتكاب العنف والكذب؛ وللتعويض عن ذلك استولوا على بونتيو ونورمانديا وجاسقونيا.

٦٧ ـ وإلى إيطاليا قدوم شارل، وبدوره جعل من كونرادينو فريسة له؛ ثم لكي يعوض عن ذلك بعث إلى السماء بالقديس توماس.

٧٠ ـ وإني لأري يومًا ـ وما هو عنا ببعيد ـ يخرج منه من فرنسا سمي لهذا الأمير شارل، لكي يزيد من تعريف العالم بنفسه وأتباعه.

٧٣ ـ ومنها يخرج دون سلاح، سوي الرمح الذي تبارز به يهوذا، وسيسدده بحذق حتى يبقر به بطن فيورنتزا.

٧٦ ـ ولن يكسب بذلك أرضًا، بل معصية وخزيًا يزيد ثقلهما عليه، بقدر ما يحسب مثل هاتيك الشرور قليلة الشأن.

٧٩ ـ والآخر الذي غادر ذات يوم سفينته أسيرًا، أراه يبيع ابنته ويساوم عليها، كما يفعل القراصنة بسائر الإماء.

٨٢ ـ أيها البخل ـ ماذا يمكنك أن تفعل بنا مزيدًا، ما دمت قد أغريت ذريتي حتى لمتعد تحفل بفلذة أكبادها.

٨٥ ـ ولكي تبدو المفاسد المقبلة والسالفة أقل خطرًا ـ أري زهرة الزنبق تدخل كنيسة ألانيا، والمسيح يصير سجينًا في شخص نائبه.

٨٨ ـ وأنظره وقد سخر به مرة أخرى؛ وأري أن قد تجددت تجربة الخل والعفص، وقتل هو بين لصين كانا على قيد الحياة.

٩١ ـ وأشهد بيلاطس الجديد شديد القسوة حتى لا يرضى بهذا كله، ولكنه يحمل إلى الهيكل ـ بلا شرعة ـ أشرعته الجشعة.

٩٤ ـ متى أسعد يا إلهي برؤية نقمتك ـ المتوارين في سر مشيئك ـ تلطف من حدة غضبك؟

٩٧ ـ إن ما كنت أقوله عن تلك العروس الوحيدة للروح القدس، والذي جعلك تتجه نحوى لكي تمدني ببعض إيضاح ـ

١٠٠ ـ يتجاوب مع كل صلواتنا طالما يدوم النهار ولكن حينما يقبل الليل علينا نردد بدلاً منه نغمًا مغايرًا.

١٠٣ ـ وعندئذ نعود إلى ذكر بيجماليون، الذي أصبح بشديد تهمه إلى الذهب خائنًا سارقًا قاتلاً لأقاربه.

١٠٦ ـ ونذكر ما أصاب ميداس البخيل من البؤس ثمرة رغبته الجشعة، التي ينبغي أن نضحك منها أبدًا.

١٠٩ ـ ثم يذكر كل منها عخان المجنون وكيف سرق الغنائم، حتى ليبدو أن غضب يشوع لا يزال يهشه ها هنا.

١١٢ ـ وبعدئذ نوجه الاتهام إلى سفيرة وبعلها؛ ونثني على الركلات التي سددت إلى هليودورس؛ وفي كل أرجاء الجبل يدور اسم بوليمنستور.

١١٥ ـ بالعار ملطخًا لقتلة بوليدوروس وفي النهاية نصيح: "ألا فلتخبرنا يا كراسوس ما طعم الذهب ـ إذ أنك به خبير؟".

١١٨ ـ وأحيانًا يرفع أحدنا عقيرته في الكلام بينما يتكلم آخر خافت الصوت، حسبما تهمزنا مشاعرنا للكلام بجهوري الصوت تارة وطورًا بخفيضه.

١٢١ ـ وبهذا لم أكن وحدي منذ هنيهة في ذكر الخير الذي نشيد به هنا إبان النهار، ولكن لم يعل بصوته أحد سواي بالقرب من هذا الموضع".

١٢٤ ـ وكنا قد ابتعدنا عنه وبذلنا جهدنا لكي نقطع من طريق صعودنا شوطًا، بقدر ما أتاحته لنا قوانا.

١٢٧ ـ حينما أحسست ارتجاف الجبل كأنه شيء آخذ في السقوط؛ فتملكتني عندئذ قشعريرة كالتي تصيب من يسير إلى حتفه.

١٣٠ ـ ولا شك أن ديلوس لم تهتز بهذا العنف قبل أن تشدي لاتونا بها عشًا، لكي تنجب فيه عيني السماء.

١٣٣ ـ ثم بدأ ترتيل عال في كل جانب، حتى اتجه إلى أستاذي قائلاً "لا تأخذنك مخافة بينما أقوم بإرشادك".

١٣٦ ـ وقالوا جميعهم "المجد لله في الأعالي"، حسبما أدركت ممن كانوا بقربي، والذين أمكنني أن أتبين مضمون ترتيلهم.

١٣٩ ـ وكالرعاة الذين كانوا أول من سمعوا تلك الأنشودة، وقفنا بلا حراك مترددين، حتى توقف الزلزال وانتهى الترتيل.

١٤٢ ـ ثم تابعنا المسير في طريقنا المقدس، ناظرين إلى الأشباح التي أطرحت أرضًا، مستأنفة بكاءها المألوف.

١٤٥ ـ وما من جهل جعلني في المعرفة راغبًا بهذه اللهفة الشديدة أبدًا ـ إذا لم تخني ذاكرتي ـ في هذا الشأن ـ

١٤٨ ـ كما بدا لي عندئذ أني حائزة بينما كنت ماضيًا في التأمل؛ وبإسراعنا لم أكن على السؤال مجترئًا، وبنفسي لم أستطع أن أتبين هناك شيئًا.

١٥١ ـ وهكذا أخذت أسير وأنا متفكر وجل.

***

الأنـشـودة
21

سارع الشاعران خطوهما حينا بدا لهما شبح جاء من خلفهما وتمنى لهما السلام فبادله فرجيليو أمنيته واستفسر الشبح عن طريقة مجيئهما إلى هذا الموضع، فقال فرجيليو إن دانتي إنسان حي، وقد جاء هو معه لكي يقوده بقدر ما يستطيع. وسأل فرجيليو عن السبب في رجفة الجبل وصياح المتطهرين، فقال الشبح إن الجبل المقدس يتبع نظامًادقيقًا، وإنه يتأثر بالسماء وحدها في جزئه الأعلى، حيث لا يسقط به مطر و لا برد ولا صقيع، ولا يتأثر أبدًا بعوامل الطبيعة، ولكنه يتزلزل حينما تتطهر إحدى النفوس فتصعد إلى أعلى يصاحبها ذلك التهليل وقال الشبح إن إرادة الإنسان تتجه إلى الخير، ولكن تعوقها الشهوات فترتكب الخطيئة وتنال العذاب، وذكر أنه استلقي في هذا العذاب أكثر من خمسة قرون، وحينما تطهرت نفسه ارتجف الجبل وسمع ذلك الترتيل وسأله فرجيليو أن يفصح عن شخصه، فقال إنه تمتع بشهرة كبيرة في عصر تيتوس، وعاش في روما وتوج جبينه بالريحان، وقال إن اسمه استاتيوس، وإنه قد تغني بطيبة وأخيل، واستمد وحيه الشعري من إنيادة فرجيليو، وتمني لو أنه عاش في عصر ولو أدي ذلك إلى بقائه في المطهر سنة أخرى وأشار فرجيليو إلى دانتي أن يلزم الصمت، ولكنه لم يستطع أن يخفي ابتسامته فتساءل استاتيوس عن سبب الابتسام، فأباح فرجيليو لدانتي الكلام قال دانتي إن فرجيليو ماثل أمامه الآن، فانحني استاتيوس لكي يقبل قدمي فرجيليو، ولكن تعذر عليه ذلك لأنهما كانا مجرد شبحين، ونهض استاتيوس وهوي عبر عن إعزازه وتقديره لفرجيليو.

١ ـ لقد أضناني الظمأ الطبيعي الذي لا يرتوي أبدًا سوي بالماء الذي سألت السامرية المسكينة أن تنال به النعمة.

٤ ـ وحفزتني العجلة إلى اقتفاء أثر دليلي في الطريق المتعثر، وأحسست الآسي لما نالته الأرواح من العذاب العادل.

٧ ـ وكما يكتب لنا لوقا أن المسيح قد هل على الاثنين اللذين كانا سائرين في الطريق، حينما خرج من فتحة قبره.

١٠ ـ فها قد تبدي لنا شبح، و أخذ يسير من ورائنا بينما كنا نحذر ألا نمس بأقدامنا الجمع المستلقي على الأرض ـ ولم نتبينه إلا بعد أن تحدث هو إلينا ـ

١٣ ـ وشرع يقول: "فليمنحكما الله السلام يا أخوي" فاستدرنا توًا، وأجابه فرجيليو بالإيماءة التي تناسب ذلك.

١٦ ـ ثم بدأ "فلتمنحك السلام ـ في مجمع الطوباويين ـ دار القضاء الحقة، التي تقيدني في هذا المنفي الأبدي".

١٩ ـ وبينما كان نغذ السير قال لنا "يا للعجب! إذا كنتما عند الله شبحين غير جديرين بالذهاب صعداً، فمن ذا الذي جاء بكما حتى هذا الموضع من سلمه؟".

٢٢ ـ فقال معلمي "إذا نظرت إلى العلامات التي يحملها هذا الرجل، والتي رسمها الملاك عليه، فستتبين أن مقره ينبغي أن يكون في زمرة الأبرار.

٢٥ ـ ولكن بما أن من تغزل نهارًا وليلاً، لم تنته بعد من الخيط الذي يخصه، والذي تحمل كلوتو لكل فرد مثيله وتلفه على المغزل.

٢٨ ـ فإن نفسه التي هي لك ولي شقيقة، لم تستطع أن تأتي في صعودها وحيدة، إذ أنها بطريقتنا لا تبصر.

٣١ ـ ولذا فقد أخرجت من فوهة الجحيم الواسعة، لكي أطلعه على الطريق، وسأريه منه مزيداً، بقدر ما تستطيع تعاليمي أن تقوده.

٣٤ ـ ولكن فلستخبرني إذا كنت تعرف ـ لم اهتز الجبل هكذا منذ هنيهة، ولم بدت الأرواح تصيح جميعها بصوت واحد، حتى أدني صخرة بللها البحر؟".

٣٧ ـ هكذا أصاب بسؤاله صميم رغبتي، حتى كان الأمل العذب وحده كفيلاً بأن يلطف من حدة ظمئي.

٤٠ ـ وبدأ الآخر "لا ينال الجبل المبارك شيء يحدث دون نظام أو يقع خارجًا عن مألوفة.

٤٣ ـ وأن هذه الأرجاء من كل التقلبات خالصة: ولا يمكن أن تتأتي هنا علة إلا مما تتلقاه السماء من ذاتها ولذاته، ولا مؤثر سوي ذلك.

٤٦ ـ ولذا فلا يسقط مطر، ولا برد، ولا ثلج، ولا طل، ولا صقيع ـ أعلى من السلم الصغير القصير ذي الدرجات الثلاث.

٤٩ ـ ولا تظهر به سحب كثيفة ولا خفيفة ولا برق، ولا تبدو به ابنة تاوماس، التي تغير مكانها كثيرًا في ذلك الجانب.

٥٢ ـ ولا يعلو بخار جاف فوق ذروة الدرجات الثلاث التي كلمتك عنها، حيث يضع قدميه نائب القديس بطرس.

٥٥ ـ وربما تقل أو تكثر رجفة الجبل في أسفله، على أنه بالريح الكامنة في الأرض ـ لا يتزلزل ـ هنا في أعلاه أبدًا ـ ولا أدري كيف.

٥٨ ـ وإن الجبل ليرتجف هنا حينما تشعر إحدى النفوس بتطهرها، حتى تنهض وتمضي صاعدة إلى الأعالي؛ ثم يسمع بعدئذ ذلك الصياح.

٦١ ـ وما من دليل على التطهر سوي الإرادة ذاتها، التي تفاجئ النفس حين تكتمل حريتها، وتعبث فيها الرغبة البهجة في تغيير مقامها.

٦٤ ـ وإن النفس لترغب في ذلك لأول وهلة، ولكن تعوقها شهواتها التي تقودها العدالة الإلهية ـ على رغمها ـ إلى طريق العذاب، لا تجاهلها إلى طريق المعصية.

٦٧ ـ وأن الذي أطرحت في هذا العذاب أكثر من خمسمائة عام، أحسست الآن فحسب أن إرادتي قد صارت حرة لكي تيمم شطر عتبة أفضل:

ولذا فإنك قد سمعت الآن دوي الرجفة وصت الأرواح الخاشعة فوق الجبل تسبح بحمد المولي، حتى يرسلها سريعًا إلى العلياء".

٧٣ ـ هكذا تحدث إلينا؛ ولما كانت متعة الإنسان بالري تزداد بقدر زيادة عطشه ـ فلم أستطع التعبير عما أداه لي من فائق المتعة.

٧٦ ـ فقال دليلي الحكيم "الآن أتبين الشبكة التي تعوقكم هاهنا، وكيف تحل عقدتها، ولم يرتجف الجبل هنا ولم تتشاركون جميعًا في الشعور بالبهجة.

٧٩ ـ ولعله يرضيك الآن أن أعرف شخصك، وعساي أفهم من كلماتك لم أطرحت هنا طوال هذه القرون العديدة".

٨٢ ـ فأجاب ذلك الروح "في الوقت الذي انتقم فيه تيتوس الطيب بعون المليك الأعلى ـ للجروح التي انبثق منها.

٨٥ ـ الدم الذي باعه يهوذا، بالاسم الذي سيدوم طويلاً ويمجد كثيرًا ـ كنت هناك رجلاً عريض الشهرة ـ ولكن الإيمان كان لا يزال يعوزني.

٨٨ ـ وكنت رخيم الإنشاد، حتى إنني على رغم كوني من أهل تولوز، فقد اجتذبتني روما إليها، حيث صار جبيني جديرًا بأن يتوج بالريحان.

٩١ ـ ولا يزال القوم يدعونني باسم استاتيوس في ذلك الجانب؛ ولقد تغنيت بطيبه ثم بأخيل العظيم؛ ولكنني هويت في الطريق بحملي الثاني.

٩٤ ـ وإن شعري ليستمد حرارته الشعلة الإلهية التي ألهبت قريحتي، ومنها اشتعل أكثر من ألف لهيب.

٩٧ ـ وإنني لأتكلم عن الإنيادة، التي كانت لي في قول الشعر أما كما كانت حاضنة لي: وبدونها لما عادلت وزن درهم.

١٠٠ ـ ولو أني عشت حينما كان فرجيليو على قيد الحياة، لرضيت أن أظل سنة تزيد عما ينبغي على ـ قبل أن أخرج من عذاب المنفي".

١٠٣ ـ وبسماع هذه الكلمات اتجه إلى فرجيليو، وبوجهه الصامت سألني أن ألزم الصمت، ولكن إرادتنا لا تقوى على فعل كل شيء.

١٠٦ ـ إذ أن الضحك والبكاء للعاطفة خاضعان، وكلاهما عنها يصدران، حتى ليقل انصياعهما للإرادة لدي أصدق الناس.

١٠٩ ـ وابتسمت فحسب كمن يغمز بعينيه ؛ وعندئذ سكت الشبح، ونظرني في العينين، إذ فيهما تبدو صورة النفس على حقيقتها.

١١٢ ـ وقال لي: "لعل هذا الجهد الكبير يؤدي بك إلى الخير، ولكن لم بدا لي وميض ابتسامة على محياك في هذه الآونة؟".

١١٥ ـ فأخذ يتجاذبني عندئذ كل الجانبين أحدهما يحملني على الصمت، والآخر يناشدني أن أتكلم؛ ولذلك تنهدت، وأدرك معلمي.

١١٨ ـ ما يدور بخاطري، فقال لي: "لا تخشين من كلامك شيئًا؛ بل تكلم وحدثه بما يسأل عند بهذا الحرص الشديد".

١٢١ ـ فقلت عندئذ "ربما تعجب ـ أيها الروح العتيق ـ من البسمة التي بدرت مني؛ ولكنني أرجو أن ينالك عجب أشد.

١٢٤ ـ إن هذا الذي يرشدني في الذهاب إلى أعلى ـ هو فرجيليو ذلك الذي استوحيت منه القدرة على التغني بالرجال والآلهة.

١٢٧ ـ وإذا اعتقدت أن لابتسامتي علة أخرى، فدعك منها، لأن هذا غير صحيح، ولتثق بأن كلماتك التي قلتها عنه كانت هي السبب.

١٣٠ ـ وكان قد انحنى عندئذ ليقبل قدمي معلمي، ولكنه قال له "لا تفعل ذلك يا أخي ـ فما أنت سوى شبح تنظر شبحًا".

١٣٣ ـ فقال وهو ينهض "يمكنك أن تدرك الآن مدى المحبة المستعرة في نفسي نحوك، حينما أنسى فراغنا.

١٣٦ ـ وأعامل الأشباح على أنها أشياء صلدة".

***

الأنشودة
22

صعد دانتي الجبل بدون عناء في إثر فرجيليو واستاتيوس، وسمعهما يتحدثان قال فرجيليو إن المحبة التي تشعلها الفضيلة تشعل غيرها دومًا إذا ظهرت شعلتها في الخارج، وإنه قد أحبه منذ أن هبط جوفينالس إلى اللمبو، وعرفه بقدره، وسأله كيف يجد البخل موضعًا في صدره على رغم حكمته فضحك استاتيوس قليلاً وأخبره أن البخل قد زايله منذ أمد بعيد، وإنه ابتلي بالإسراف الذي عوقب من أجله قرونًا عديد، وقال إنه فهم قوله في الإنيادة عن الجوع المقدس إلى الذهب إلى ينبغي أن يضبط شهوة الإنسان إلى ثروات الدنيا، وإن الخطايا المتعارضة تلقي جزاءها معًا، وإنه كمبذر يتطهر مع البخلاء وقال فرجيليو لاستاتيوس إنه يبدو له أنه لم يكن قد اهتدي بعد إلى الإيمان الصحيح حينما تناول مأساة جوكاستا، وسأله كيف تحرر من ظلام الوثنية فقال استاتيوس لفرجيليو إنه هو الذي ألهمه قول الشعر وهداه إلى الإيمان وأضاء له الطريق بدون أن يضيئه لنفسه، عندما قال في أناشيد الرعاة إن العصر يتجدد وإنه سيهبط من السماء جنس جديد وقال غنه أخذ يختلط بالمسيحيين، وشاركهم في البكاء على ما نالهم من المحن، ثم نال التعميد ولكنه أخفي ذلك طويلاً، ولذا فقد دار في الإفريز الرابع من المطهر أكثر من أربعة قرون، وسأل فرجيليو عن مكان بعض شعراء اللاتين، فأجابه بأن أمثال تيرنسيوس وبلاوتوس وأوربيدس وأجاتون وأنتيجون موجودن في اللمبو وبلغ الشعراء الثلاثة الإفريز السادس، وكانت الساعة قد جاوزت الحادية عشرة من صباح الثلاثاء ١٢ إبريل ١٣٠٠ وأخذ دانتي في متابعة السير وراء الشاعرين، واستلهم من حديثهما فنه الشعري واعترضت طريقهم شجرة مقلوبة

الوضع - شجرة الحياة - لكيلا يصعد عليها أحد من المنهومين وسمع دانتي صوتًا يردد أمثلة عن القناعة مقتبسة من أفعال العذراء ماريا ودانيال ويوحنا المعمدان.

١ - كان قد ظل من ورائنا الملاك الذي اتجه بنا إلى الدائرة السادسة، بعد أن أزال من وجهي جرحًا.

٤ - ونطق بالآية القائلة عمن تتجه رغبتهم إلى البر إنه طوباويون، ولكنه ختم كلماته عند "العطاش" - ولم يقل مزيدًا.

٧ - وإني وقد أصبحت أخف مما كنت عند المداخل الأخرى، أخذت أسير في إثر الروحين السريعين، بدون أن أبذل جهدًا.

١٠ - حينما بدأ فرجيليو "إن المحبة التي يشعلها الفضل لتلهب غيرها دومًا، إذا ما تبدت شعلتها في الخارج.

١٣ - ولذا فمنذ اللحظة التي هبط فيها جوفينالس بين ظهرانينا في لمبو الجحيم - والذي جعلني أتبين محبتك لي.

١٦ - أحسست نحوك بمحبة عارمة، لم يشعر بمثلها أحد نحو من لم ير من قبل أبدًا، وبهذا ستبدو لي هذه السلالم قصيرة الآن.

١٩ - ولكن فلتخبرني، ولتغفر لي كصديق، إذا ما أرخت لي طمأنينتي البالغة سبيل العنان - ولتحدثني الآن حديث الصديق إلى الصديق.

٢٢ - كيف استطاع البخل أن يجد لنفسه في قلبك موضعًا، بين كل ما تحليت به من الحكمة التي أفعمت بها - بفضل اجتهادك ودرسك؟".

٢٥ - وبسماع هذه الكلمات ابتسم استاتيوس لأول وهلة، ثم أجاب "إن كل ما تقوله تعبير غال عن محبتك لي.

٢٨ - ومع ذلك كثيرًا ما تبدو أشياء بزيفها مواطن الشك، لخفاء أسبابها الحقيقية.

٣١ - ويؤكد لي سؤالك أنك تعتقد أني كنت في الحياة الأخرى رجلاً بخيلاً، وربما يرجع ذلك إلى تلك الدائرة التي صرت إليها.

●●

٣٤ ـ ولتعلم الآن أن البخل كان قد زال عني منذ أمد بعيد، وأن إفراطي قد عاقبته آلاف من دوراتْ القمر.

٣٧ ـ ولو لم أكن قد قومت رغائبي ـ حينما أدركت مغزى قولك ـ حيث تصيح ـ وكأني بك على طبيعة البشر غاضب.

٤٠ ـ "أيها الجوع المقدس إلى الذهب ـ لم لا تقوم شهوة البشر الفاني؟" ـ لولا ذلك ـ لكنت أشعر الآن بوطأة المصادمات البئيسة إبان دوراني.

٤٣ ـ وعندئذ تبينت ما يمكن أن تقوي عليه يداي في بسط أجنحتهما في الإنفاق ـ وهكذا ندمت على هذه المعصية كما ندمت على غيرها من المعاصي.

٤٦ ـ وكم من الناس سيبعثون وهم حليقو الرؤوس، بالجهل الذي يحول دون ندمهم على هذه المعصية، في أثناء حياتهم وعند ختامها!

٤٩ ـ واعلم أن الخطأ الذي يقابل خطيئة ما بصورة مباشرة، يجفف معها هنا أوراقه الخضراء.

٥٢ ـ فإذا كنت قد اتخذت مقري في التطهر بين من يبكون لبخلهم، فقد نال مني عذاب الخطيئة التي تعارض ذلك".

٥٥ ـ فقال الصادح بأناشيد الرعاة: "ولكنك حينما تغنيت بالصراع القاسي، الذي سبب لجوكاستا حزنًا مزدوجًا.

٥٨ ـ وبما قصصته وقصته أكليو معك ـ لا يبدو أنك كنت قد صرت بعد بالعقيدة مؤمنًا، ولا يكفيك أن تفعل الخير بدون اعتناقها.

٦١ ـ وإذا كان الأمر كذلك، فأية شمس أو شموع قد أنارت ظلمتك، حتى نشرت أشرعتك بعدئذ خلف صائد السماك؟".

٦٤ ـ فقال له "إنك أول من بعث بي صوت جبل بارناسوس لكي أنهل من بين صخراته، وإنك أول من أنار لي الطريق إلى الله.

٦٧ ـ وقد فعلت كمن يسير في جنح الدجي، ويحمل من ورائه مصباحًا، لا يبدد به ظلمته، ولكنه ينير السبيل ـ من بعده ـ لسائر الناس.

٧٠ ـ وذلك زمانها الأول، ومن السماء تهبط سلالة جديدة.

٧٣ ـ فبفضلك أصبحت شاعرًا وبفضلك صرت مسيحيًا ولكن لكي ترى بصورة أفضل ـ ما أنا بسبيل رسمه ـ فسأبسط راحتي في تلوينه.

٧٦ ـ لقد كانت كل أرجاء العالم مفعمة وقتئذ بالعقيدة الصحيحة، التي نشر بذورها رسل الملكوت الأزلي.

٧٩ ـ وتجاوبت كلمتك التي ذكرتها آنفًا مع المعلمين الجدد؛ ولذا تخذت زيارتهم عادة لي.

٨٢ ـ ثم بدوا لي أبرارًا صالحين، حتى لم يكن بكاؤهم بغير بكائي، حينما فتك بهم دوميتيانوس.

٨٥ ـ وبذلت لهم العون بينهما كنت أقيم في ذلك الجانب، وحملني مسلكهم القويم على أن أزدري سائر المعتقدات.

٨٨ ـ لقد عمدوني قبل أن أقود الإغريق ـ في شعري ـ إلى بهري طيبة؛ ولكني أخفيت مسيحيتي لما تولاني من الخوف.

٩١ ـ وتظاهرت بالوثنية زمانًا طويلاً؛ وجعلني هذا التواني أدور في الدائرة الرابعة أكثر من أربعة قرون.

٩٤ ـ وإذًا أنت يا من رفعت الحجاب الذي أخفي عني ـ ما أتحدث عنه من الخير العميم ـ فلتخبرني ـ إذا كنت تدري ـ بينما لا يزال لدينا من الوقت.

٩٧ ـ فسحة في سبيل الصعود ـ "أين تيرنسيوس شاعرنا القديم، وأين كيكليوس وابلاوتوس وفاريوس: وقل لي إذا كانوا ملعونين، وفي أية حلقة".

١٠٠ ـ فأجابه دليلي "إنهم وبرسيوس وأنا وكثيرون غيرنا مستقرون مع ذلك الإغريقي، الذي أرضعته ربات الشعر أكثر من غيره أبدًا.

١٠٣ ـ في الحلقة الأولي من المحبس الأعمي، وإننا لنتحدث كثيرًا عن الجبل الذي يحتفظ لديه بحضاناتنا دومًا.

١٠٦ ـ وهناك يستقر معنا أوريبيدس وأنتيفون، وسيمونيدس، وأجاتون، وكثيرون غيرهم من الإغريق، الذين زينوا جباههم قديمًا بأكاليل الغار.

١٠٩ ـ ومن جماعتك ترى هناك أنتيجون، وديفيلي، وأرجيا وترى إيسمين حزينة والهة، كما كانت من قبل على تلك الحال.

١١٢ ـ وهناك تبدو من أبانت عن الطريق إلى لانجا: وهناك ابنة تيريسياس، وتيتيس، وديداميا وشقيقاتها".

١١٥ ـ وكان قد سكت الآن كلا الشاعرين، وانتبها من جديد للتطلع إلى ما حواليهما، محررين من الصعود والحوائط.

١١٨ ـ وإلى الوراء كانت قد تخلفت أربع من حوريات النهار، وصارت خامسهن عند عريش العربة، وإلى أعلى ظلت توجه القرن المشتعل.

١٢١ ـ حينما قال دليلي "أعتقد أنه ينبغي علينا أن نتجه بيسمي كتفينا إلى الحافة، في دوراننا حول الجبل، كما اعتدنا أن نفعل ذلك".

١٢٤ ـ وهكذا كانت العادة هناك دليلنا، وسرنا في طريقنا وقد قلت وساوسنا، بتأييد من تلك النفس النبيلة ورضاها.

١٢٧ ـ ومضيا كلاهما أمامي، وسرت من خلفهما وحيدًا، وأصغيت إلى أحاديثهما التي ألهمتني من الشعر فنونًا.

١٣٠ ـ ولكن سرعان ما توقف حديثهما العذب، حين لقينا في عرض الطريق شجرة محملة بفاكهة ذكية الرائحة أرجة العطر.

١٣٣ ـ وكما تستدق شجرة الصنوبر من فرع لآخر صوب قمتها، هكذا استدقت تلك الشجرة في أسفلها ـ وأعتقد لكيلا يتسلقها أحد.

١٣٦ ـ وفي الجانب الذي كان فيه طريقنا مغلقًا، انسابت من الصخرة العالية مياه صافية، وأخذت تنتثر على أوراق الشجرة.

١٣٩ ـ واقترب الشاعران من الشجرة، ومن بين أوراقها صاح صوت قائلاً: "إنكما لن تنالا من هذا الغذاء شيئًا".

١٤٢ ـ ثم قال "لقد فكرت ماريا ـ التي تستجيب لكم الآن ـ كيف يصبح ذلك العرس مشرفًا مستكملاً، أكثر من تفكيرها في حاجة فمها.

١٤٥ ـ ونساء روما القديمات كن يشربن الماء قانعات؛ وازدري دانيال الطعام ولكنه اكتسب الحكمة.

١٤٨ ـ والعصر الأول ـ الذي كان جميلاً كالذهب ـ بالجوع سوي ثمار البلوط شهية الطعم، وبالظمأ صنع من مياه كل جدول كوثرًا.

١٥١ ـ وكان الجراد والعسل هما تغذي بهما يوحنان المعمدان في فيافي الصحرا؛ ولذا فهو عظيم وممجد.

١٥٤ ـ كما يتضح لكم في الكتاب المقدس".

***

الأنشودة
23

أخذ دانتي ينظر على الشجرة الخضراء - رمز الحياة - فاستحثه فرجيليو على المسير، فمضي في سيره وهو يصغي إلى بكاء النهمين وترتيلهم، وأحس بجمع من الأشباح يسيرون في صمت وخشوع، وجاءوا من وراء الشعراء الثلاثة وسبقوهم ونظروا إليهم في دهشة وعجب، وكانوا شديدي الهزال حتى بدت محاجر عيونهم كخواتم خلت من جواهرها ورأي دانتي شبحًا مشوهًا نطق ببعض الكلمات فعرفه من صوته، وكان هو صديقه فوريزي دوناتي الفلورنسي سأل فوريزي دانتي عن شخصه وعن الشبحين اللذين كانا معه، فلم يجب دانتي توًا بل استفسر عن حالة هو، فقال فوريزي إن عذاب من اتبعوا شهوة حلوقهم هو أن يصيبهم الهزال ويتطهروا هنا بالجوع والعطش اللذين تثيرهما الفاكهة ورذاذ الماء المتساقط على الشجرة، ويتجدد عذابهم كلما مروا أمامها في دورانهم سأل دانتي فوريزي كيف صعد إلى هذا الإفريز السادس، وكان ينبغي عليه أن يبقي زمنًا أطول مع الكسالي في مدخل المطهر، فأجابه فوريزي بأن زوجته نيلاً قد حملته بدموعها على التوبة في الدنيا، وأخرجته بصلواتها من شاطئ الكسالي في المطهر، وهي محبوبة من الله ولا نظير لها في فعل الخير. وخاطب دانتي بإعزاز قائلاً إنه يتنبأ بالقوانين التي ستمنع الفلورنسيات الصفيقات الوجوه من المسير وهن عاريات الصدور والثدي، وإنهن لو عرفن ما تهده لهن السماء لفغرن أفواههن باكيات نادمات على آثامهن وذكره دانتي بحياتهما معًا في عهد الشباب، وقال إن فرجيليو قد أخرجه من الحياة الدنيا منذ قليل، وقاده بجسمه الحي خلال عالم الجحيم، وصعد به إلى جبل المطهر، وسيصحبه حتى يلقي بياتر يتشي، وقال إن الآخر - أي استاتيوس - هو من ارتجف من أجله الجبل عند تطهره من قبل.

١ ـ بينما كنتب أمعن النظر في الأفرع الخضراء، كما اعتاد أن يفعل من ينفق حياته في مطاردة صغار الطير.

٤ ـ قال لي ـ من هو لدي أكثر من أب: "فلتأت هنا يا بني الآن، إذ ينبغي أن نقضي الوقت المحدد لنا على نحو أنفع".

٧ ـ فلفت وجهي إليه، ولم يكن خطوي أقبل سرعة وراء الحكيمين اللذين كانا يتحدثان بطريقة، جعلت مسيري بدون عناء قط.

١٠ ـ وإذ بي أسمع في ثنايا البكاء والترتيل "يا رب افتح شفتي"، تقال بطريقة بعثت فينا البهجة والألم معًا.

١٣ ـ فبدأت: "ما هذا الذي أسمع يا أبتاه الحبيب؟" فقال لي "إنها أشباح ربما تسير لكي توفي ما عليها من الدين".

١٦ ـ وكما يفعل الحجاج المتفكرون، حينما يبلغون في طريقهم قومًا غير معروفين لديهم، فيلتفتون إليهم بلا توقف.

١٩ ـ هكذا تقدم من خلفنا بسرعة جمع من النفوس الصامتة الخاشعة، وأقبلوا نحونا، وتجاوزونا، وهم ينظرون في عجب.

٢٢ ـ كان كل منهم أغبر العينين أجوفهما وشاحب الوجه شديد الهزال، حتى تشكلت جلودهم بصورة عظامهم.

٢٥ ـ ولا أعتقد أن إريسكتون كان قد هزل بالصوم حتى جلده وعظمه، حينما اشتد خوفه من ذلك.

٢٨ ـ وقلت في نشي متفكرًا "ها هم القوم الذين فقدوا أورشليم، عندما أنشبت ماريا إلغازار أسنانها في أبها!".

٣١ ـ ولقد بدت محاجر عيونهم خواتم بلا درر وإن من يقرأ في وجه الرجال كلمة يتبين هنا في وضوح حرف MOMO .

ـ من ذا يعتقد ـ بغير أن يدي السبب ـ أن شذا ماء أو أريج تفاحة، يمكنهما إغراء 34 الإنسان بإثارة شهيته هكذا؟

٣٧ ـ كان قد تولاني العجب لما يجيعهم على ذلك النحو، إذ لم يكن قد اتضح لي بعد مبعث هزالهم ولا تغضن جلودهم البشعة.

حينما التفت إلى شبح بعينيه من غور رأسه، وحملق في النظر؛ ثم صاح عاليًا "يا لها من نعمة منحت لي!".

٤٣ ـ وما كنت لأتبينه أبدًا وجهه، ولكن اتضح لي من صوته ما أخفاه التشويه من معالم وجهه.

٤٦ ـ وأشعلت هذه الشرارة أوار معرفتي بملامحه المتغيرة، فتبينت فيها وجه دوناتي فوريزي.

٤٩ ـ فتوسل إلى قائلاً: "آه، لا تحفلن بالقشور الجافة التي تجعل جلدي شاحب اللون، ولا بما نالني من هزال الجسد.

٥٢ ـ ولكن أصدقني القول من نفسك، وقل لي من هاتان النفسان اللتان تلزمان هناك رفقتك ولا ظل هكذا صامتًا بدون أن تحدثني!".

٥٥ ـ فأجبته "إن وجهك الذي بكيته حين موتك: يسبب لي من الألم ما لا يقل عن ذي قبل، ويبكيني حينما أراه مشوهًا على هذه الحال.

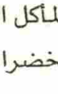
٥٨ ـ ولكن بالله خبرني، ما الذي يجردك هكذا من أوراقك ولا تحملني على الكلام بينما يأخذني العجب، إذ لا يحسن القول من هو برغبة أخرى مفعم".

٦١ ـ فقال لي: "من الحكمة الأزلية يهبط في الماء فضل، كما على الشجرة التي خلفناها، وبذا ينالني منه هذا النحول.

٦٤ ـ فإن كل هؤلاء القوم الذين يرتلون في بكائهم، لأنهم اتبعوا شهوة حلوقهم فوق كل حساب ـ يستعيدون هنا طهارة نفوسهم بالجوع والظمأ.

٦٧ ـ ويذكي شهيتنا إلى الشراب والمأكل الأريج المنبعث من الفاكهة ومن رذاذ الماء الذي ينثر فوق على الأوراق الخضراء.

٧٠ ـ وفي دوراننا خلال هذه الدائرة، لا يتجدد عذابنا مرة واحدة فحسب، وأقول عذابنا، وكان يجدر بي أن أقول بهجتنا.



٧٣ ـ إذ تقودنا إلى الشجرتين ، ذات الرغبة التي حملت المسيح على أن يقول "إلهي" مبتهجًا، حينما خلصنا بدمه المراق".

٧٦ ـ فقلت له "يا فوريزي ـ منذ ذلك اليوم الذي استبدلت فيه بالحياة الدنيا حياة أفضل، لم تنقض بعد حتى هذه اللحظة خمس سنوات.

٧٩ ـ وإذا كانت قد امتنعت قدرتك على ارتكاب المزيد من المعاصي، قبل أن تحل ساعة التكفير العذب الذي يعيد ارتباطنا بالله.

٨٢ ـ فكيف جئت سريعًا هنا فوق؟ لقد ظننت أني واجدك هناك تحت في أسفل، حيث يعوض عن الزمن بالزمن".

٨٥ فقال لي "إنها عزيزتي نيلا، التي حملتني سريعًا بفيض دموعها، على أن أشرب للعذاب شيحًا حلو المذاق.

٨٨ ـ وبصلواتها الخاشعة وتنهدها العميق ـ أخرجتني من الشاطئ، حيث تقف مرتقبة أرواح المتطهرين، وخلصتني من الدوائر الأخرى.

٩١ ـ إن أرملتي العزيز التي شغفت بها حبًا، تلقي لدي الله شديد الإعزاز وفائق المحبة، بقدر ما هي فريد في فعل الخير.

٩٤ ـ إذ أن باربادجا السردينية تبدو بنسائها أكثر خمسة، مما تبدو عليه باربادجا التي تركتها فيها.

٩٧ ـ وماذا تريدني أن أقول يا أخي العزيز؟ ففي باصرتي الآن زمان مقبل، لن تكون هذه الساعة بالنسبة إليه بعيدة القدم.

١٠٠ ـ ولفيه ستمنع ـ من فوق المنبر ـ نساء فلورنسا الصفيقات الوجوه من السري مظهرات صدورهن وثيديهن.

١٠٣ ـ وأية بربريات عشن أبدًا وأية وثنيات كن في حاجة إلى تعاليم روحية أو غيرها من النظم، لحملهن على السير محتشمات؟

١٠٦ ـ ولكن لو أن عادمات الحياء كن عارفات بما تعده لهن السماء السريعة الدوران ـ لكن قد فغرن أفواههن للعواء الآن.

١٠٩ - لأنه إذا لم يكن ما أتنبأ به هنا أمرًا خادعًا، فسينال منهن الآسي قبل أن ينبت الشعر على خدي من يهدهد في المهد الآن.

١١٢ - إيه يا أخي - فلتعمل الآن على ألا تخفي عني شيئًا! وإنك تري أني لست وحدي - بل إن هؤلاء القوم يتطلعون جميعًا - إلى حيث تحجب الشمس".

١١٥ - ولذا أجبته "لو أنك استعدت إلى ذاكرتك كيف كنا وكيف عاش كل منا في رفقة صاحبه، لظلت ذكريات حياتنا ثقيلة الوقع علينا في هذه الآونة.

١١٨ - وإن من يسير أمامي هو الذي أخرجني من تلك الحياة منذ بضع ليال، حينما بأن لك مستديرًا، شقيق من هي في تلك الناحية".

١٢١ - وأشرت إلى الشمس "وفي ظلمة الليل البهيم لمن ذاقوا حقًا طعم المنون، اقتادني ذلك الشبح بهذا الجسد الحي الذي يتابعه.

١٢٤ - وبتشجيعه اجتذبني من هناك إلى أعلى، وهو يصعد دائرًا حول الجبل الذي يقومكم، يا من انحرفت بكم شهوات الدنيا.

١٢٧ - ويقول إنه سيبقي في صحبتي حتى أبلغ موضع بياتريشتي، و لولاه لكان من الحتم على أن أظل هنالك.

١٣٠ - إنه فرجيليو هو الذي يحدثني على هذا المنوال"، وأشرت غليه؛ "والآخر هو الشبح الذي ارتجفت مملكتك من أجله في كل منحدراتها.

١٣٣ - منذ هنيهة، إذ تحرر منه نفسها".

***

الأنشودة
24

سار الشعراء الثلاثة ومعهم فوريزي دوناتي، ولم يتأخر مسيرهم بالكلام كما لم يتعطل كلامهم بالمسير وعرف دانتي أن بيكاردا دوناتي موجودة في الفردوس، وأشار فوريزي إلى الشاعر بونادجونتا والبابا مارتينو الرابع، ورأي دانتي أوبالدينو دلا بيلا يمضغ على فراغ بسبب الجوع، ورأي مركيز دلي أرجوليوزي وسمع بونادجونتا يهمهم باسم جنتوكا قال بونادجونتا إن جنتوكا التي لا تغطي رأسها بعصابة بعد ستجعل لوكا بهيجة حينما يزورها دانتي وتساءل بونادجونتا هل يري الشاعر الذي قال: "أيتها النساء اللائي تدركن جوهر الحب" فقال دانتي إنه رجل يتمعن حينما يلهه الحب ويعبر عنه بوحي عاطفته، وبذلك أدرك بونادجونتا الفارق بين دانتي وغيره من الشعراء السابقين الذين كان شعرهم تقليديًا وتعجل هؤلاء القوم المسير كما تفعل الكراكي حينما تزمع الانتقال لقضاء الشتاء في بلاد النيل، وتخلف فوريزي عنهم وسأل دانتي متى يراه ثانيًا، فقال إنه لن يرجع سريعًا، ولن يسرع بناء على رغبته في العودة إلى شاطئ المطهر، وتنبأ بما سينال فلورنسا من الويلات قال فوريزي: إنه يري أخاه كورسو مسحوبًا عند ذنب دابة تعذبه في الجحيم وانطلق فوريزي سريعًا كما يخرج فارس من بين جماعته لكي ينال شرف الالتحام بالعدو أولاً، وبقي دانتي مع فرجيليو واستاتبوس وبعد سير طويل رأي دانتي شجرة أخرى محملة بالثمر ورأي تحتها قومًا يصيحون ويرفعون أيديهم كالأطفال الذين يطلبون الفاكهة بدون أن ينالوها وسمع دانتي أمثلة تقال عن خطايا النهم، مثل القنطس الذين قاتلهم تيزيوس وهم سكاري واليهود الذين شربوا الماء كالكلاب، ومضي الثالثة في سيرهم وهم يتفكرون بدون كلام. وسمع دانتي

ملاك الاعتدال يسألهم لم يسيرون على هذه الحال من التفكير؟ وخطف بريقه نظر دانتي، وأحس بجناحي الملاك تزيلان من جبهته خطيئة النهم.

١ ـ لم يهدأ كلامنا بالمسير كما لم يبطئ مسيرنا بالكلام، ولكننا سارعنا الخطي خلال حديثنا، كسفينة تدفعها رياح مؤاتية.

٤ ـ والأشباح التي بدت ككائنات قات مرتين كأس الحمام، ظهرت بشأني في أوقاب عيونها أماراتالعجب ـ حينما تبينت أني على قيد الحياة.

٧ ـ وقلت متابعًا حديثي "ربما تسير في هذه الروح إلى أعلى ببطء أشد مما كان ينبغي لها ـ بسبب شخص آخر.

١٠ ـ ولكن خبرني إذا كنت تعرف أين بيكاردا، وقل لي إذا كنت أري شخصًا جديرًا بالاعتبار، بين هؤلاء القوم الذين يمنعون أنظارهم".

١٣ ـ "إن شقيقتي ـ التي لا أدري أتفوقت في جمالها أم في حسن شمائلها ـ تظفر الآن مبتهجة بتاجها فوق أوليمبس العالي".

١٦ ـ هكذا تكلم لأول وهلة، ثم تابع كلامه: "ليس هنا ما يمنع من تسمية كل شبح باسمه، ما دام الصوم قداعتصر ملامحنا إلى هذه الحد".

١٩ ـ ثم أشار بأصبعه قائلاً: "هو ذا بوناد جونتا، بوناد جونتا دا لوكا؛ وذاك الوجه من بعده ـ الذي اشتد هزاله عن سائر رفاقه:

٢٢ ـ كان قد احتضن بين ذراعيه الكنيسة المقدسة وأصله من مدينة تور، وهو بالصوم يتطهر من ثعابين بحيرة بولسينا ومن نبيذ فرناتشا".

٢٥ ـ وروي لي أسماء كثيرين غيهما واحدًا فواحدًا؛ وبدوا جميعًا أنهم راضون بتسميتهم، إذ لم أر بيهم وجهًا كدًا.

٢٨ ـ ورأيت أو بالدينو دلأ بيلا، يضمغ بأسنانه على فراغ من أثر الجوع، ونظرت بونيفاتزيو الذي رعي خلقًا كثيرًا بعصاه ذات (الطابية).

٣١ ـ ورأيت السيد المركيز الذي أتيح له يومًا أن يشرب في فورلي، بدون أن يستشعر شديد العطش، غير أنه كان إلى الخمر طمآنًا بدون أتن يرتوي منها أبدًا.

٣٤ ـ ولكن كما يفعل من ينظر ثم يقدر شخصًا أكثر من غيره، هكذا فعلت مع ذلك المواطن اللوكي، الذي بدا أشد حرصًا على التعرف إلى.

٣٧ ـ وكان يهمهم؛ وسمعت شفتيه ترددان بدا كأنه "جنتوكا"، إذ أحس جرح العدالة التي تجرده على ذلك النحو.

٤٠ ـ فقلت "أيها الروح الذي يبدو مشوقًا للتحدث إلى، فلتحرص على أن أفهم طويتك، ولتدع حديثك يرضينا كلينا".

٤٣ ـ فبدأ "لقد ولدت صبية ـ لا تضع بعد على شعرها عصابة ـ وستجعل مدينتي لديك بهيجة، على الرغم من لوم الناس إياها.

٤٦ ـ وإنك بهذه النبوءة لذاهب إليها: وإذا كنت قد استخلصت من همهمتي خطأ، فستوضحه لك بعد الوقائع الصحيحة.

٤٩ ـ ولكن خبرني إذا كنت سأري هنا من ابتدع القوافي الجديدة التي مطلعها: "أيتها النساء اللائي تدركن جرهر الحب".

٥٢ ـ فقلت له: "إنني رجل أفطن إلى الحب حينما يلهمني، وأمضي متغنيًا به كما تمليه على نوابض قلبي".

٥٥ ـ فقال "يا أخي، إنني أتبين الآن العقدة التي أبقت الموثق، وجويتوني، وإياي، بعيدين عن الأسلوب العذب الجديد الذي يبلغ سمعي.

٥٨ ـ وإنني لأري بوضوح كيف تتبع أقلامكم عن كثب، الصوت الذي يملي عليها، وهو ما لم يحدث لأقلامنا قط.

٦١ ـ وإن من يبتغي من الإدراك مزيدًا، لا يري سوي ذلك من فارق بين كلا الأسلوبين"؛ وصمت كأنه قد اقتنع بذلك.

٦٤ ـ وكالكراكي التي تقضي فصل الشتاء على ضفاف النيل، فتصنع من نفسها سربًا في الهواء أحيانًا، ثم تجمع جماع سرعتها وتطير منطلقة في صف واحد.

٦٧ ـ هكذا عجل خطاهم كل القوم الذين كانوا هنالك، لافتين عنا وجوهه، خفافًا بهزالهم وبالشوق الذي يحدوهم إلى الجري.

٧٠ ـ وكالرجل الذي يرهقه العدو، فيدع رفاقه يتجاوزونه، ويسير وئيدًا حتى يهدأ لهث صدره.

٧٣ ـ هكذا ترك فوريزي الجمع المبارك يتجاوزوه، وسار معي إلى الخلف قائلاً "متى أعود إلى رؤيتك؟".

٧٦ ـ فأجبته "لست أدري كم أمكث حيًا؛ ولكن عودتي لن تكون سريعة، غير أني سأكون بقلبي مسراعًا على الشاطئ.

٧٩ ـ إذ أن المكان الذي جعل لكي أعيش فيه، يزداد تجرده من الخير يومًا فيومًا، ويبدو مقدرًا عله دمار تاعس".

٨٢ ـ فقال لي: "فلتذهب عني الآن، لأن من يناله من ذلك ملامة أعظم، أراه مسحوبًا عند ذنب دابة، صوت الوادي الذي لا تتطهر فيه المعصية أبدًا.

٨٥ ـ وفي كر خطوة تزيد سرعة الدابة، ويشتد عدوها أبدًا حتى تركله، تاركة جسده مشوهًا في أبشع صورة".

٨٨ ـ وإلى السماء رفع عينيه قائلاً "ولن تدور هذه الدوائر كثيرًا، حتى تستبين ما لا يقوي كلامي على زيادة إيضاحه.

٩١ ـ وإني لتاركك الآن؛ إذ أن وقتنا في هذه المملكة ثمين، وسأضيع منه قدرًا كبيرًا إذا ما سرت معك وئيدًا جنبًا إلى جنب".

٩٤ ـ وكما يندفع عدوًا ذات مرة فارس من فصيلة تمتطي صهوات الجياد، وينطلق لكي ينال شرف الالتحام الأول.

٩٧ ـ هكذا ابتعد عنا بخطي سراع؛ وبقيت في الطريق مع هذين الاثنين، اللذين كانا في الدنيا معلمين جليلي القدر.

١٠٠ ـ وحينما ازداد بعده عنا، وأخذت عيناي تتابعان حركة عدوه، كما تابع عقلي مضمون كلماته.

١٠٣ ـ بدت لي أفرع محملة يانعة من شجرة تافع أخرى، ولم تكن كثيرة البعد عنا، إذ كنت قد اتجهت نحوها عندئذ فحسب.

١٠٦ - ورأيت تحتها قومًا يرفعون أيديهم ويصيحون نحو أفرعها، لا أدري بماذا، كأطفال نهمين لا يقوون على شيء.

١٠٩ - ويرجون، والمرجو لا يستجيب إليهم، ولكي يذكي من أوار شهيتهم، يرفع عاليًا ما يرغبون فيه بدون أن يخفيه عنهم.

١١٢ - ثم ارتحلوا كأن لم تساورهم في طلبتهم خديعة، وسارعنا الخطى إلى الشجرة العظيمة التي لا تستجيب للضراعة ولا للدموع الغزيرة.

١١٥ - "فلتمضوا في سبيلكم قدمًا بدون أن تقربوها فهناك شجرة تعلوها، وسبق أن أكلت منها حواء، وما هذه الشجرة سوي نبتة منها".

١١٨ - هكذا كان يتكلم - من بين أفرع الشجرة - من لست أعرفه؛ ولذا سرنا إلى الأمام متلاصقين فرجيليو واستاتيوس وأنا، في الجانب الذي يذهب صعدًا.

١٢١ - وقال "فلتذكروا أبناء السحاب الملعونين، الذين قاتلوا تيزيوس - وهم أن يتخذهم له رفاقًا، حينما هبط التلال صوب ميديان".

١٢٧ - هكذا سرنا ملاصقين لإحدى الحافتين، ونحن نصغي إلى خطايا النهم التي تلتها الثمرات الوخيمة.

١٣٠ - ثم تباعدنا، ومضينا إلى الأمام أكثر من ألف خطوة في عرض الطريق الخالي، وكان كل منا يتفكر بدون أن ينطق أحدنا بكلمة.

١٣٣ - وقال صوت مفاجئ "لم تذهبون ثلاثتكم منفردين وأنتم تقدحون زناد الفكر؟"؛ ولذا ارتجفن كما تفعل صغار الحيوانات حينما تفزع.

١٣٦ - فرفعت رأسي لكي أري من كان ذلك الذي تكلم؛ ولم ير في أتون أبدًا زجاج أو معادن متوهجة شديدة الحمرة.

١٣٩ - كما رأيت من يقول "إذا راق لكم السير صعدًا فينبغي عليكم أن تولوا شطر هذه الناحية؛ فهنا الطريق لمن يذهب سعيًا في طلب السلام".

١٤٢ - ففقدت برؤيته إبصاري؛ ولذا تراجعت إلى ما وراء أستاذي، كمن يسير مسترشدًا بما يبلغ سمعه.

١٤ ـ وكما تهب أنسام الربيع ـ بشيرة الفجر ـ باعثة ذكي الشذا، وهي مفعمة بأريج العشب والأزهار.

١٤٨ ـ هكذا أحسست نسمة تلمس منتصف جبيني، وشعرت بهفهفة أجنحة، بعثت في الأنسام شذًا عطرًا.

١٥١ ـ وسمعت من يقول "طوبى لمن تغمرهم بنورها نعمة الله، حتى لن تثير شهوة الطعام في نفوسهم شديد اللهفة إليه.

١٥٤ ـ إذ يجوعون جوعًا عادلاً أبدًا!".

***

الأنشودة
25

صعد الشعراء الثلاثة السلم الذي يؤدي على الإفريز السابع - إفريز شهوة الجسد - و هم دانتي بالكلام ولكنه لم يستطع، وكان في ذلك كفرخ الطير الذي يحاول الطيران بدون جدوي، فشجعه فرجيليو على الكلام، فتساءل كيف ينحف الشبح وهو غير محتاج إلى الغذاء، فحاول فرجيليو إيضاح الأمر له بمثال عن ميلياجرو وبمثال عن تحرك صورة الإنسان داخل المرآة ثم قال استاتيوس إن الدم النقي عند الرجل - النطفة - ينال في القلب القدرة التي تشكل أعضاء الإنسان وتمنحها خصائصها، وقال إن دم الرجل يمتزج بدم المرأة، ويتجمد الأخير وتبعث فيه الحياة، ويتحول المخلوق من حيوان إلى إنسان بطريقة يعجز عن إدراكها الفلاسفة، وينفث الله في الجنين روحًا ويصنع نفسًا كاملة وقال إنه حينما ينتهي عمر الإنسان تخرس القوي البشرية ولكن النفس العاقلة لا تموت، بل تصبح أشد مضاء في فعلها، وتهبط عند شاطئ أكيرونتي أو عند مصب التيبر، وتشع من حولها القوة المشكلة بذات صورتها كما كانت في الحياة، وبذلك تصبح شبحًا - أو طيفًا مرئيًا، ولذا تتكلم الأشباح والأطياف وتضحك وتبكي وتتنهد. وبلغ الشعراء الثلاثة منطقة يطلق فيها الجبل نارًا عبر الطريق، وفي مقابلها تهب ريح تزيح النار فتفسح طريقًا للعبور وسمع دانتي ترتيل المتطهرين من خطايا الجسد، ورأي أرواحًا تسير وسط النار، ثم سمع نشيدًا عن العذراء ماريا ونشيدًا عن ديانا وهيليس، وعلى هذا النحو كانت تلك الأرواح تتطهر من آثامها.

١ - كانت قد حلت الساعة التي لا تحتمل فيها الصعود وقوفًا؛ إذ خلفت الشمس دائرة الزوال لبرج الثور، وخلفها الليل لبرج العقرب.

٤ ـ ولذا فإنه كما يفعل الرجل الذي لا يتوقف، بل يمضي في طريقه مهما اعترضه من العقبات ـ إذ حفزه إلى ذلك دافع من الحاجة.

٧ ـ هكذا دخلنا خلال الثغرة، وتقدمنا واحدًا فواحدًا ونحن نرتقي السلم، الذي يفرق بين الصاعدين عليه لضيق درجاته.

١٠ ـ وكما يرفع جناحيه فرخ اللقلق وهو في الطيران راغب، ولكنه لا يجرؤ على مبارحة عشه، فيخي جناحيه إلى أسفل.

١٣ ـ هكذا أصبحت بالرغبة في السؤال التي اشتعلت في صدري ثم خبت، بعد أن تحركت شفتاي كمن يهم بالكلام.

١٦ ـ وعن الكلام لم يسكت أبي الحبيب على رغم سرعة سيره، بل قال "فلتطلق قوس كلماتك، الذي سحبته حتى طرف سهمك".

١٩ ـ عندئذ فتحت فاهي مطمئنًا للكلام؛ وبدأت "كيف يتأتي للأرواح صعب عليك إدراك ذلك.

٢٥ ـ ولو فكرت كيف أن صورتك في المرآة تتبع في حركتها السريعة ذات حركاتك، لأدركت في يسر ما يبدو لك أمرًا صعب الفهم.

٢٨ ـ ولكن لكي تجد نفسك الراحة فيما تتطلع إليه، فلتنظر إلى استاتيوس، وإني لأدعوه وأرجوه أن يكون مبرئ جراحك الآن".

٣١ ـ فأجاب استاتيوس "إذا كشفت له هنا في حضورك عن الحقائق الأبدية، فليكن عذري أني لا أستطيع أن أرفض لك طلبًا".

٣٤ ـ ثم بدأ "إذا تلقي عقلك يا بني كلماتي ووعاها، فستلقي ضوءًا على ما ألقيته على من سؤال.

٣٧ ـ إن الدم النقي الذي لا تتشربه الشرايين العطاش أبدًا، ويبقي كغذاء شأنه أن يرفع عن المائدة.

٤٠ ـ ينال في القلب قوة تمنح الخصائص لكل أعضاء الإنسان، كما ينساب سائر الدم في الشرايين لكي يبني تلك الأعضاء.

٤٣ ـ وحينما يزداد نقاؤه، ينزل حيث السكوت أجمل من الكلام؛ ثم يقطر على دم الغير في الوعاء المعد لذلك.

٤٦ ـ وهناك يمتزجان معًا الواحد بالآخر، أحدهما سلبي بطبعه، والآخر إيجابي بكمال الموضع الذي ينبثق منه.

٤٩ ـ وعندما يتحد هذا بذاك ـ يشرع في عمله متخثرًا بادئ ذي بدء، ثم يمنح الحياة لما تكون من تجمد الدم.

٥٢ ـ ولما تصبح تلك القوة الفعالة نفسًا كنفس النبات ـ وتختلف عنها إذ لا يزال عليها أن تشق طريقها، على حين تكون الأخيرة قد بلغت مرساها.

٥٥ ـ تواصل عندئذ نموها، وإذ بها تتحرك وتحس كما يفعل فطر البحر؛ثم تأخذ في صنع أعضاء للقوي التي هي بذرة لها.

٥٨ ـ والآن ـ يا بني ـ تنمو وتمتد القوة المنبثقة من قلب الإنسان، حيث تزود الطبيعة بها كل أعضائه.

٦١ ـ ولكنك لا تزل غير مدرك كيف يصبح الحيوان كائنًا عاقلاً وإنها لمسألة أضلت من هو أكثر منك علمًا.

٦٤ ـ حتى إنه قد ميز في شرحه بين النفس والعقل الفعال، إذ لم ير أنه قد اتخذ له عضوًا.

٦٧ ـ ولتفتح صدرك للحقيقة الآتية؛ ولتعلم أنه حينما يصبح بناء المخ في الجنين مكتملاً.

٧٠ ـ يتجه إليه المحرك الأول، مبتهجًا بمثل هذه الآية التي صنعتها الطبيعة، وينفث فيه روحًا جديدة مفعمة بقوة.

٧٣ ـ تجذب إلى جوهره ما يجده فعالاً هنالك، ويصنع نفسًا واحدة، تحيا وتحس وتدور بنفسها على نفسها.

٧٦ ـ ولكي قل عجبك من كلامي، فلتنظر إلى حرارة الشمس التي تستحيل نبيذا، حين تمتزج بالعصير الذي يفيض من الكرم.

٧٩ ـ وعندما لا يصبح لدى لاخيسيس مزيداً من الكتان، تتحرر النفس من جسدها، وتحمل معها كلتا القوتين البشرية والإلهية.

٨٢ ـ وتتعطل سائر القوى الحاسة جميعًا، ولكن الذاكرة والإدراك والإرادة تصبح في فعلها أكمل مما كانت عليه من قبل.

٨٥ ـ ومن تلقاء ذاتها ودون تلبث تسقط بأعجوبة عند ضفة أحد النهرين: وهناك تعرف لأول وهلة مسالكها.

٨٨ ـ وحينما يحتويها هناك مكانها الملائم، تشع من حولها القوة المشكلة بذات صورتها وحجمها اللذين كانا لها في أعضائها الحية.

٩١ ـ وكما حينما يتشبع الهواء بالأبخرة، يأخذ في التزين بألوان مختلفة؛ بالأشعة المنعكسة عليه من غيره.

٩٤ ـ هكذا نجد الهواء القريب إلينا، يتخذ تلك الهيئة التي تدمغه بها النفس، بما لها من القوة الكامنة حين تستقر هنالك.

٩٧ ـ ثم تتبع الصورة الجديدة روحها، على نحو ما تتبع الشعلة نارها في كل مكان تنتقل إليه.

١٠٠ ـ ولما كانت بذلك تصبح مرئية، فقد سميت شبحًا، ثم تصنع بعدئذ أعضاء لكل حواستها حتى حاسة النظر.

١٠٣ ـ وبذلك نتكلم وبذلك نضحك؛ وبذلك تذرف الدموع، ونطلق التنهد الذي كان في ميسورك أن تسمعه في مدارج الجبل.

١٠٦ ـ ويتشكل الشبح تبعًا لما تحفزنا إليه رغائبنا وسائر مشاعرنا، وإلى هذا يرجع ما يتملكك من أمارات العجب".

١٠٩ ـ وكنا قد بلغنا عندئذ آخر دوائر العذاب، والتفتنا إلى اليمين، واسترعى انتباهنا شأن آخر.

١١٢ ـ فهنا تندلع من جانب إلى خارجه نار مستعرة، وإلى أعلى يزفر الإفريز بعصفة ريح، تميل بالنار وتنحيها عنه.

١١٥ ـ ولذا كان علينا أن نسير على الجانب المفتوح واحدًا فواحدًا؛ فقد خشيت النار في جانب، وفي الجانب الآخر خفت السقوط إلى أسفل.

١١٨ ـ فقال مرشدي "ينبغي ألا نطلق العنان لأبصارنا في هذا الموضع، إذ ما أيسر أن تزل بنا الأقدام".

١٢١ ـ وعندئذ سمعت في قلب النار المستعرة ترتيلاً يقول: "إلهي يا عظيم الرحمة"، حتى أصبحت بذلك أشد حرصًا على الاتجاه إليه.

١٢٤ ـ ورأيت أرواحًا تسير وسط اللهب، فأخذت أنظر إليها وإلى خطواتي، منقلاً بصري من لحظة لأخرى.

١٢٧ ـ وحينما بلغوا ختام ترتيلهم صاحوا عاليًا "لست أعرف رجلاً"؛ ثم استأنفوا إنشادهم خفيضي الصوت.

١٣٠ ـ ولما اختتموا ما أنشدوه عادوا إلى صياحهم قائلين "لقد ظلت ديانا في الغابة، وطردت منها هيليس التي أحست سم فينوس الزعاف".

١٣٣ ـ وعندئذ عاودوا ترتيلهم، ثم رددوا أسماء سيدات وأزواج عاشوا أطهارًا، كما تقتضيه الفضيلة ويفرضه الزواج.

١٣٦ ـ وأعتقد أنهم يواصلون هذا الأسلوب، طوال الوقت الذي يحترقون فيه بالنار وبمثل هذا العلاج وهذا العذاء.

١٣٩ ـ ينبغي أن يلتئم جرحهم أخيرًا.

***



دانتى وفرجيليو واستاتيوس ينظرون إلى المتطهرين
فى النار من شهوة الجسد

الأنشودة
26

سار الشعراء الثلاثة الواحد أمام الآخر، وظهر ظل دانتي على النار المشتعلة فازدادت توهجًا، فالتفت الأشباح إلى هذه الظاهرة الغريبة، واتجهوا إلى دانتي وهم حريصون على البقاء في نطاق النار قال له جويدو جوينتزلي إنه وجماعته متعطشون إلى معرفة السبب في انعكاس ظله على النار، وعاق دانتي عن الإجابة رؤيته جماعة أخرى تسير داخل النار في اتجاه مضاد، وأخذ أفراد الجماعتين يقبلون بعضهم بعضًا قبلات خاطفة كالنمل حينما يلمس بعضه بعضًا عند تقابله. وصاحت الجماعة الثانية - الملوطون - باسم سدوم وعمورة، وصاحت الجماعة الأولي - مرتكبو الزنا - بما فعلته باسيفي مع الثور، وانفصلت الجماعتان وأخذتا في الإنشاد والبكاء والصياح قال دانتي إنه جاء إلى المطهر بجسمه الحي بفضل النعمة الإلهية واستفسر دانتي عن شخص من كان يتحدث إليه، فأوضح المتكلم خطيئة الجماعة الأولي فالثانية، ثم أفصح عن شخصه بأنه جويدو جوينتزلي. فاتجه دانتي إليه واعتبره كأب له ولسائر الشعراء في المدرسة الفلورنسية الحديثة الذي نظموا الشعر العذب الرقيق، وظل دانتي ينظر إليه متفكرًا بدون أن يلمس النار، ثم أعرب عن استعداده لخدمته، وقال إنه حرص على الكلام معه لشعره العذب الذي سيجعل الحبر المدون به عزيزًا بقدر بقاء اللغة الحديثة وأشار جوينتزلي إلى أرنو دانيل شاعر التروبادور الروفنسي، وقال إنه فاق الجميع في شعر الحب، وسأل دانتي أن يصلي من أجله أمام السيد المسيح، واختفي جوينتزلي في النار كاختفاء السمكة في الماء وقال أرنو لدانتي إنه يبكي من أجل الخطيئة، وإنه يتطلع إلى السعادة المقبلة ويرجو دانتي أن يصلي من أجله، ثم اختفي في النار التي تطهره.

١ ـ بينما كنا نسير على حافة الإفريز، أحدنا أمام الآخر، وردد أستاذي الطيب قوله لي "خذ الحذر، وعسى أن تفيد بتنبيهي إياك".

٣ ـ أصابت الشمس يمني كتفي، وبإشعاعها أحالت أرجاء المغرب من لونه اللازوردي إلى اللون الأبيض.

٧ ـ **وبظلي جعلت شعلة النار تبدو أشد حمرة، ورأيت أشباحًا كثيرة تتطلع في مسيرها إلى هذه الظاهرة فحسب.**

١٠ ـ **وكان ذلك هو ما حملها على أن تأخذ في الحديث عني، فشرعت تقول "لا يبدون هذا الآتي ذا جسد وهمي".**

١٣ ـ ثم دنا بعضها مني قدر استطاعتها، وهي حريصة دومًا على أن تظل حيث تحرقها شعلة اللهب.

١٦ ـ "أيها السائر في إثر الآخرين، لا بطئًا بل ربما احترامًا لهما ـ هلا تجيبني ـ أنا الذي أحترق بالنار والعطش.

١٩ ـ ولست الوحيدة التي أرغب في أن أنال منك جوابًا؛ إذ أن هؤلاء جميعًا أشد ظمأ إليه من الهندي أو الإثيوبي إلى الماء البارد.

٢٢ ـ ولتخبرنا كيف يحدث أن تصنع من نفسك جدارًا قبالة الشمس، كأنك لم تخط بعد إلى شباك الموت".

٢٥ ـ هكذا شرع أحدها يخاطبني؛ وكنت سأفصح عن شخصي، لو لم أكن قد انتبهت لشيء آخر عجيب بدا لي عندئذ.

٢٨ ـ إذ جاء في وسط الطريق الملتهب قوم، اتجهت إلى هؤلاء وجوههم، فجعلوني معلقًا بالتطلع إليهم.

٣١ ـ وهناك أري في كلا الجانبي كل شبح يسارع بدون تلبث إلى لثم الآخر، راضيًا بهذا الترحاب الخاطف.

٣٤ ـ وهكذا يفعل النمل في صفوفه الدكناء، حينما تلقي أفواه بعضها ببعض، ربما لكي تتلمس طريقها أو لتعرف طالعها.

٣٧ ـ وحينما ينتهي أولئك من ترحابهم الصدوق، وقبل أن يتقدموا بأولي خطاهم، يجهد كل منهم نفسه في الصياح بأعلى صوته.

٤٠ ـ وتقول الجماعة التي جاءت أخيرًا "سدوم وعموره"، وتقول الجماعة الأخرى: "تدخل باسيفي في جوف البقرة، لكي يهرع الثور اليافع لإطفاء شهوتها".

٤٣ ـ وكالكراكي، التي يطير جزء منها صوب جبال ريفان وجزء نحو رمال الصحراء، فيتحاشي هؤلاء برد الصقيع وأولئك حرارة الشمس.

٤٦ ـ هكذا تذهب جماعة وتأتي أخرى، ثم يعودون باكين إلى ترديد أناشيدهم السابقة، وإلى الصياح بما هو أخلق بهم وأجدر.

٤٩ ـ وكما حدث من قبل، اقترب مني أولئك الذين كانوا قد اتجهوا نحوي متسائلين، وبدا في أعينهم حرصهم على أن يستمعوا إلي.

٥٢ ـ وأنا الذي كنت قد تبينت رغبتهم البهيجة هاتيك المرتين، بدأت قائلاً "أيتها النفوس الواثقة من نيل السلام ـ متى يحين أوانه.

٥٥ ـ إن أعضاء جسدي لم تبق ناقصة النمو ولا مكتملة في ذياك الجانب، ولكنها معي هنا بدمها ومفاصلها.

٥٨ ـ وإني لصاعد في هذه الطريق لكي أزيل الغشاوة عن بصيرتي: وفي الأعالي سيدة تنال لي النعمة، التي أحمل بها إلى عالمكم جسدي الفاني.

٦١ ـ ولكن قل لي ـ وعسي أن ترتوي عاجلاً أشد رغباتكم إلحاحًا ـ حتى تأويكم السماء المفعمة بالمحبة والممتدة إلى أطراف الفضاء.

٦٤ ـ قل لي من أنت ـ لكي أدونه بعد في صفحاتي ـ ومن هذه الجماعة التي تمضي من وراء ظهوركم في سبيلها نائية عنكم؟".

٦٧ ـ ولا يختلف ما يتملك ساكن الجبل من الاضطراب إذ يأخذه العجب، وينعقد لسانه إذ يتطلع، حين يرد المدينة بطبعه الخشن الشرس.

٧٠ ـ لا يختلف هذا عما بدا على وجه كل شبح منهم؛ ولكن عندما تخلصوا من عجبهم ـ وسرعان ما يحدث ذلك لذوي القلوب الكبيرة.

٧٣ ـ استأنف كلامه من سألني من قبل: "طوبي لك يا من توسق سفينتان بثمرة الخبرة من شواطئنا ـ حتى تموت على أفضل حال!

٧٦ ـ لقد زل القوم الذين لا يسيرون في طريقنا، بما سمع به قيصر هو ظافر، لفظ "ملكته" يتردد عاليًا على الألسنة في مواجهته.

٧٩ ـ ولذلك فإنهم يرتحلون لائمين أنفسهم صائحين "سدوم" ـ كما طرق سمعك ـ وبخجلهم يذكون ضرام اللهب.

٨٢ ـ كانت زلتنا هي زلة هرمافروديتوس؛ ولأننا لم نتبع شرعة البشر ـ باتباعنا ـ كالبهائم ـ شهوة الجسد.

٨٥ ـ فإننا ـ حين نفترق ـ نصبح لعارنا باسم من جعلت من نفسها مطية ـ في بطن البقرة المصنوعة من الخشب.

٨٨ ـ وإنك لتعرف الآن فعالنا وما أوردنا موارد المعصية؛ وإذا أتفق أنك في معرفتنا بأسمائنا راغب، فلا مجال الآن لذكرها، ولست بها خبيرًا.

٩١ ـ ولكنني سأرضي رغبتك فيما يخصني إنني جويدو جوينتزلي: ولقد بادرت إلى التطهر لأني بلغت غاية الندم، قبل حلول ساعتي الأخيرة".

٩٤ ـ وكما عاد الابنان لرؤية أمهما، حينما استولي الحزن على ليكورجوس، هكذا فعلت ـ وإن كنت لا أبلغ مبلغهما.

٩٧ ـ عندما أسمع أبي يذكر اسمه ـ والذي هو أب لسائر من يفضلونني ـ بنظمهم أشعار المحبة العذبة الرقيقة.

١٠٠ ـ وسرت طويلاً وأنا أفكر وأتطلع إليه، بدون أن أصغي لصوت أو أنطق بكلمة، وعاقتني النار عن أن ازداد اقترابًا إليه.

١٠٣ ـ وبعد أن أشبعت عيني من النظر إليه، أفصحت عن أهبتي للتفاني في خدمته، بالقسم الذي يبعث الثقة في قلوب الناس.

١٠٦ ـ فقال لي "إنك تترك في نفسي ـ بما أسمعه منك ـ أثرًا بالغ العمق شديد الوضوح ـ حتى لتعجز مياه ليتي عن محوه أو طمسه.

١٠٩ ـ ولكن إذا كانت كلماتك الآن بالصدق قد أقسمت، فلتخبرني بما يجعلك تبدي لي محبتك في كلامك ونظرتك".

١١٢ ـ فقت له: "إنها أشعارك العذبة، التي ستحفظ مدادها عزيزًا غاليًا طالما تحيا لغتنا الحديثة".

١١٥ ـ قال "إن هذا الذي أميزه لك بسبابتي يا أخي" ـ وأشار إلى روح تقدمنا إلى الأمام ـ "كان أبرع مني نظمًا في لغته الأم.

١١٨ ـ ولقد فاق الجميع في شعر المحبة وفي نثر قصصه؛ ودع الحمقى يهرفون، الذين يعتقدون أن شاعر ليموجس أعل منه شأوًا.

١٢١ ـ وللشائعات يستجيب الناس أكثر من استجابتهم للحقيقة، وبذا يبنون لهم رأيًا أن يستمعوا لصوت العقل أو الفن.

١٢٤ ـ وهكذا تأثر بجويتوني كثير من القدامي، فآثروه وحده بآيات المديح من لسان إلى آخر، حتى غلبته في عقول الكثيرين حقيقة غيره.

١٢٧ ـ وإذا كنت الآن منعمًا بتلك الميزة العظيمة، التي تبيح لك الصعود إلى ذلك الدير، حيث يستقر السيد المسيح رئيسًا للمجمع.

١٣٠ ـ فلتتل أمامه من أجلي "أبانا الذي، بقدر ما نحتاج إليه نحن سكان هذا العالم، حيث لم نعد نقوي بعد على ارتكاب الخطيئة".

١٣٣ ـ ثم اختفي في النار كسمكة تغوص في أعماق الماء ـ ربما لكي ينفسح مجالاً لتطهر غيره كان يتبعه عن كثب.

١٣٦ ـ فدنوت قليلاً إلى من أشير به إلى، وعبرت عما خالجني من الرغبة في أن أهيئ لاسمه حفي الترحاب.

١٣٩ ـ فبدأ يقول عن طيب خاطر "إن طلبك الرقيق ليبعث في قلبي المسرة حتى أجدني غير مستطيع ولا راغب في أن أخفي نفسك عنك.

١٤٢ ـ إنني "أرنو" الذي أبكي وأسير منشدًا؛ وإنني أتأمل في جنون الماضي حزينًا، وأتطلع سعيدًا إلى البهجة التي آمل أن أنالها في عد.

١٤٥ ـ وباسم ذلك الفضل الذي يقودك إلى ذروة السلم ـ أرجوك الآن أن تذكر ألمي في الوقت المناسب.".

١٤٨ ـ ثم تواري في النار التي تطهرهم.

***

الأنشودة
27

كانت الشمس آخذة في الغروب حينما سمع دانتي ملاك العفة والطهارة حارس الإفريز السابع يتغني بمباركة الأنقياء القلب، وأفاد الشعراء الثلاثة بضرورة، عبورهم منطقة من النار، فتولي دانتي الخوف، فقال له فرجيليو إن هذه النار قد تعذبه ولكنها لن تقتله، وذكره ببعض المخاطر أنقذه منها من قبل، وقال إن النار لن تنزع منه شعرة واحدة، ودعاه لأن يطرح مخاوفه ويدخل النار آمنًا ولكن دانتي ظل واقفًا مضطربًا، فقال له فرجيليو إنه لم يعد بينه وبين بياتريتشي سوي هذه النار، فزال عن دانتي الخوف وتقدم فرجيليو يتبعه دانتي ومن ورائهما سار استاتيوس، وأحس دانتي بشدة النار، ولكن فرجيليو أخذ يحدثه عن بياتريتشي لكي يشجعه ويساعده على الاحتمال وسمع الشعراء الثلاثة الملاك حارس السلم الذي يؤدي إلى الفردوس الأرضي يرتل بعض الآيات، فخرجوا بسماع صوته من النار. وصعد الثلاثة على بعض درجات السلم حينما غربت الشمس فنام كل منهم على إحدى درجاته، وفي الليل صار دانتي كالعنزة في حراسة راعيين، وأخذه النوم بينما كان يفكر وينظر إلى النجوم وقبيل فجر الأربعاء (١٣ أبريل ١٣٠٠) رأي في الحلم ليئة (ليا) تغني قائلة إنها تصنع لنفسها إكليلاً من الأزهار، وإن أختها راحيل حريصة على النظر في مرآتها إلى عينيها الجميلتين وبطلوع النهار استيقظ الشعراء الثلاثة، وسارع دانتي إلى متابعة الصعود، وحدثه فرجيليو حديث الوداع - دون أن يشعره بذلك - قائلاً إنه قاده حتى هنا وإنه أصبح الآن بغير حاجة إلى بعد أن تطهرت نفسه، وسوف تأتي إليه بياتريتشي، وإن إرادته قد أصبحت حرة نقية، وبذلك جعله سيد نفسه.

١ ـ وكما عندما ترسل الشمس أولي أشعتها، حيث أراق دمه صانعها، بينما يقع نهر الإبرو تحت برج الميزان وهو في أعلى سمته.

٤ ـ وحين تغلي أمواج الكنج عند الظهيرة ـ هكذا كانت الشمس في مستقرها، وعندئذ أخذ النهار يولي، حينما تبدي لنا ملاك الله بوجهه البشوش.

٧ ـ ووقف على الشاطئ خارج اللهب، وأخذ يرتل "طوبي للأنقياء القلب!" بصوت فاقت أنغامه كل ما يصدر عن البشر.

١٠ ـ ولما اقتربنا إليه قال لنا "لا يمكنكم السير قدمًا أيتها النفوس المباركة، بدون أن تحترقوا بالنار؛ فلتدخلوها.

١٣ ـ ولا تصموا آذانكم عما يرتل في الجانب الآخر"؛ ولذا أصبحت ـ حينما سمعته ـ كمن يلقي به في القبر وهو على قيد الحياة.

١٦ ـ فانحنيت إلى الأمام بيدين مضمومتين إلى صدري، ونظرت إلى اللهب، وتمثلت في صور مجسمة أجساد بشر، كنت قد رأيتهم من قبل يحترقون في النار.

١٩ ـ واتجه نحوي دليلاي الأمينان؛ وقال لي فرجيليو "ربما ينال منك العذاب هاهنا يا بني، ولكنه لن يبلغ بك حد الموت.

٢٢ ـ ألا فلتذكر، ألا فلتذكر! إذا كنت قد قدتك على ظهر جبريوني في سلام، فماذا أنا صانع بك الآن ونحن أقرب إلى رحاب الله؟

٢٥ ـ فلتك واثقًا كل الثقة بأنك إذا بقيت في بطن هذه النار ألف سنة كاملة، فلن يمكنها أن تنزع إحدى شعراتك.

٢٨ ـ وإذا كنت تعتقد أني ربما أخدعك ـ فلتقترب منها ولتعمل على التثبت من صحة قولي ـ واضعًا يديك على طرف ثوبك.

٣١ ـ والآن فتلدع منك ـ فلتدع عنك كل مخافة ولتتجه هنا؛ ولتأت، ولتدخل مطمئنًا!" ولكني ظللت واقفًا على الرغم مما حفزني إليه ضميري.

٣٤ ـ ولما رآني ما زلت واقفًا صلبًا بدون حراك وقد تولاني بعض الاضطراب، قال لي "فلتعلم الآن يا بني أنه لم يعد بينك وبين بياتريتشي سوي هذا الجدار".

٣٧ ـ وكما على اسم تسبي فتح بيراموس عينيه ونظر إليها، وهو يجود بآخر أنفاسه، حينما اصطبغت ثمار التوت بحمرة الدم.

٤٠ ـ هكذا تحولت صلابتي إلى اللي، واتجهت إلى دليلي الحكيم، وأنا أسمع رنين ذلك الاسم الذي لا يغيب عن ذاكرتي أبدًا.

٤٣ ـ وعندئذ هز رأسه قائلاً "ما هذا! أنبغي البقاء في هذا الجانب؟"؛ ثم ابتسم، كما يفعل من يسترضي طفلاً بتفاحة.

٤٦ ـ ثم سبقني إلى ورود النار، ودعا استاتيوس أن يأتي في إثرنا، وكان قدباعد بيننا من قبل في الطريق الطويل.

٤٩ ـ وحينما صرت داخل النار، تمنيت لو كنت قد ألقيت بنفسي في زجاج يغلي حتى أبترد، إذ كان الحريق هناك فوق كل قياس.

٥٢ ـ ولكي يسري عني أبي الحبيب، ظل في مسيره لا يحدثني إلا عن بياتريتشي، وقال لي "يبدو لي أني أري عينيها ماثلتين الآن".

٥٥ ـ وسرنا على هدي صوت كان يرتل في الجانب الآخر؛ ونحن الذين لم ننتبه لغير نبراته ـ خرجنا هناك حيث تبدأ مدارج الصعود.

٥٨ ـ "تعالوا يا مباركي أبي"، رنت هذه الكلمات داخل نور كان يتألق هناك، فبهرني حتى عجزت عيناي عن النظر إليه.

٦١ ـ وأضاف "إن الشمس أخذة في المغيب، وها هو الليل مقبل فلا تتوقفوا، بل سارعوا الخطي قبل أن يخيم الظلام على المغرب".

٦٤ ـ واستقام الطريق مصعدًا خلال الصخر في اتجاه ناحية، حجبت عندها ـ قبالتي ـ أشعة الشمس التي كانت قد آذانت بالزوال.

٦٧ ـ وما إن عالجنا الصعود على درجات قليلة، حتى أحسسنا ـ أنا وحكيماي ـ أن الشمس من ورائنا قد غربت، بظلي الذسي تواري عن الأنظار.

٧٠ ـ وقبل أن يتخذ الأفق لونًا واحدًا في جميع أنحائه المترامية، ويرخي اليل سدولة على كل أرجائه.

٧٣ ـ جعل كل منا لنفسه فراشًا من إحدى درجات السلم؛ إذ حرمتنا طبيعة الجبل من قدرتنا ولذتنا ف أن نمضي صعدًا.

٧٦ ـ وكما تقف العنزات هادئة وهي تجتر العشب، وقد كانت سريعة الجري نشيطة على الرواني قبل أن تطعم.

٧٩ ـ وتربض في الظل ساكنة حين تتوهج الشمس، ويحرسها راعيها مرتكزًا على عصاه، يرعاها وهو إليها مستند.

٨٢ ـ وكراعي البقر الذي يبيت في العراء، ويقضي الليل هادئًا بإزاء قطيعه، ويرقبه حتى لا يشتت شمله وحش مفترس.

٨٥ ـ هكذا أصبحنا عندئذ ثلاثتنا جميعًا أنا كالعنزة، وهما كالراعيين، وقد أطبقت علينا في كلا الجانبين شاهق الصخرات.

٨٨ ـ واستطعن أن نتبين هناك قليلاً مما كان حوالينا بالخارج؛ ولكني بذلك القليل رأيت النجوم أوضح وأكبر ما اعتادت أن تكون عليه.

٩١ ـ وبينما كنت أتأملها وأمعن النظر فيها ـ غلبني النوم؛ النوم الذي يتواتر إنباؤه عن الحوادث قبل وقوعها.

٩٤ ـ وأعتقد أنه ساعة أن أرسلت كيتريا أشعتها لأول وهلة من المشرق إلى الجبل ـ كيتريا التي تبدو مستعرة بنار المحبة أبدًا.

٩٧ ـ تراءي لي في الحلم أني أنظر صبية في مقتبل العمر جميلة، تستير في روضة وتقطف من أزهارها، وأخذت تترنم قائلة.

١٠٠ ـ "فليعلم فيما حوالي، لكي أصنع لنفسي إكليلاً من الزهر.

١٠٣ ـ ولكي أبتهج أمام مرآتي، فإنني هاهنا أتزين؛ ولكن راحيل شقيقتي لا تفارق مرآتها أبدًا، حيث تجلس قبالتها طيلة النهار.

١٠٦ ـ وإنها بالنظر إلى عينيها الجميلتين ولوعة، كولعي بأن أزين نفسي بيدي؛ وهي ترضي بالنظر أما أنا فبالعمل.

●●

١٠٩ ـ وبظهور الضوء الذي يبزغ على المسافرين قبيل الفجر، فتبتهج نفوسهم كلما اقتربوا من ديارهم، وهم في طريق عودتهم إليها.

١١٢ ـ انحسر الآن الظلام في كل جانب، وبذهابه زال عني الكري؛ وعندئذ نهضت فرأيت أستاذي العظيمين قد سبقاني إلى النهوض.

١١٥ ـ "ستغني اليوم من جوعك ـ تلك الفاكهة الشهية، التي يبذل البشر الفاني عنايتهم في البحث عنها، بين الكثير من أفرع الأشجار".

١١٨ ـ وجه إلى فرجيليو هذه الكلمات؛ وما من جزاء عاد لها أبدًا فيما بعثته في نفسي من أمارات السعادة والبهجة.

١٢١ ـ هكذا تواردت على رغبة فوق رغبة دفعتني كلها إلى الصعود، حتى أحسست عند كل خطوة نمو أرياشي إلى الطيران.

١٢٤ ـ وحينما اجتزنا من تحتنا كل مراحل السلم، وأصبحنا فوق أعلى درجاته، حد جني بعينيه فرجيليو.

١٢٧ ـ وقال "لقد رأيت يا بني النار الزمنية والنار الأزلية؛ وجئت إلى موضع لا أتبين فيه بنفسي بعد شيئًا.

١٣٠ ـ لقد أتيت بك إلى هنا بحذقي وفني، ولتتخذن الآن من بهجتك دليلاً لك: فإنك الآن خارج الطرق المنحدرة وبعيد عن المسالك الضيقة.

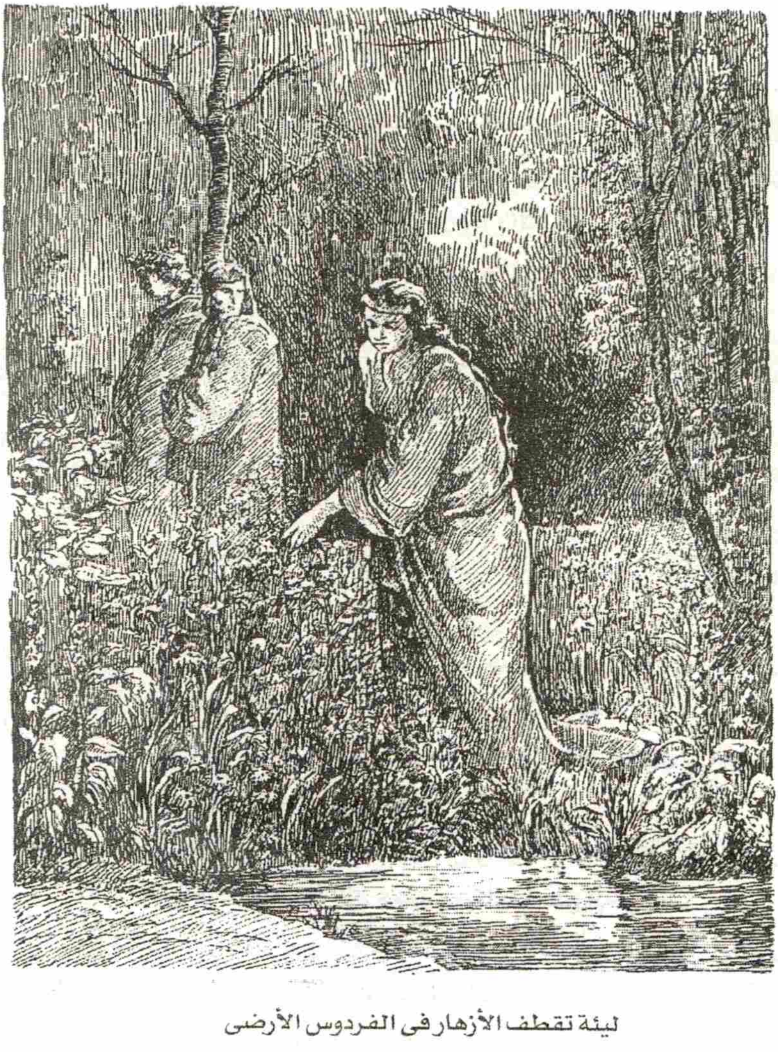
١٣٣ ـ ولتنظر إلى الشمس التي تشع جبينك؛ ولتشهد الأعشاب الصغيرة والأزاهير والشجيرات، التي تنبتها بذاتها هذه الأرض.

١٣٦ ـ ويمكنك الجلوس أو السير بين الأزهار، إلى أن تأتيك العينان الجميلتان ـ وهما مشرقتان بالنعيم ـ واللتان حملتاني ببكائهما على المجئ إليك.

١٣٩ ـ ولا تنتظرن منى مزيدًا من الكلام أو الإشارة؛ فإن إرادتك الآن حرة مستقيمة خالصة؛ وستقع في الخطأ إذا عملت بغير إلهامها.

١٤٢ ـ ولذا فإني أتوجك على نفسك وأكللك".

***



ليئة تقطف الأزهار فى الفردوس الأرضى

الأنشودة
28

سار دانتي وئيداً في الفردوس الأرضي، وأحس فوق جبينه بالنسيم العليل الذي كان يميل بأفرع الأشجار بدون أن يزعج صغار الطير على أغصانها، وكان صوت الهواء ترجيعاً لشدو الأطيار، وكانت تلك الصورة شبيهة بغابة الصنوبر الواقعة على شاطئ كياسي بقرب رافنا وتوغ دانتي في الغابة المقدسة ورأي جدول ليتي وقد مالت مياهه الصافية بالأعشاب النابتة على ضفتيه وشهد دانتي في الناحية الأخرى من الجدول أرضاً نضرة مزدهرة، في وسطها سيدة جميلة تغني وتقطف شيئاً من الأزهار التي زينت كل طريقها، فسألها أن تقترب منه من الناحية المقابلة من الجدول، لكي يتمكن من سماع ترتيلها فسارت السيدة الجميلة - ماتيلدا - كأنها ترقص فوق الأزهار، وأسبلت عينيها الخفرتين، فسمع دانتي شدوها العذب، ثم جعلت من رفع عينيها هبة له، وأخذت تبتسم وهي تجمع مزيداً من الأزهار وقالت ماتيلدا للشعراء الثلاثة إنهم جدد في هذا المكان، وإنها مستعدة لإيضاح كل ما غمض عليهم قالت إن الله منح هذا المكان لإقامة الإنسان، ولكنه بالخطيئة حول سعادته إلى بكاء وعذاب وقالت إن جبل المطهر - بعد باب المطهر الحقيقي - يزداد علواً صوب السماء حتى يصبح غير خاضع لمؤثرات الأبخرة في الدنيا، ولكن دوران السماء يحدث مثل هذا الهواء في أعلى المطهر، وبذلك توزع في أرجائه بذور النبات، فتمتلئ بفاكهة لا نظير لها في الأرض وقالت ماتيلدا إن الماء ينبع هنا بإرادة الله ويصب في نهر ليتي الذي يمحو الخطايا، وفي نهر إينووي الذي يذكر الإنسان بأفعال الخير، وتفوق ماؤه كل مذاق، وإن الشعراء القدامي قد تغنوا بهذا الموضع وهم في جبل بارناسوس، وإن الفردوس الأرضي هو

الربيع الدائم واتجه دانتي إلى فرجيليو واستاتيوس ووجد أنهما يبتسمان علامة الرضا، ثم التفت إلى ماتتيلدا.

١ ـ حينما تاقت نفسي لأن أستكشف عما بداخل الغابة الإلهية الكثيفة اليانعة، وما حولها، والتي لطفت لعيني أنوار النهار الجديد.

٤ ـ غادرت الشاطئ بدون أن أنتظر مزيدًا، وسرت في المرج وئيدًا وئيدًا، على الأرض التي بعثت شذاها في كل جانب.

٧ ـ هواء عليل لا تتبدل طبيعته أبدًا ـ أخذ يلمس جبيني بما لا يزيد عن لمسة الأنسام الرقيقة.

١٠ ـ به مالت كل الأفرع المهتزة المستجيبة، شطر الناحية التي يلقي فيها الجبل المبارك بأولي ظلاله.

١٣ ـ ولكنها لم تحد عن وضعها المستقيم، بما يجعل صغار الطير فوق أطرافها تكف عن ممارسة كل فنونها.

١٦ ـ بل رحبت مغردة بأولي أنسام الصباح، وقد علتها البهجة بين أوراق الأشجار، التي كان حفيفها ترجيعًا لأغانيها.

١٩ ـ وكان ذلك أشبه بالحفيف الذي يتجاوب من غصن لآخر في أخراج الصنوبر عند شاطئ كياسي، حينما يطلق إيولوس رياح السيروكو من محبسها.

٢٢ ـ وعندئذ كانت خطواتي البطيئة قد حملتني بعيدًا إلى أعماق الغابة العتيقة، حتى لم أعد أتبين موضع ورودي إليها.

٢٥ ـ وانظر، ها قد حال جدول دون متابعتي المسير، وأمال على اليسار بأمواجه الخفيفة ما نبت على ضفتيه من الأعشاب.

٢٨ ـ وإن كل ما في هذا الجانب من المياه الصافية الرائقة، لتبدو محتوية على بعض الرواسب، بجانب تلك التي لا تخفي بين طياتها شيئًا.

٣١ ـ على رغم أنها تجري سوداء اللون داكنة تحت الظلال الأبدية، التي لا تدع ؟؟؟ تضيء ولا قمرًا ينير هناك أبدًا.

٣٤ ـ وبقدمي وقفت، وبعيني تجاوزت الجدول، لكي أتطلع إلى الألوان الزاخرة من أغصان الربيع المزدهرة النضرة.

٣٧ ـ وكما يظهر شيء بغتة، ويصرف الرائي عن التفكر في كل ما سواه ـ بما يثيره في النفس من أمارات العجب.

٤٠ ـ هكذا بدت لي هناك سيدة، أخذت تسير وحيدة، ومضت تترنم، وتقطف زهرًا من بين الأزاهير التي زينت طريقها كلها.

٤٣ ـ فقلت لها "آه، أيتها السيدة الجميلة ـ التي تصطلين بأشعة المحبة ـ إذا كان لي أن أصدق ملامح الوجه التي هي في العادة خير شاهد.

٤٦ ـ على ما يستقر في شغاف القلب ـ فلعله يروقك أن تتقدمي نحو هذا الجدول، حتى يمكنني أن أتبين شدوك العذب.

٤٩ ـ وإنك لتجعلينني أذكر أين وكيف كانت بروسروبينا، حين فقدتها أمها وفقدت هي أزهار الربيع".

٥٢ ـ وكما تستدير سيدة ترقص، وقد لصقت بالأرض عقبيها وضمتهما بعضهما إلى بعض، وهي لا تكاد تضع قدمًا أمام الأخرى.

٥٥ ـ هكذا اتجهت نحوى فوق الأزاهير الحمراء وفوق الصفراء، وكانت في ذلك أشبه بعذراء تسبل عينيه اللتين ساداهما الخفر.

٥٨ ـ واستجابت لرجائي باقترابهما مني، حتى بلغ سمعي لحنها العذب وما احتواه من المعاني السامية.

٦١ ـ وحينما أصبحت حيث كانت الأعشاب قد ابتلت بأمواج النهر الجميل ـ جعلت من رفع عينيها هبة لي.

٦٤ ـ ولا أعتقد أن نورًا تألق بمثل هذا الوهج تحت حاجبي فينوس، عندما جرحها ابنها على غير ما اعتاد أن يفعل.

٦٧ ـ وأخذت تبتسم وهي واقفة على الضفة الأخرى، وبيديها تناولت عديدًا من الألوان التي تنبتها الارض الشاهقة، بدون أن تغرس بذورها.

٧٠ ـ وبثلاث خطوات باعد بيننا النهر؛ ولكن الدردنيل ـ هناك حيث عبره إكرزرسيس ـ والذي لا يزال عقبة أمام كبرياء البشر جميعًا.

٧٣ ـ لم ينل من لياندر ـ بموجه المضطرب بين سستوس وأبيدوس ـ كرهًا أشد مما ناله مني هذا النهر ـ إذ لم تنشق مياهه عندئذ.

٧٦ ـ وبدأت "إنكم هنا غرباء، وربما لأني أبتسم ـ في هذا المكان الذي اخير عشًا للبشر.

٧٩ ـ فإن بعض الشك يثير في نفوسكم أمارات العجب؛ ولكن مزمور "إنك فرحتي" يبعث النور الذي من شأنه أن يقشع عنكم ضباب العقل.

٨٢ ـ وأنت أيها السائر إلى الأمام، ويا من وجهت إلى سؤالك، تكلم إذا شئت أن تسمع مني مزيدًا، إذ أنني أتيت مستعدة لأجابة كل سؤال لك حتى ترضي".

٨٥ ـ فقلت لها "إن المياه وصوت الغابة، يدحضان في نفسي ما بلغته أخيرًا من الاعتقاد في شأن مسألة سمعتها معارضة لهذا القول".

٨٨ ـ عندئذ أجابت "سأخبرك كيف يتأتي ما يحملك على العجب، وسأبدد الضباب الذي يغشي بصرك.

٩١ ـ إن الخير الأسمي الذي يبتهج بذاته فحسب، قد خلق الإنسان مهيأ لفعل الخير، ومنحه هذا المكان كضمان للسلام الأبدي.

٩٤ ـ وبارتكابه الخطيئة لم يلبث هنا إلا قليلاً، وبخطيئته استحالت البسمة البريئة واللهو البهيج بكاء وعذابًا.

٩٧ ـ ولكيلا ينال الإنسان الضر أبدًا، بالعواصف التي تثيرها في أسفل أبخرة الماء واليابس.

١٠٠ ـ الصاعدة في إثر الحرارة بقدر استطاعتها ـ ازداد هذا الجبل ارتفاعًا صوب السماء، خالصًا من الأبخرة، من الموضع الذي يوصد فيه بابه.

١٠٣ ـ والآن ـ لما كان الهواء جميعه يدور مع المحرك الأول في دائرة، إذا لم يقطع محيطها في أحد جوانبها.

١٠٦ ـ فإن مثل هذه الريح تهب على هذه الذروة الطليقة في الهواء الحي، وتحدث الحفيف في الغابة بكثافة أشجارها.

١٠٩ ـ وإن الأشجار المهتزة قادرة على فعل الكثير، إذ تفعم الهواء بميزاتها، فينثرها حواليه بعد في دورانه.

١١٢ ـ وتخصب الأرض الأخرى، وتنبت من الخواص المختلفة نباتًا منوعًا، بفضل ما هي مؤهلة له أو بفضل جوها.

١١٥ ـ وإذ فهمنا هذا فلا مدعاة للعجب عندئذ في ذلك الجانب، حينما يتخذ بعض النبات جذوره بغير بذرة ظاهرة.

١١٨ ـ وعليك أن تعلم أن الأرض المباركة ـ التي أنت فيها ـ مليئة بكل أنواع البذور ـ وبها فاكهة لا يجني هناك مثيلها.

١٢١ ـ والمياه التي تراها هنا ـ لا تنبثق مع نبع يتغذي بما يكثفه البرد من الأبخرة ـ كالمياه التي تكسب الأنهار قوتها وتفقدها.

١٢٤ ـ ولكنها تنساب من ينبوع دائم دافق، ينال بمشيئة الله كل ما يصبه في النهرين اللذين ينبثقان من جانبيه.

١٢٧ ـ ففي هذا الجانب تهبط المياه ذات فضل يمحو من الناس ذكري معاصيهم وفي الجانب الآخر تيعد إليهم ذكري كل أفعالهم الحميدة.

١٣٠ ـ وتسمي هنا نهر ليتي، كما تسمي في ذلك الجانب نهر إينووي؛ ولا أثر لمفعولها قبل أن يذاق منها في كل الجانبين.

١٣٣ ـ وإن مذاقها ليعلو على كل مذاق ومع أن ظمأك يمكن أن يعد الآن مكتمل الري ـ بدون أن أكشف لك عن الأمر مزيدًا.

١٣٦ ـ فسأزيدك إيضاحًا فضلاً ومكرمة؛ ولا إخال قولي يصبح لديك أقل إعزازًا، إذا تجاوز ما وعدتك به من قبل.

١٣٩ ـ فإن من تغنوا قديمًا بالعصر الذهبي وزمانه السعيد، ربما تراءي لهم هذا المكان في أحلامهم، وهم يعتلون ظهر بارناسوس.

١٤٢ ـ وقد كان أصل البشر هنا بريئًا؛ وهاهنا الربيع دائم، وكل ألوان الفاكهة؛ وهاك الرحيق الذي يجري ذكره على لسان الجميع".

١٤٥ ـ عندئذ استدرت إلى الوراء صوب شاعري، ورأيت أنهما قد أصغيا إلى كلماتي الأخيرة، وقد علتهما البسمة الرقيقة.

١٤٨ ـ وإذ بي أعاود النظر إلى السيدة الجميلة.

***

الأنشودة
29

مضت ماتيلدا في ترنمها وسارت بعكس اتجاه ليتي، وتابع دانتي حطاها، وانحنى النهر حتى سارا في اتجاه واحد صوب المشرق ولفتت ماتيلدا نظر دانتي إلى نور ساطع انبيق فجأة في أرجاء الغابة، فلم يعرف كنهه لأول وهلة. وسمع دانتي ألغامًا عذبة جعلته يلوم حواء على تهورها وحرماته بالخطيئة من العيش في الفردوس الأرضي وبعد هنيهة رأي نارًا تشتعل تحت الأغصان، وسمع أصواتًا ترتل، فاستنجد بربات الشعر حتى يمكنه التعبير عما رآه وسمعه. وعرف رويدًا أن الشعلات يرجع إلى عدد من السرج - أو المنابر - وتبين أصواتًا ترتل قائلة "هوشعنا" وتوهج الموكب الجميل أشد من توهج البدر في منتصف ليلة صافية وحملت ماتيلدا دانتي على أن ينظر إلى ما وراء هذه الأنوار، فرأي قومًا يأتون مرتدين بيض الثياب، وحينما أصبح الموكب قبالته توقف دانتي لكي يري بطريقة أفضل وعندئذ شهد الهواء ملونًا بنيران السرج على صورة قوس قزح، ونظر إلى جماعة من أربعة وعشرين شيخًا - رمز إصحاحات العهد القديم - أخذوا يرتلون بعض آيات من الكتاب المقدس ثم رأي أربعة حيوانات لكل منها ستة أجنحة وامتلأ ريشها بالأعين، وهي رمز للأناجيل الأربعة أو لواضعيها. وشهد دانتي عربة نصر - رمز الكنيسة الظافرة - يجرها الجريفون - رمز السيد المسيح - الذي يجمع بين أعضاء النسر والأسد ثم جاءت سبع سيدات وأخذن في الرقص، وكانت ثلاث منهن ترمزن للمحبة والأمل والإيمان، والأربعة ترمزن للفضائل الأساسية. ورأي دانتي القديسين لوقا وبولس، وتبين واضعي الرسائل الكنسية الأربع، ونظر يوحنا صاحب الرؤيا يأتي وحيدًا وقد دهمه النوم، وتكللت رؤوس القديسين

السبعة بأكاليل من الورود والأزهار الحمراء، وسمع دانتي قصف الرعد، وعندئذ توقف هذا الموكب عن المسير.

١ ـ ومضت ماتيلا تترنم، كامرأة تيمها الهوي، وختمت كلماتها بقولها: "طوبي لمن غفرت خطاياهم!".

٤ ـ وكالحوريات اللائي كن يخطرن وحيدات في الغابات الظليلة، وبعضهن راغبات في رؤية الشمس، بينما الأخريات راغبات في تجنبها.

٧ ـ سارت هي الآن علي ضفة النهر وبعكس تياره، فتابعت مسيرها جاعلاً خطواتي صغيرة وفق خطاها.

١٠ ـ ولم تكن خطانا نحو الاثنين قد بلغتا المائة عدا، حتى انحرفت كلتا الضفتين من النهر، فوجدت نفسي متجهًا صوب المشرق.

١٣ ـ ولم يكن طريقنا قد امتد بعد طويلاً، حينما اتجهت السيدة نحوي قائلة "ألا فلتنظر يا أخي ولتنصت".

١٦ ـ وإذ بي أري نورًا سري بغتة في كل أرجاء الغابة العظيمة، على نحو جعلني أظن أن هذا ربما كان هو البرق.

١٩ ـ ولكن لما كان البرق ينقطع لحظة ظهوره، على حين ازداد هذا النور ببقائه ضياء ـ قلت في نفسي "ما عسي أن يكون؟".

٢٥ ـ حواء التي لم تحتمل البقاء مستترة بالحجاب، ساعة أن خلقت كأنثي وحيدة، هناك حيث رضخت الأرض والسماء لمشيئة الله.

٢٨ ـ ولو أنها ظلت تحت الحجاب خاشعة، لتذوقت من قبل ـ ولزمان طويل ـ تلك المباهج التي تجل عن الوصف.

٣١ ـ وفيما كنت أسير وقد تولاني العجب، بين أولي الثمرات من هذه البهجة الأزلية ـ وما زال يحدوني الشوق إلى المزيد من تلك المباهج.

٣٤ ـ صار الهواء أمامنا كأنه قد اشتعل بالنار، تحت الأغصان الخضراء، وفي ثنايا الأنغام الرخيمة تبينت عذب الشدو.

٣٧ ـ أيتها العذاري المباركات، إذا كنت قد احتملت في سبيلكن الجوع والبرد وسهر الليالي أبدًا، فإن دافعًا قويًا يهمزني لكي أسألكن العون.

٤٠ ـ والآن ينبغي أن يمدني نبع هيليكون بسلسبيله، وتعينني أورانيا بجوقتها، لكي أنظم القوافي في أمور يصعب على ذهني تناولها.

٤٣ ـ وعلى بعدة قليلة منها، بدا لي أني أري سبع أشجار مصوغة من الذهب ـ على غير حقيقة ـ بالمسافة الطويلة التي كانت قائمة بيننا وبينها.

٤٦ ـ ولكن حينما ازددت قربًا إليها ـ حتى لم تفقد صورتها العامة ـ التي تخدع الحواس ـ شيئًا من خصائصها.

٤٩ ـ أدرت الملكة التي تمد العقل بالكلام أنها سرج ـ بالحال التي كانت عليها، وتبينت بين الأصوات ترتيلهم كلمة "هوشعنا".

٥٢ ـ وازداد الموكب الجميل في أعلاه توهجًا، حتى فاق القمر حين يصير بدرًا، في منتصف ليلة صافية.

٥٥ ـ فاتجهت إلى فرجيليو الطيب وأنا بالعجب مفعم، فأجابني بوجه ليس أقل امتلاء بالعجب.

٥٨ ـ عندئذ ألقيت ببصري إلى الكائنات السامية، التي جاءت نحونا بخطى بطيئة، حتى لتفوقها في السير العرائس الجدد.

٦١ ـ وصاحت بي تلك السيدة قائلة "لم تتحرق شوقًا إلى مرأى الأنوار المتألقة، ولا ترنو بعينيك إلى ما يأتي من ورائها؟".

٦٤ ـ وعندئذ رأيت قومًا متسربلين ببيض الثياب آتين من بعدها، كأنهم يتبعون أدلاءهم، ولم نر هنا أبدًا لهذا البهاء مثيلا.

٦٧ ـ وإلى يسارنا تألقت صفحة الماء، وحين أخذت في النظر إلها عكست إلى ـ كمرآة ـ جانبي الأيسر.

٧٠ ـ ولما اتخذت على ضفتي لنفسي موضعًا ـ حتى لم يعد يبعدني عنهم سوي مجري النهر ـ أوقفت خطاي لكي أراهم بطريقة أفضل.

٧٣ ـ فشهدت شعيلات النار إلى الأمام ماضية، وقد خلفت الهواء من ورائها ملونًا، وكان لها بذلك صورة اللمسات من ريشة الرسم.

٧٦ ـ ومن فوقها ظل الهواء مميزًا بسبعة أشرطة، كانت كلها بتلك الألوان التي تصنع منها الشمس قوس قزحها، ومنها تصنع دليًا هالتها.

٧٩ ـ وإلى الوراء امتدت هذه الأعلام أبعد من ناظري، وبتقديري باعدت عشر خطوات بين ما كان منها في الجنبين.

٨٢ ـ وتحت هذه السماء الفائقة الجمال كما أ قوم بوصفها، تقدم أربعة وعشرون شيخًا سائرين اثنين اثنين، وقد تكللت هاماتهم بأزهار الزنبق.

٨٥ ـ ورتلوا جميعًا "مباركة أنت بين بنات آدم ومباركة صور جمالك إلى الأبد!".

٨٨ ـ وحين تخلصت الأزهار وسائر العشيبات الطرية، من خطي أولئك المختارين ـ قبالتي على الضفة الأخرى.

٩١ ـ وكما يتبع نور في السماء نورًا غيره ـ جاء في أثرهم حيوانات أربعة، وقد تكللت هامة كل منها بغصن أخضر.

٩٤ ـ وبستة أجنحة تريش كل واحد منها؛ وكان ريشها مليئًا بالأعين: ولو أن أعين الأرجوس قد ظلت في الحياة طليقة، لغدت في مثل صورتها.

٩٧ ـ ولست بناظم ـ أيها القارئ ـ مزيدًا من القوافي لوصف شكولها؛ إذ يستحثني واجب آخر، حتى ليتعذر على الإطناب في هذا الصدد.

١٠٠ ـ ولكن فلتقرا حزقيال الذي يرسمها كما رآها آتية من البلاد الباردة، طي الرياح وعبر السحاب وبين ألسنة اللهب.

١٠٣ ـ وكما أنت واجدها في صفحاته، هكذا أصبحت، هاهنا، سوي ما يتعلق بريشها فيوحنا يتفق معي ويختلف عنه في ذلك.

١٠٦ ـ والمسافة الكائنة بين أربعتها احتوت عربة نصر ذات عجلتين، جاءت بسحبها الجريفون بعنقه.

●●

١٠٩ ـ وإلى أعلى مد كلا جناحيه، بين الجماعة الوسطي وبين كل من الجاعة وبين كل من الجماعتين الثلاثيتين، حتى لم يزعج بحركته إحداها.

١١٢ ـ وعلا ارتفاع جناحيه حتى لم ير لها آخر؛ ومن الذهب صيغت أعضاؤه بقدر ما كان له من صفات الطير، وكان سائره أبيض اللون مشوبًا بالحمرة.

١١٥ ـ ولا يقتصر الأمر على أن روما لم تمجد الأفريقي ولا أغسطس، بعربة جميلة مماثلة، بل إن عربة الشمس تبدو هزيلة بجانبها.

١١٨ ـ ولما حادث عربة الشمس عن طريقها، احترقت بصلاة الأرض المبتهلة، حينما كان جوبيتر عادلاً في حكمة المبهم.

١٢١ ـ وثلاث سيدات جئن راقصات في حلقة إلى جانب العجلة اليمني، وكان لون إحداهن شديد الحمرة، حتى لم تكد تري بين ألسنة اللهب.

١٢٤ ـ وكانت الثانية كأن لحمها وعظامها قد صنعت من الزمرد؛ وبدت الثالثة ثلجًا تساقط توًا.

١٢٧ ـ وبدون الآن تقودهن البيضاء تارة والحمراء طورًا؛ وعلى ترنم هذه نظمت الآخريتان خطواتهما ببطء وبسرعة.

١٣٠ ـ وفي ثياب أرجوانية اللون، رقصت إلى اليسار سيدات أربع، متابعات خطي إحداهن، التي كان لها برأسها ثلاث أعين.

١٣٣ ـ وخلف كل هذه الجماعة التي تناولتها آنفًا، رأيت شيخين، تباينا في ملبسهما، ولكنهما تشابها في هيئتهما المتضعة الوقورة.

١٣٦ ـ وأبان أحدهما عن نفسه أنه من رفاق ذلك العظيم هيبوفراطيس، الذي خلقته الطبيعة ذخرًا لكائناتها التي تعتز بها كثيرًا.

١٣٩ ـ وبدا الآخر أنه ذو مهنة مغايرة ـ بسيفه اللامع القاطع ـ حتى بعث الرعدة في أوصالي على هذا الجانب من النهر.

١٤٢ ـ ثم رأيت أربعة رجال تعلوهم أمارات التواضع؛ وخلفهم جميعًا نظرت عجوزًا يأتي وحيدًا وقد داعبه النوم، وتميز بوجه حاد الملامح.



ثلاث حوريات ترقصن فى الفردوس الأرضى

١٤٥ ـ وعلى غرار ما ارتدته الجماعة الأولى، تسربل هؤلاء السبعة بالثياب، ولكن لم يكن لهم حول رؤوسهم أكاليل من الزنبق.

١٤٨ ـ بل من الورود ومن غيرها من الزهور الحمراء: وإن من يراهم من مسافة قليلة ليقسم أن النار قد اشتعلت فوق حواجبهم جميعًا.

١٥١ ـ وحينما أصبحت العربة قبالتي، سمعت الرعد يقصف، وبدأت أن مواصلة السير قد امتنعت على هذه الجماعة الوقورة.

١٥٤ ـ وهناك توقفوا مع أعلام المقدمة.

***

الأنشودة
30

حينما توقفت السرج السبعة نظرت إلى العربة المقدسة جماعة الشيوخ الذين ساروا بين الجريفون والسرج - أو المشاعل أو المنابر - ورتل سليمان الحكيم وسائر الشيوخ داعين بياتريتشي إلى القدوم وعندئذ صعد كثير من الملائكة فوق العربة وباركوا تلك الآتية، ونثروا الأزهار إلى أعلى وفيما حولهم ثم ظهرت بين سحابة كثيفة من الأزهار سيدة مكللة بغصن الزيتون، وكانت ذات نقاب أبيض وارتدت ثوبًا أحمر اللون تحت عباءة خضراء، فأحس دانتي بدون أن يتبينها بالسلطان العارم لحبه القديم، واتجه يخاطب فرجيليو قائلاً إنه يعرف علائم الشعلة القديمة، ولكن فرجيليو كان قد اختفى فبكى دانتي لرحيله المفاجئ ونادت بياتريتشي دانتي بأسمه وسألته ألا يبكي لأنه بحاجة للبكاء بسبب آخر وبدت بياتريتشي كأمير البحر الذي يرقب سفنه، وأفصحت عن شخصها، وسألت دانتي كيف جرؤ على الصعود إلى جبل المطهر، فأحس الخجل الشديد وترنم الملائكة بثقتهم بالله، وحينما أحس دانتي عطف الملائكة عليه ذاب الثلج الذي أطبق على قلبه وخرج الآسي من صدره إلى فمه وعينيه وقالت بياتريتشي للملائكة إن دانتي كان له بفضل النعمة الإلهية ملكات طيبة وقالت إنها ساندته في الحياة وقادته إلى الطريق المستقيم، ولكنها عندما انتقلت إلى عالم الروح انساق وراء غيرها من النساء واتجه إلى مسالك الزلل، ولم ينفعه أن نادته باسم الإلهام الإلهي فهوى إلى الحضيض، ولم يجد في خلاصه سوى إظهاره على القوم الهالكين، ولذلك نزلت إلى الجحيم، وحملت فرجيليو بضراعتها وبكائها على أن يخلصه من الأخطار. وقالت إن شريعة الله لتنقض إذا شرب من نهر ليتي بدون أن يندم ويكفر عن خطاياه.

١ ـ حينما ظل الدب الأكبر في السماء الأولي واقفًا بدون حراك، والذي لم يعرف أبدًا شروقًا ولا غروبًا ولا ضبابًا.

٤ ـ سوي غشاوة المعصية، والذي حمل جميع من هم هنالك على أن ينتبهوا لواجبهم، كما يفعل الدب الأدني لمن يدير سكان سفينته.

٧ ـ حتى يبلغ بها الميناء ـ عندئذ اتجهت إلى العربة الجماعة الصدوقة التي جاء أفرادها من قبل بين الجريفون وبين السرج السبعة، سعيًا وراء السلام.

١٠ ـ ومن بينهم بدا واحد أنه رسول آن من السماء، وصاح عاليًا مرتلاً ث مرات "تعالي يا عروسي من لبنان"، ومن بعده رتل الآخرون جميعًا.

١٢ ـ وكما سيسارع جميع الطوباويين إلى النهوض من قبورهم، حين ينفخ في الصور الأخير، وباستعادة أجسادهم سيرتلون "هللويًا".

١٦ ـ هكذا ظهر فوق العربة الإلهية مائة من خدام الحياة الأزلية ورسلها، عند سماع صوت ذلك الشيخ العظيم.

١٩ ـ وقالوا جميعًا: "مبارك الآتي..!"؛ ونثروا الأزهار فوقهم وفيما حواليهم قائلين "آه، ألا فلتنثروا ملئ أيديكم أزهار الزنبق!".

٢٢ ـ وكنت قد رأيت من قبل عند بزوغ النهار أرجاء المشرق تسودها حمرة الورد، وتتزين سائر أنحاء السماء بلونها الأزرق الصافي.

٢٥ ـ ونظرت وجه الشمس يشرق من وراء حجاب، فاحتملته عيني فترة أطول، بالسحب التي خففت من حدة وهجه.

٢٨ ـ هكذا بدت لي ـ بين سحابة من الأزهار التي تصاعدت من أيدي الملائكة، وهوت إلى باطن العربة وإلى خارجها.

٣١ ـ هكذا بدت لي سيدة ـ تكللت بغصن الزيتون فوق نقابها الأبيض، وارتدت ثوبًا في لون الشعلة المستعرة، تحت عباءة خضراء.

٣٤ ـ وروحي التي لم يك قد نالها منذ أمد بعيد ما ألفته من العجب والرعدة، حين كانت تمثل في حضرتها.

٣٧ ـ أحسست ـ بدون أن أتبين بعيني منها مزيداً ـ السلطان العارم لحبي القديم، بالسحر الخفي الذي انبعث منها.

٤٠ ـ وما إن أصابت ناظري قوتها الساحقة، التي كانت قد جرحتني بسهامها، من قبل أن أتجاوز عهد طفولتي.

٤٣ ـ حتى اتجهت إلى يساري بالثقة التي يجري به الطفل الصغير نحو أمه، عندما يخاف أو يتألم.

٤٦ ـ لكي أقول لفرجيليو "لم تعد في أوصالي قطرة دم لا ترتجف: وإني لأعرف علائم الشعلة القديمة".

٤٩ ـ ولكن فرجيليو كان قد تخلي عنا، فرجيليو أبي الأعز، فرجيليو الذي استسلمت له لكي أنال الخلاص بعونه.

٥٢ ـ وإن كل ما فقدته أمنا العتيقة، لم يمنع وجنتي اللتين طهرهما الطل، من أن يستعيدا ببكائي لونهما الأغبر.

٥٥ ـ "لا تسترسلن في البكاء يا دانتي، لذهاب فرجيليو عنك، ولا تمضين في إرسال دموعك مزيداً، إذ أنك في حاجة لأن تذرف دمعك بجرح غيره".

٥٨ ـ وكأمير البحر الذي يذرع سفينته من مقدمها حتى مؤخرتها، لكي يرقب رجاله الذين يعملون في سائر سفنه، ويستحثهم على أن يحسنوا صنعاً.

٦١ ـ هكذا رأيت ـ على الجانب الأيسر في العربة ـ حينما التفت بسماع من تناديني باسمي، الذي وجب على أن أسجله هاهنا ـ هكذا رأيت.

٦٤ ـ السيدة التي تبدت لي من قبل، وراء نقاب من أزهار الملائكة ـ تتجه بعينيها نحوي على هذا الجانب من النهر.

٦٧ ـ ومع أن النقاب الذي تدلي من رأسها مكللاً بأوراق مينرفا، لم يدعها تبدو لي جلية الملامح.

٧٠ ـ فقد تابعت قولها، وهي لا تزال تعلوها أمارات الجلال، كمن يتكلم ولكنه يؤخر إلى ختام حديثه كلماته المؤثرة الحارة.

٧٣ ـ "ألا فلتنظرني جيدًا! فإنني في الحقيقة، إنني في الحقيقة بياتريتشي وكيف وجدت نفسك جديرًا بارتقاء الجبل؟ ألا تدري أن هذا هو موئل السعداء؟"ز

٧٦ ـ فأرخيت عيني إلى الجدول الصافي؛ ولكني لما رأيت فيه ذات صورتي وجهتهما إلى العشب، وقد أثقل جبيني خجل شديد.

٧٩ ـ وكما تبدو الأم لأبها قاسية ـ هكذا بدت لي إذ أن الإشفاق المشوب بالقسوة ذو غصة مريرة الطعم.

٨٢ ـ ولزمت هي الصمت؛ ورتل الملائكة بغتة "عليك يا رب توكلت"؛ ولكنهم لم يتجاوزوا قولهم "رجلي".

٨٥ ـ وكما يتجمد الثلج بين الأشجار المخضرة ـ على ظهر إيطالي ـ عندما تهب عليه وترهقه رياح اسلافونيا.

٨٨ ـ وبذوبه يقطر خلال نفسه، إذا بعثت أنفاسها الأرض التي لا تعرف الظل، ويبدو كشمعة تذيبها حرارة النار.

٩١ ـ هكذا أصبحت بلا دمع وبلا تنهد، قبل ترتيل من يضبطون أنغامهم أبدًا على ألحان الحلقات الأزلية.

٩٤ ـ ولكن حينما سمعت في ألحانهم العذبة إشفاقهم على أكثر مما لو أنهم قالوا لم ترهقينه هكذا أيتها السيدة؟".

١٠٠ ـ وبينا هي لا تزال واقفة على ذات الجانب من العربة، إذ بها توجه إلى الجواهر الرحيمة هذه الكلمات.

١٠٣ ـ "إنكم تظلون إيقاظًا في اليوم الأخير، بحيث لا يخفي عنكم الليل ولا النوم خطوة واحدة يسير بها البشر في مسالكهم.

١٠٦ ـ ولذا فإن القصد من إجابتي هو أن يفهمني بخاصة من يبكي في ذلك الجانب، حتى يدرك أن لكل خطيئة عذابها المناسب.

١٠٩ ـ ولا تتجه كل بذرة إلى غاية بعينها، بفعل الدوائر الكبرى وحدها، حسبما يكون في صحبتها من النجوم.

١١٢ ـ ولكن بوفرة النعم الإلهية، التي يرجع وابلها إلى أبخرة شاهقة الارتفاع، حتى إن أبصارنا لا تدركها هنالك.

١١٥ ـ وبذلك صار لهذا البشر في حياته الجديدة من الفضل، ما كان قمينًا بتوجيه ملكاته الطيبة إلى أن تأتي بأروع الثمرات.

١١٨ ـ ولكن كلما ازداد خصب الأرض ازداد فسادها وبوارها، بالبذور الخبيثة وبالتوقف عن حرثها.

١٢١ ـ ولقد ساندته بوجهي فترة من الزمن: وبإظهاري له عيني الفتيتين اتجهت به إلى الطريق القويم.

١٢٤ ـ وما إن بلغت العتبة الثانية من مراحل عمري، وبدلت ثوب حياتي، حتى انصرف عني هذا الرجل وانساق وراء غيري من النساء.

١٢٧ ـ ولما سموت من حياة الجسد إلى حياة الروح، وزاد الفضل والجمال في أعطافي، أصبحت لديه أدني قبولاً وأقل إعزازًا.

١٣٠ ـ واته بخطوة إلى طريق الزلل، في إثر ما للخير من الصور الزائفة، التي لا تفي بوعودها حق الوفاء.

١٣٣ ـ ولم يجدني نفعًا أن أنال له أنوار الإلهام، التي ناديته بها في حلمه وفي يقظته؛ إذ كانت لديه قليلة الشأن!

١٣٦ ـ فهوى إلى الحضيض، حتى قصرت الآن عن خلاصه كل الوسائل، سوي إظهاره على القوم الهالكين.

١٣٩ ـ ولذا زرت باب الموتي، وحملت ضراعتي ومدمعي الباكي إلى من جاءته صعدًا إلى هذا المكان العالي.

١٤٢ ـ وإن الشريعة الإلهية العليا لتنقض، إذا كان له أن يعبر نهر ليتي، ويتذوق من مثل هذه الغذاء، بغير أن يؤدي أتاوة.

١٤٥ ـ من التكفير الذي ينهمر من عينيه دموعًا".

***

الأنشودة
31

مضت بياتريتشي في تعنيف دانتي وسألته أن يعترف بما ارتكبه من الخطيئة، فتولاه الاضطراب والخوف وانفجر باكيًا وأرسل تنهده تحت العبء الذي أحسه وسكت عن الكلام وسألته بياتريتشي عن العقبات والمغريات التي أضلته في الدنيا، فقال إنها الملذات الزائفة التي انحرفت بخطاه حينما وجهها من الدنيا فسألته أن يدع عنه أصل البكاء، وقالت إن الطبيعة أو الفن لم يقدما له لذة تفوق لذة الأعضاء الجميلة التي كانت لها ف أثناء الحياة، وما كان ينبغي للملذات الباطلة أن تثقل رياشه لأنه من العبث أن تنشر الشباك أو تطلق السهام أمام الطائر الذي اكتمل نموه وعندئذ وقف دانتي خجلاً صامتًا مطرق الرأس، فطلبت إليه بياتريتشي أن يرفع وجهه لكي يزيد من ألمه بالنظر إليها. فرأي دانتي الملائكة قد كفوا عن نثر الأزهار، وشهد بياتريتشي تنظر إلى الجريفون ذي الطبيعة المزدوجة - رمز المسيح - وبدت أنها فاقت ما كانت عليه من الجمال في الأرض، فأحس دانتي بالندم وهوى إلى الأرض فاقدًا وعيه. ولما أفاق وجد ماتيلدا تسأله أن يمسك بها، وغمرته في مياه نهر ليتي حتى عنقه، وشرب من النهر، ثم أخرجته إلى الضفة الأخرى ودفعته بين الحوريات الأربع اللائي كن يرقصن. ونظر دانتي إلى عيني بياتريتشي المثبتتين على الجريفون، الذي بدا فيهما بطبيعتيه الإلهية والبشرية وتقدمت السيدات الثلاث الأخريات وسألن بياتريتشي في ترتيلهن أن تنظر إلى المخلص لها الذي قطع هذه المسافة الطويلة لكي يراها، وطلبن إليها أن تكشف له عن ثغرها الذي هو موضع جمالها الثاني، وأخذ دانتي يتمجد بما رآه من جمالها الفائق الذي يعجز عن وصفه هو وسائر الشعراء.

١ ـ "أيها الواقف على الجانب المقابل من النهر المبارك"، هكذا وجهت إ[illegible] سـ[illegible]ن كلامها، الذي بدا لي ذا حد مرير الطعم.

٤ ـ ثم تابعت حديثها دون تمهل "تكلم وأذكر إذا كان ما أقوله هو الحق إذ ينبغي عليك أن تقرن اعترافك، بما وجهته إليك من الاتهام الخطير".

٧ ـ وكان قد تولاني الاضطراب الشديد، حتى احتبس صوتي ـ وأنا أهم بالكلام ـ قبل أن ينطلق من أعضائه.

١٠ ـ فتمهلت هنية؛ ثم قالت "فيم تفكر؟ أجبني؛ إذ لم تمح بعد هذه المياه ما في نفسك من الذكريات الأليمة".

١٣ ـ مزيج من الاضطراب والخوف معًا انتزع من فمي لفظ "نعم"، على نحو اقتضى مني أن أحرك عيني لكي يفهم؟

١٦ ـ وكما يقطع القوس وتره ومشده، حينما يسحب بعنف وشدة، فتفتر إصابة السهم لهدفه.

١٩ ـ هكذا انفجرت تحت هذا العبء الثقيل، فذرفت دمعي وأطلقت تنهدي وتوقف الصوت في حلقي.

٢٢ ـ وعندئذ قالت لي "خلال ما أوحيت به إليك من المشاعر التي أدت بك إلى محبة الخير الإلهي، وليس للإنسان أن يأمل بعده في شيء سواه.

٢٥ ـ أية مهاو اعترضتك أو أية سلاسل لقيت، حتى اضطررت هكذا إلى أن تطرح عنك الأمل في متابعة مسيرك؟

٢٨ ـ وأية مغريات وأية منافع تبدت لك على جباه الآخرين، حتى التزمت أن تشرع في التودد إليهم؟".

٣١ ـ وبعد أن أرسلت مرير تنهدي، استعدت بجهد صوتي الذي تولى عني الجواب، وبعناء شكلت منه شفتاي كلماتي.

٣٤ ـ وقلت وأنا أسكب دمعي "لقد انحرفت بخطواتي الأشياء الماثلة أمامي بزائف لذتها، حينما تواري وجهك عني".

٣٧ ـ فقالت "لو كنت قد سكت أو نفيت ما أنت به معترف، لما كان إثمك أقل بيانًا وإن هذا ليعرفه مثل ذلك الديان!

٤٠ ـ ولكن حينما يتفجر الاتهام بالإثم من فم الإثم، يتجه المشحذ في قضائنا بعكس حد السيف القاطع.

٤٣ ـ ومع ذلك فلكي تشعر الآن بالخجل من خطئك، ولكي تزداد نفسك منعة ـ لو سمعت عرائس البحر مرة أخرى.

٤٦ ـ فلتدع عنك الآن سبب بكائك ـ ولتصغ إلى وهكذا ستسمع كيف كان ينبغي أن يقودك جسدي وهوفي قبره إلى طريق مغاير.

٤٩ ـ وأبدًا لم تمنحك الطبيعة أو الفن من البهجة، ما منحته لك الأعضاء الجميلة التي احتوتني، وانتثرت الآن على الأرض ترابًا.

٥٢ ـ وإذا كانت قد أعوزتك بموتي هذه البهجة القصوى، فأي شيء فإن اقتضى أن يحتذبك عندئذ بإثارة شوقك إليه؟

٥٥ ـ وفي الحق كان عليك أن تعلو في إثري سبحًان حينما أصابك أول سهم من سهام الأمور الخادعة، التي لم أعد أنتمي إليها.

٥٨ ـ وما كان ينبغي لعذراء صغيرة أو لباطل آخر قصير المتعة ـ أن يخفض إلى الأرض رياشك، انتظارًا للمزيد من الضربات.

٦١ ـ وإن صغار الطير لتظل متمهلة عند رمية سهمين أو ثلاثة، ولكن عبثًا تنصب الشباك أو ترمي السهام على مرأي من الطيور المكتملة الأرياش".

٦٤ ـ وكما يقف الأطفال وقد تولاهم الخجل، فسكتوا، وخفضوا إلى الأرض أعينهم، وأصغوا، آخذين في الاعتراف بذنوبهم والندم عليها.

٦٧ ـ هكذا وقفت؛ فقالت "ما دمت تأسي بسماع كلماتي، فلترفع لحيتك، وسينالك مزيد من الآسي بالنظر إلى".

٧٠ ـ وإن شجرة اللبخ الضخمة لتخلع ـ إما بريح بلادنا أو بتلك الريح الآتية من بلاد ياربا ـ بمقاومة تقل عما بذلته.

٧٣ ـ حين رفعت ذقني استجابة لأمرها؛ وحينما دعت وجهي ـ باللحية ـ تبينت جليًا في حديثها مرارة اللوم.

٧٦ ـ ولما رفعت وجهي، أدركت عيني أن تلك الكائنات الأولي قد كفت عن نثر أزهارها.

٧٩ ـ وعيناي اللتان ظلتا يراودهما الشك، رأتا بياتريتشي تتجه نحو الوحش، الذي جمع في طبيعته أقنوعًا واحدًا.

٨٢ ـ ووراء نقابها وعبر الجدول، بدت لي أنها قد فاقت جمالها القديم أكثر من تفوقها على سائر النساء هاهنا، حينما كانت تعيش بين ظهرانينا.

٨٥ ـ وعندئذ لسعتني وخزة الندم، حتى اشتدت كراهتي لكل ما ازددت ميلاً إلى محبته من سائر الأشياء.

٨٨ ـ ولقد مزق قلبي مثل هذا الإدراك حتى هويت إلى الأرض فاقد الوعي؛ وكيف أصبحت عندئذ ـ تعرف هذا من كانت هي السبب.

٩١ ـ ولما رد لي قلبي إحساسي بما حولي، رأيت فوقي تلك السيدة التي كنت قد لقيتها وحيدة، فقالت لي أمسكبي، أمسك بي".

٩٤ ـ وسحبتني مغمورًا حتى عنقي في مياه الجدول، وفيما كانت تجذبني من ورائها أخذت تسير على صفحة الماء خفيفة كأنها الزورق.

٩٧ ـ وحينما أصبحت قريبًا من الضفة المباركة، سمعت "طهرني" ترتل بنغمة رقيقة، أعجزتني عذوبتها عن التعبير عنها أو تذكرها.

١٠٠ ـ وبسطت السيدة الجميلة ذراعيها لي؛ واحتضنت رأسي وغمرتني إلى حيث لم يكن هناك لي سوي أن أبتلع شيئًا من مياه الجدول.

١٠٣ ـ وعندئذ أخرجتني، واقتادتني ـ وأنا مبلل ـ إلى حلبة الرقص، بين الجميلات الأربع، فأحطنني جميعهن بالأذرع.

١٠٦ ـ "نحن هنا حوريات ولكننا في السماء نجوم: وقبل أن تهبط إلى الدنيا بياتريتشي، كنا قد أضحينا وصيفاتها.

١٠٩ ـ وسنقودك حتى عينيها؛ ولكن الثلاث الأخريات يمتزن في ذلك الجانب بأعمق النظرات، سيزدن من حدة بصرك إلى النور البهيج في مقلتيها".

١١٢ ـ هكذا بدأن مترنمات؛ وبعد أن سرن بي إلى صدر الجريفون، حيث كانت بياتريتشي واقفة متجهة إلينا.

١١٥ ـ قلن "إعمل على ألا تدخر وسعًا في النظر بعينيك: فها قد وضعناك أمام الزبرجدتين، اللتين رشقك منهما الحب ـ ذات يوم ـ بسهامه".

١١٨ ـ إن ألفًا من الأشواق التي تفوق حرارتها النار المشتعلة، قد ربطت عيني بالعينين المتالقتين، اللتين ظلتا مثبتتين على الجريفون وحده.

١٢١ ـ وكما تنعكس الشمس في المرآة، انعكس بداخلهما الوحش المزدوج بإحدى طبيعتيه تارة وبالأخرى طورًا.

١٢٤ ـ فلتفكر في هذا أيها القارئ، إذا كنت قد تولاني العجب، حينما رأيت الشيء في ذاته يظل ساكنًا وفي صورته يتحول.

١٢٧ ـ وبينما كانت نفسي النشوي المفعمة بالعجب، تذوق من ذلك الغذاء الذي إليه يجوع من به يمتلئ.

١٣٠ ـ تقدمت الحوريات الثلاث الأخريات، راقصات على وقع أنغامهن التي حاكت أنغام الملائكة، وقد بدون أنهن مخلوقات من أسمى عنصر.

١٣٣ ـ وكان ترنمهن: "فلتتجهي يا بياتريتشي، فلتتجهي بعينيك المباركتين إلى المخلص لك، الذي قطع لرؤيتك كل هذا الشوط!

١٣٦ ـ وأفيضي علينا من فضلك، واكشفي له عن ثغرك حتى يتبين إشراق جمالك الثاني، الذي تجعلينه خافيًا عليه".

١٣٩ ـ أيها الجلال المتألق للنور الأزلي الساطع من ذا شحب لونه في ظلال بارناسوس، أومن ذا الذي ارتوي من نبعه.

١٤٢ ـ من دون أن يبدو أنقد تولته غاشية، إذ يسعي إلى رسمك كما ترائيت لي، حيث ترسمك السماروات مكللة بنفحاتها المتآلفة.

١٤٥ ـ حينما كشفت عنك النقاب في النور الساطع؟

***

الأنشودة
32

استغرق دانتي في النظر إلى بياتريتشي ليروي عطشه إليها، حتى لم يعد يشعر بشيء مما حوله، وبهره مرآها حتى عجز عن الرؤية بعض الوقت. ولكنه استطاع أن يتبين بالتدريج الموكب المقدس يسير صوب المشرق، وسارت ماتيلدا واستاتيوس ودانتي في إثر العربة المقدسة ثم نزلت بياتريتشي عن العربة وهمس الجميع باسم آدم الذي حرم البشر من الفردوس الأرضي، وأحاط الجميع بشجرة معرفة الخير والشر. و بارك الشيوخ الجريفون - رمز المسيح - الذي سحب العربة المقدسة - رمز الكنيسة - وربطها إلى الجذع المترمل - رمز الإمبراطورية - وباتحادهما أينعت الشجرة واتخذت لونًا أقل إحمرارًا من الورد وأشد زرقة من البنفسج وأخذت دانتي سنة من النوم ثم استيقظ على نداء ماتيلدا التي دعته إلى رؤية المشهد الجديد، وكانت يقظته كيقظة بطرس ويوحنا ويعقوب بعد أن راحوا في غيبوبتهم حينما تجلي السيد المسيح وتساءل دانتي عن مكان بياتريشتي فرآها جالسة عند أسفل الشجرة المباركة طلبت بياتريتشي إلى دانتي أن ينظر إلى العربة، فرأي نسرًا - رمز الأباطرة مضطهدي الكنيسة - ينقض على الشجرة ويضرب العربة، وشهد ثعلبة - رمز الهرطقة - تهاجم العربة كذلك، ورأي تنينًا - رمز الشيطان أو جشع الإنسان - يقتلع جزءًا من العربة وشهد ما تبقي من العربة يتغطي بالريش - رمز منحة قسطنطين - ثم تحولت العربة إلى وحش ذي رؤوس يبرز من بعضها قرنان ومن بعضها الآخر يبرز قرن واحد - رمز الخطايا - ورأي امرأة داعرة - رمز الكنيسة المنحلة - تجلس فوق الوحش وبجوارها مارد - رمز لملك فرنسا المؤيد للبابوية - الذي انهال عليها بسوطه حينما نظرت إلى دانتي بعينيها المليئتين

بالشهوة. وأطلق المارد قيد الوحش ـ العربة في الأصل ـ وسحبه إلى داخل الغابة حتى لم يعد دانتي يراه ـ وهذا رمز للأسر البابوي في أفنيون.

١ ـ ظلت عيناي محدقتين مثبتتين عليها، لإرواء ظمئهما الذي دام عشرة أعوام، حتى غابت سائر حواسي عن الوعي.

٤ ـ وفي كلا الجانبين صار لهما من اللامبالاة جدار، وهكذا اجتذبتهما إليها البسمة المباركة بما لها من عتيق الشباك!

٧ ـ حين أرغمتني على الاتجاه صوب اليسار هاتيك الإلهات، إذ سمعتهن يقلن: "ألا فلتمعن في تثبيت عينيك عليها!".

١٠ ـ ولقد حرمتني من النظر برهة، الحال التي يؤول إليها البصر، حينما تصيب أشعة الشمس العينين الآن فحسب.

١٢ ـ ولكن بعد أن ألف بصري ما هو أقل منها تألقًا ـ وأقول "الأقل بالنسبة للمحسوس الأعظم الذي ارتددت عنه على الرغم منى.

١٦ ـ رأيت الجيش المجيد إلى اليمين متجهًا، ونظرته يعود وقد صارت الشمس والشعلات السبع في مواجهته.

١٩ ـ وكما تلتف كتيبة من الجند في حماية دروعهم منجاة بأنفسهم، ويستديرون مع علمهم قبل أن يتمكنو جميعًا من تغيير وجهتهم.

٢٢ ـ هكذا مرت أمامنا كل تلك الجماعة من جنود ملكوت السماوات الذين ساروا في الطليعة، قبل أن تغير العربة من اتجاه عريشها.

٢٥ ـ وعندئذ عادت السيدات إلى العجلتين، وسحب الجريفون حمله المبارك، من دون أن تهتز بذلك إحدى أرياشه.

٢٨ ـ وأخذنا نسير ـ السيدة الجميلة التي عبرت بي النهر واستاتيوس وأنا ـ في إثر العجلة التي صنعت مدارها بأصغر قوس.

٣١ ـ وعلى لحن ملائكة انتظمت خطواتنا، بينما كنا نسير في الغابة العلياء التي أقفرت من البشر بخطيئة من وضعت في الحية ثقتها.

٣٤ ـ وكنا قد سرنا شوطًا ربما يعدل طوله ما يقطعه السهم في ثلاث من رمياته، حينما نزلت عن العربة بياتريشتي.

٣٧ ـ وسمعتهم يهمسون جميعًا باسم "آدم"؛ ثم أحاطوا بشجرة تعرت من أوراقها، وخلت كل غصونها من الأزهار.

٤٠ ـ وإن قمتها التي تزداد بسطة بازدياد علوها، لتثير بشاهق ارتفاعها عجب الهنود في غاباتهم.

٤٣ ـ "طوبى لك أيها الجريفون أنك لا تقرض بمنقارك شيئًا من هذه الشجرة الحلوة المذاق، ما دام يصيب بطنك منها الضر أبدًا".

٤٦ ـ هكذا صاح الآخرون حول الشجرة الهائلة؛ وقال الكائن ذو الطبيعة المزدوجة: "هكذا تحفظ بذرة كل ما هو بر".

٤٩ ـ ولما التفت نحو العريش الذي كان يسحبه، اجتذبه إلى أسفل الجذع المترمل، وترك ما هو منه مربوطًا إليه.

٥٢ ـ وكما يحدث لأشجار الأرض أن تربو، حينما يهبط عليها النور الساطع، ممتزجًا بالنور الذي ترسله النجون السائرة.

٥٥ ـ في إثر برج الحوت، ثم تجدد كل الأشجار لونها قبل أن تبلغ الشمس بجيادها إلى ما تحت برج غيره.

٥٨ ـ وبينما كانت تلك الشجرة تتخذ لونًا أقل حمرة من الورد وأشد زرقة من البنفسج، إذ بها تجدد نفسها وقد كانت من قبل عارية تمامًا.

٦١ ـ ولم أستوعب ذلك النشيد، وهو ما لا يرتل في الأرض نظيره، والذي تغني به أولئك القوم عندئذ، ولم أقو على سماع اللحن كله.

٦٤ ـ ولو أني استطعت أن أصور كيف نامت الأعين الشريرة باستماعها إلى قصة سيرنكس ـ الأعين التي كلفتها مجرد الرؤية غالي الثمن.

٦٧ ـ لصورت كيف أخذني النوم، كمصور يرسم عن أنموذج حي؛ ولكن فليفعل هذا من يقدر على وصف النوم بأمانة وحذق.

٧٠ ـ ولذا فإني أنتقل إلى اللحظة التي استيقظت فيها؛ وأذكر أن نورًا قد مزق لي حجاب النوم، وسمعت نداء يقول لي "ألا فلتنهض وماذا أنت فاعل الآن؟".

٧٣ ـ وكما اقتيد كل من بطرس ويوحنا ويعقوب وهم فاقدو الوعي ـ لكي يروا نويرات شجرة التفاح التي تثير بهم الملائكة إلى أثمارها.

٧٦ ـ وتقيم في السماء عرسًا أبدًا ـ ثم أسترد أولئك رشدهم بالكلمة التي قطعت نومًا أعمق.

٧٩ ـ فتبينوا أن قد نقص من جماعتهم كل من موسي وإيليا، ورأوا أن قد تبدل لباس معلمهم.

٨٢ ـ هكذا عدت إلى رشدي، ورأيت بجانبي واقفة تلك الرحيمة التي قادت من قبل خطواتي إزاء النهر.

٨٥ ـ فقلت وأنا مبلبل مضطرب "أين بياتريتشي؟" فأجابت "فلتنظر إليها جالسة عند جذور الشجرة في ظلال أغصانها المحضرة".

٨٨ ـ ولتنظر إلى الجماعة التي تحيط بها، وهاهم الآخرون يصعدون في إثر الجريفون، وإنهم نيشدون بأغان ذات ألحان أعذب وأعمق".

٩١ ـ ولست أدري هل استرسلت في كلامها، إذ كانت قد تراءت لعيني من حالت دون انتباهي إلى أمر سواها.

٩٤ ـ وعلى الأرض الحقة جلست وحيدة، وهناك ظلت لكي تقوم بحراسة العربة، التي رأيت يربطها الوحش ذو الطبيعة المزدوجة.

٩٧ ـ وصنعت الحوريات السبع من أنفسهن حولها سورًا، بما في أيديهن من الأنوار الآمنة من ريح الشمال وريح الجنوب.

١٠٠ ـ "إنك ستكون هنا من سكان الغابة لفترة قصيرة؛ وستصبح معي بلا نهاية من أهل روما العظيمة، حيث يعد المسيح مواطنًا رومانيًا.

١٠٣ ـ ولذلك فلتركز عينيك على العروبة الآن، حرصًا على صالح العالم الذي يحيا حياة الشر، ولتعمل على تدوين ما تراه حين تعود إلى ذلك الجانب".

١٠٦ ـ هكذا تكلمت بياتريتشي؛ وأنا الذي كنت قد وقفت خاضعًا خاشعًا أمام وصاياها ـ اتجهت بفكري وعيني حيث شاءت.

١٠٩ ـ لم تسقط أبدًا صاعقة من سحابة كثيفة بهذه السرعة الفائقة، حين تهوي من تلك الحدود الشاهقة البعد عنا.

١١٢ ـ كما رأيت طائر جوبيتر ينقض على الشجرة، محطمًا لحاءها فضلاً عن أزهارها وأوراقها المخضرة.

١١٥ ـ وبعنفوان قوته ضرب العربة؛ فمالت كالسفينة وسط العاصفة، التي اجتاحت الأمواج يمناها تارقوطورًا يسراها.

١١٨ ـ ثم نظرت ثعلبة تندفع إلى باطن عربة النصر، وقد بدت صائمة عن كل غذاء صالح.

١٢١ ـ ولكن حينما عنفتها سيدتي على خطاياها الخبيثة، دفعتها إلى الفرار مسرعة، بقدر ما احتمل عظمها الخالي من اللحم.

١٢٤ ـ ومن حيث أتي النسر أولا يهبط منقضًا على باطن العربة، ثم ينثني عنها وهي مفعمة بأرياشه.

١٢٧ ـ وكالصوت الذي يُنبعث من قلب يتملكه الآسي ـ هكذا صدر عن السماء صوت شرع يقول: "أيا زورقي، كم حملوك بالمفاسد!".

١٣٠ ـ ثم بدا أن الأرض قد انشقت بين كلتا العجلتين، ونظرت تنينًا يخرج منها ويعمد إلى إنشاب ذنبه في العربة.

١٣٣ ـ وكزنبور يسحب حمته، اقتلع جزءًا من قاع العربة حينما اجتذب ذنبه الخبيث إليه، ثم مضي متمايلاً في سيره.

١٣٦ ـ وكأرض خصبة يكسوها العشب، اكتسي بالريش ما تبقي منها، ولعله قد منح بنية خالصة حسنة.

١٣٩ ـ وتغطي به ثانيًا العريش وكلتا العجلتين، في وقت أقل مما يظل فيه فم الإنسان مفتوحًا عند التنهد.

١٤٢ ـ ولما تشكلت على هذا النحو العربة المباركة، برزت رؤوس على كل أجزائها، ثلاثة منها فوق العريش، وواحد في كل ركن من أركانها.

١٤٥ ـ وكان للرؤوس الأولي قرنان كقرني الثور، أما الرؤوس الأربعة فكان لكل منها على الجبين قرن واحد.: ولم ير بعد لهذا الوحوش نظير أبدًا.

١٤٨ ـ وكقلعة ثابتة فوق جبل عال، تبدت لي امرأة داعرة معتلية ذلك الوحش وهي شبه عارية، ومدت عينيها الطلعتين إلى ما حواليها.

١٥١ ـ ولكيلا ينتزعها من الوحش أحد، رأيت ماردًا يقف إلى جانبها، وتوالي بينهما تبادل القبل من آونة لأخرى.

١٥٤ ـ ولكن ذلك العاشق المفترس، انهال عليها بسوطه من رأسها إلى قديمها، إذ اتجهت إلى بعينيها المذبذبتين المليئتين بالشهوة.

١٥٧ ـ ثم فك المارد إسار الوحش وقد أفعم قلبه بالغيرة وجن جنوه بالغضب، وسحبه إلى أعماق الغابة، حتي صنع لي منها فحسب دريئة.

١٦٠ ـ تحجبني عن الداعرة والوحش العجيب.

***

الأنشودة
33

أخذت السيدات السبع ترتلن باكيات على مصير الكنيسة السيء، وشاركتهن بياتريتشي في ألمهن ولكنها أعلنت نبوءتها بزوال الشرور والمفاسد، وأشارت إليهن بالسير مع دانتي وماتيلدا واستاتيوس، ثم التفتت إلى دانتي ودعته للمجئ إلى جوارها حتى يكون أقدر على سماعها، وشجعته على التخلص من الخوف والخجل. وقالت بياتريتشي إن الإمبرطورية لن تظل دائمًا بدون وريث، وسيأتي الزمن الذي يظهر فيه رسول يبعثه الله لكي يقضي على المساوئ، وسوف تتضح لدانتي كل المسائل، وسألته أن يعي في ذهنه الحال التي رأي عليها الشجرة - رمز الإمبراطورية - وما طرأ عليها من التغير حتى يذكر ذلك عند عودته إلى الدنيا وقالت إن آدم بقي ألوف السنين يتطلع إلى السيد المسيح الذي عاقب نفسه على خطيئة آدم - كما يعتقد المسيحيون - وسوف يدرك دانتي العدالة الإلهية في تحريم الأكل من هذه الشجرة وسألها دانتي لم تسمو كلماتها عن مستوي إدراكه، فأجابت بأنها تفعل ذلك لكي يري أن تعاليم الفلسفة التي اتبعها لا تكفي لكي يفهم وأنها بعدت به عن الطريق الإلهي، فقال دانتي إنه لا يذكر أنه ابتعد عنها فأجابته بأن هذا من أثر مياه ليتي وكان الوقت ظهرًا حينما توقفت الجماعة عن المسير عند ظل ظليل، وبدا لدانتي أنه يري نهرين يخرجان كالدجلة والفرات من ينبوع واحد، وينفصلان كصديقين متمهلين عند الرحيل فاستفسر دانتي عن ذلك متعجبًا، فقالت ماتيلدا إنها سبق أن فسرت له كل شيء واقتادت ماتيلدا دانتي واستاتيوس إلى نهر إينووي الذي يعيد للإنسان ذكري الأعمال الصالحة، ونعم دانتي بالماء العذب الذي لم يكن ليرتوي منه أبدًا، واعتذر للقارئ عن عدم وصف أثره

لضيق المقام. وهكذا أصبح دانتي كأنه ولد من جديد كالنبات الذي يتجدد بأوراقه الخضراء، وصار طاهرًا مؤهلاً للصعود إلى النجوم.

١ ـ "اللهم إن الأمم قد دخلوا ميراثك"، هكذا شرعت السيدات ترتلن باكيات المزمور العذب على اتساق وتوافق، ثلاث منهن تارة وأربع تارة أخرى.

٤ ـ وبوجه لم يكد يزيد عنه تحت الصليب وجه ماريا الشاحب ـ على هذا النحو أصغت إليهن بياتريتشي وهي تأسي وتصعد الزفرات.

٧ ـ ولكن حينما أتاحت لها هاتيك العذاري فرصة الكلام، نهضت واقفة على قدميها، وأجابت وقد اكتسي وجهها بلون النار.

١٠ ـ "بعد قليل لا تبصرونني، ثم بعد قليل ترونني ثانيًا، يا أخواتي الحبيبات.

١٣ ـ ثم دفعت أمامها السيدات السبع جميعًا، وبإشارة منها فحسب، حملتنا على السير في إثرها أنا والسيدة والحكيم الذي ظل في صحبتنا.

١٦ ـ وهكذا مضت في سيرها، ولا أظن أنها كانت قد درجت على الأرض بعشر من خطاها، حينما تألق في عيني وميض من عينيها.

١٩ ـ وبوجه هادئ قالت لي: "هلا تسارع الخطي حتى تصبح في موضع ملائم للإصغاء إلى إذا ما خاطبتك".

٢٢ ـ ولما صرت إلى جانبها امتثالاً لكلمتها، قالت لي "يا أخي، لم لا تجترئ على سؤالي ما دمت تسير بجواري الآن؟".

٢٥ ـ وكما يحدث لمن يتكلمون باحترام بالغ أمام من يعلونهم قدرًا، فلا تتجاوز أصواتهم المنبعثة حد شفاههم.

٢٨ ـ هكذا حدث لي، فبدأت أتكلم بصوت مقطع: "إنك يا سيدتي عليمة بحاجتي وبما يطيب لها".

٣١ ـ فقالت لي "إنني راغبة أن تحرر نفسك الآن من الخوف والخجل، حتى تكف عن الكلام كما يفعل الرجل حينما يحلم.

●●

٣٤ ـ ولتعلم أن العربة التي حطمها التنين كانت من قبل موجودة وهي غير موجودة الآن، ولكن فليثق من أثم بسببها، أنه ما من حائل يهابه انتقام الله.

٣٧ ـ ولن يظل أبد الدهر بلا وريث ـ النسر الذي ترك على العربة أرياشه، وبذلك أصبحت وحشًا ثم صارت فريسة.

٤٠ ـ وإني أخبرك بأني أري في الحقيقة نجومًا تقترب الآن آمنة من كل عائق وخالصة من كل عقبة، لكي تجود علينا بالزمن.

٤٢ ـ الذي سيفتك فيه ـ من حساب جملة خمسة عشرة وخمسمائة ـ رسول من الله ـ سيفتك بالمغتصبة الداعرة وبذلك المارد الذي يرتكب معها المعصية.

٤٦ ـ وربما لا يكفي لإقناعك حديثي، الذي هو في غموض قصتي تميس وأم الهول، إذ يغشي العقل على منوالهما.

٤٩ ـ ولكن سرعان ما ستصبح الوقائع هي النيادس التي تحل هذا اللغز العويص، بدون خسارة تلحق بالقطيع أو محصول الحنطة.

٥٢ ـ فعليك بأن تعي ما قتله لك، ولتنقل عني هذه الكلمات كما تلفظت بها، إلى من يعيشون الحياة التي هي إلى الموت سباق.

٥٥ ـ وحين تدونها فلتذكر ألا تخفي كيف رأيت الشجرة، التي انتزعت هاهنا أوراقها مرتين الآن.

٥٨ ـ إن كل من يسرقها أو يسلبها شيئًا، يشيء بشائن فعله إلى الله، الذي لم يخلقها مقدسة إلا لخدمة هدفه.

٦١ ـ بالنهش منها تطلعت النفس الأولي في عذاب وشوق ـ أكثر من خمسة آلاف سنة ـ تطلعت إلى من عاقب نفسه على تلك القضمة.

٦٤ ـ وإنك لتعد غائبًا وعيك إذا لم تقدر أن سببًا فريدًا قد سما بالشجرة إلى ذلك الارتفاع الشاهق، وبه امتدت هكذا عند القمة.

٦٧ ـ ولو لم تكن أفكارك الباطلة قد صارت في رأسك كماء نهر الإلسا، ولم يفعل ابتهاجك بها ما فعله بيراموس بثمار التوت.

٧٠ ـ لكفتك هاتان الخاصيتان لكي تدرك مغزي العدالة الإلهية، في التحريم المنصب على الشجرة العالية ـ بمعناه الخلقي.

٧٣ ـ ولكن ما دمت أري أن عقلك قد استحال صخرة، و تحجرت أفكرك وأظلمت نفسك، حتى لتبهرك أنوار كلماتي.

٧٦ ـ فلا زلت أرجو أن تعيها في نفسك ـ وإن لم تكن مكتوبة فمرسومة على الأقل، لذات السبب الذي تعود عكاز الحاج متوجًا بسعف النخل".

٧٩ ـ فقلت "لقد انطبع ذهني بكلمات الآن، كشمع الختم الذي لا تتغير الصورة الممهور بها أبدًا.

٨٢ ـ ولكن لما تحلق عاليًا فوق متناول إدراكي ـ كلمتك التي تتوق نفسي لسماعها، بحيث يزداد بعدها عني كلما ازددت سعيًا إليها؟".

٨٥ ـ فقالت "لكي تعرف أية مدرسة اتبعتها، وتري كيف يمكن لتعاليمها أن تتبع كلماني.

٨٨ ـ ولكي تدرك أن طريقك ينأي عن طريق الله، كما تنأي عن الأرض السماء التي تسارع إلى الدوران في أعلى مدارجها".

٩١ ـ فأجبتها عندئذ: "لا أذكر إني قد جعلت نفسي غريبة عنك أبدًا، ولست أشعر بوخز الضمير من جواء ذلك".

٩٤ ـ فقالت لي وهي تبتسم: "إذا كنت لا تستطيع أن تعي ذلك، فلتذكر الآن كيف شربت اليوم من مياه ليتي.

٩٧ ـ وإذا ما دل الدخان على اشتعال النار، فإن نسيانك يثبت جليًا أن إرادتك تعتورها الخطيئة ـ باتجاهها وجهة أخرى.

١٠٠ ـ ولكن كلماتي ستصبح لك الآن جلية، بقدر ما سيكون ذلك ضروريًا لكي يكشف عنها نظرك المعتم".

١٠٣ ـ ويوهج أشد وخطي أبطأ كانت الشمس قد استوت في دائرة الزوال. التي تنتقل هنا وهناك، بحسب الأماكن التي تري منها.

١٠٦ - حينما توقفت - كما يتوقف من يسير أمام جماعة كأنه دليلها، إذا ما لقي أشياء غريبة أو ما ينبئ عنها.

١٠٩ - حينما توقفت السيدات السبع عند حافة ظل ظليل، أشبه بما تلقي به جبال الألب على غدرانها العذبة، تحت أفنانها الداكنة وأوراقها المزدهرة.

١١٢ - وأمامهن بدا لي أني أري الفرات والدجلة يخرجان من نبع واحد، وكصديقين حميمين يتمهلان عند افتراقهما.

١١٥ - "أيها النور المتألق، ويا مجد البشرية، أية مياه هذه التي تنبثق من ينبوع واحد، وتبتعد بذاتها عن ذاتها؟".

١١٨ - وإزاء هذا الرجاء سمعتها تقول عليك برجاء ماتيلدا حتى تخبرك عن ذلك". وهنا أجابت الغادة الجميلة كما يفعل من.

١٢١ - يخلص نفسه من اللوم: "لقد حدثته عن هذه المسألة وعن أشياء غيرها، وإني واثقة أن مياه ليتي لم تخفها عنه".

١٢٤ - فقالت بياتريتشي: "ربما أظلمت عينا عقله بمشغلة أجل شأنًا، والتي كثيرًا ما تحرم الإنسان من ذاكرته.

١٢٧ - ولكن هاك نهر إينووي ينساب في ذياك الجانب، فخذيه إليه، وأعيدي له قواه الواهنة، كما كان ف مألوفك أن تفعلي ذلك".

١٣٠ - وكالنفس الرقيقة التي لا تلتمس سبيلاً إلى المعذرة ، ولكن تشكل إرادتها بإرادة غيرها، حين يفصح عنها بإشارة بادية.

١٣٣ - هكذا سارت بي الغادة الجميلة، حينما أمسكت بي، وقالت لاستاتيوس "هلا تأتي معه"، بتعبير ينم عن رقة شمائلها.

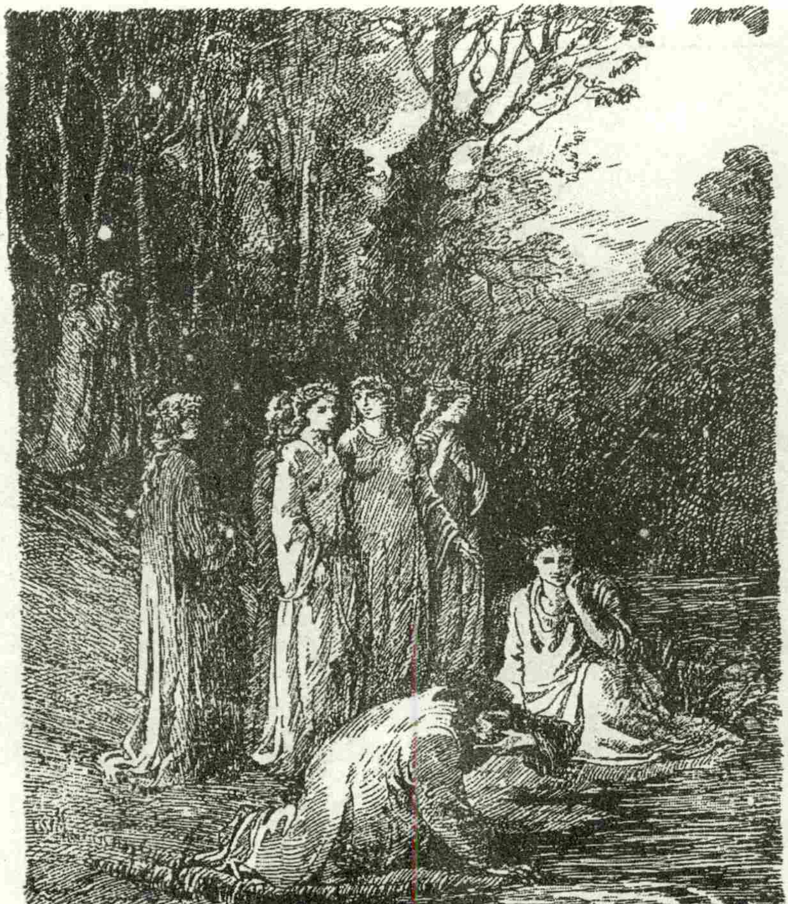
١٣٦ - ولو اتسع لي مجال القول - يا قارئي - لشدوت على نحو غير مكتمل بالكوثر الذي ما كنت لأرتوي منه أبدًا.

١٣٩ - ولكن لما كانت صفحاتي الخاصة بهذا النشيد الثاني قد أضحت كلها مفعمة، فإن عنان فني لا يدعي أمضي ف قريضي.

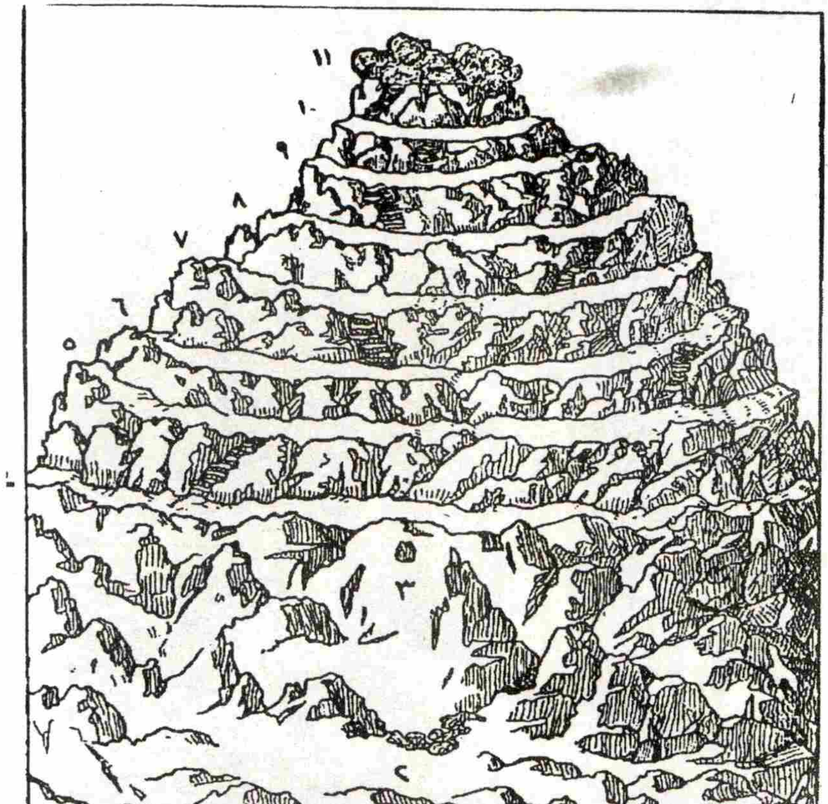
١٤٢ ـ وعدت من أعظم الأمواج قدسية مولودًا جديدًا، كالأشجار الجديدة التي تتجدد ببزوغ أوراقها الوليدة.

١٤٥ ـ وصرت طاهرًا مؤهلاً للصعود إلى النجوم.

***



دانتي يشرب من مياه نهر إينووي



رسم ايضاحى لجبل المطهر